

سلسلة

جدران  
المعرفة

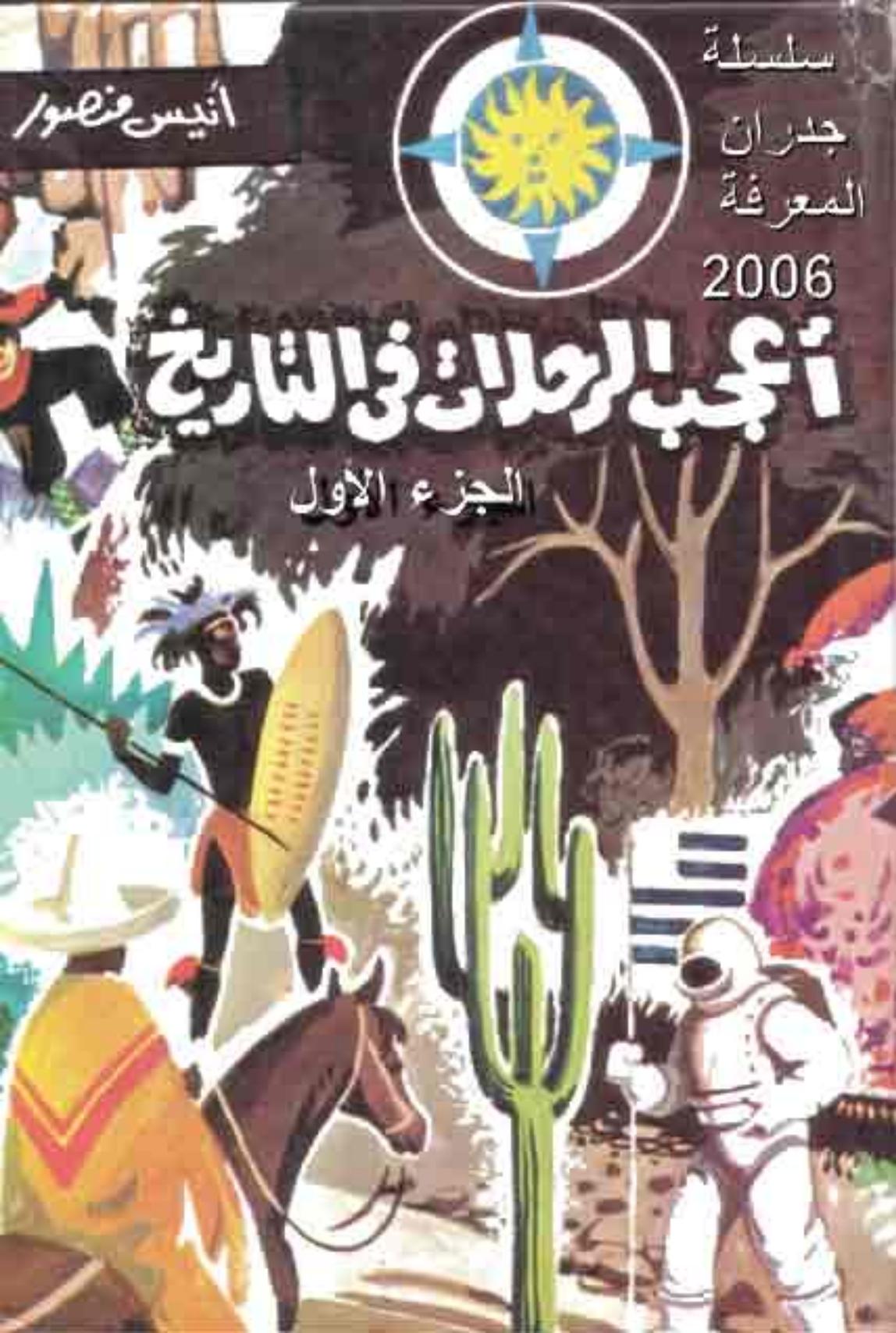
2006



أنيس فضول

# أعجب الرحلات في التاريخ

الجزء الأول



سلسلة  
جدران

k o t b

المعرفة®

بسم الذى أعطى الإنسان القدرة على التفرد  
فى عالم تقارب فى التشابه الى حد بعيد .

أما بعد :

فانه يشرفنا أن تخرج أخيراً سلسلة " جدران المعرفة " كسلسلة ثقافية ، هدفها الأول هو إثراء الشبكة العنكبوتية بالكتب القيمة التى تستحق القراءة أولاً واخيراً . وليس هدف هذه السلسلة

هو نقل الكتب من مكان باليمين لنضعه فى الناحية الاخرى بالشمال . وانما الهدف الحقيقى ، هو نقل الكتب الورقية من المكتبات الى كتب إلكترونية يمكن الشباب من القراءة فى سهولة ويسر وبدون تحمل أى جهد ماضى أوحتى معنوى .

ويركز القائمين على السلسلة على الكتب التى تهم الشباب

أن قضية أنتقاء الأفضل من الكتب ، قد جعلنا نصيب أحيانا ونخطأ كثيراً حيث اننا نعمل فى هذه السلسلة على خدمة عدة اتجاهات " توفير مادة لائقة للقراءة لشباب ، تشجيع تحويل الكتب الورقية الى ألكترونية بطريقة لا تتعارض مع مصالح دور النشر ، تشجيع عملية الترجمة ، نشر الكتب المترجمة والمتخصصة نوعاً ما " .

والصراحة صدر فى هذه السلسلة ، عدة كتب نفتخر بها وأنا الله قد من علينا بأن جعلنا أصحاب فضل نشرها ، وهناك بعض الكتب التى حدث أخطاء فى تصويرها ولم نتمكن من تدراك الاخطاء الناتجة من طريقة التصوير ، والبعض الاخر الذى فشلت جميع طرق تصغير الحجم معه حتى كان أحدهم ١٤٠ ميغا وهما كتابين لكارل بوير والاخر لأنيس منصور ، وقد اكتشفنا ان كتاب " المختار من القصص العالمية " قد سبقتنا مكتبة الإسكندرية بنشره .

الا أننا نؤمن بان " الفشل يعلم أكثر من النجاح " . ونحن عاقدين العزم ان شاء الله على تجنب هذه الاخطاء فى المستقبل ! . مطورين مشروعنا بأحتكاكنا بكم ، ومحاولين تلبية رغبات الجبهة العريضة من الشباب .

## نصحية مهمة

ونتمنى من الاخوة ، اذا ارادوا ان يقرأوا كتاب وهما جداد فى هذا المجال أن يتحلوا بالصبر أولاً ، ثم عندما يقررون قراءة كتاب ، عليهم ان يعقدوا العزم على قراءة سطر واحد مش بقول لنفسه " ان هقرأ المئة صفحة ... " لان هذا محيط للعزم ، ومثبط للهمم . وليترك كل شئ بالتمهيد ، وليقرأ اليوم صفحة وسيقرأ غداً الكتب بأكلمها فى جلسة واحدة ... ولكن كل شئ بالتمهيد ، وبالتخطيط ، وبالصبر .

وحرصاً منا على مساعدتكم فقد أرفقنا فى كل كتاب من كتب السلسلة ، فهرس للكتاب نفسه حتى تتمكنوا من تصفح عناصر الكتاب ، حتى اذا وجدتم شيئاً أثار انتباهكم أو شدكم اليه ، ساعدكم ذلك على متابعة القراءة - التى هى الهدف الاول من هذا المشروع . كما أننا حرصاً منا على أحاطة القارئ بالكتب الصادرة فى السلسلة ، فقد ارفقنا فى نهاية كل كتاب قائمة باسماء الكتب الصادرة .

## كلمة اخيرة :

\* فى هذا العصر الذى أصبحت فيه المعرفة هى كل شئ ، والجهل هو افطع شئ . فى هذا العصر الذى وصل الأضحلال ما وصل بنا ، والجهل ضرب أوتاده فينا... " لم يبقى لنا الا الكتاب حتى نعود اليه ليعود بنا الى عصور العزة مرة اخرى ، ولا تعجب من أن تعاليم موسى كانت ألواحاً ، وبشارة المسيح كانت أنجيلا ، وأول كلمة لمحمد - صلى الله عليه وسلم - كانت اقرأ ، حتى الملاحظة أساس فكرهم أصله الكتب " .

ويمكنكم المشاركة فى توجيهنا الى الكتب المفيدة التى تستحق أن نصورها scane ، عن طريق بريدنا الألكترونى [theknowledge\\_walls@yahoo.com](mailto:theknowledge_walls@yahoo.com) . كما يتوجه القائمين على

الداعمين لهذه السلسلة <http://kotob.no-ip.org> ، دعماً تسبب فى ظهورها لحيز الوجود . ولو لا الله ثم هما ، لم كتب لهذه السلسلة ان تظهر الى حيز الوجود اساسا . والى كل من " ميرو ، نسيبة بنت كعب " من منتدى رابطة الواحة ، على دعمهم القوى لهذه السلسلة . والذين لم يتخلوا يوماً من الايام عن ثقتهم فى قدرتنا على تحقيق شئ ما ...

جدران المعرفة

شعارنا

\* الجهل نعمة \*

J & M

- ١٩٧٢ الطبعة الأولى  
١٩٧٣ الطبعة الثانية  
١٩٧٦ الطبعة الثالثة  
١٩٧٧ الطبعة الرابعة  
١٩٧٩ الطبعة الخامسة  
١٩٨١ الطبعة السادسة  
١٩٨٢ الطبعة السابعة  
١٩٨٤ الطبعة الثامنة  
١٩٨٨ الطبعة التاسعة  
١٩٨٩ الطبعة العاشرة  
١٩٩١ الطبعة الحادية عشر  
١٩٩٤ الطبعة الثانية عشر  
١٩٩٥ الطبعة الثالثة عشر

طيور غريبة ...  
على شجرة المسافرين

هناك ثلاثة أنواع من الرحلات :

— أن تسافر . .

— وأن تقرأ الكتب . .

— وأن تقرأ كتب الرحلات<sup>(١)</sup> !

والذى يسافر إلى الأماكن البعيدة يريد أن يعرف . . يريد أن يفهم . .  
يريد أن يرى الجانب الآخر من الجبل أو النهر أو من البحر . . والجانب الآخر  
من الإنسان ومن تجاربه من أجل الحياة والتقدم . .

وهناك فرق بين أن تسافر لترى البلاد ، وبين أن تسافر لتعرف الناس  
والذى يسافر كثيراً يعرف الكثيرين ، ولكنه يصادق القليلين . .  
والمثل الإغريقي يقول : إن الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب — أى عشب  
الصداقة والمحبة والهدوء . . ولكن هل من الضرورى أن ينبت العشب  
على الحجر . . ليس ضرورياً . . يكفى أن الحجر يتحرك ويتنقل ويذهب هنا ،  
ويصطدم هناك . . ولكنه يمضى ويسجل فى أعماقه هذه الفوارق العريضة  
العميقة بين شعب وشعب . . وبين تجارب شعب وتجارب شعب آخر . . أى  
ما الذى فعلته الشعوب فى تاريخها . . وبتاريخها أيضاً . .  
المهم أن يتحرك . .

---

( ١ ) راجع كتي: « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » و « بلاد الله خلق الله » و « اليمن ذلك المجهول »  
و « أطيب تحياتى من موسكو » .

والذى يسافر إلى بلاد أخرى ويعود يحدث أهله عما رأى ، هو فيلسوف  
والذى يروح ويحيى ولا يقول . . إنه صعلوك فقد استمتع واكتفى !

وفي الصفحات الأولى من ملحمة « الألياذة » نجد الشاعر الأعمى  
هوميروس يتحدث عن البطل فيقول : إنما راح وصارع وتعذب وانتصر  
وسجل ما رأى ليعود ويقول للناس شيئاً جديداً مثيراً ممتعاً !

وكثيرون راحوا وجاءوا . . وجاءوا كما راحوا ، لم يتغير منهم شيء . .  
وسبب ذلك أن نفوسهم صماء . . لم تنفتح على شيء ، ولم يتسلل إليها شيء . .  
والمثل القديم يقول : حمار سافر ، فلن يعود حصاناً !

وعندما شكوا أحد تلامذة سقراط من أن السفر لم يفده ولم يغيره قال له  
سقراط : من الطبيعي ألا يفيدك السفر شيئاً ، لأنك سافرت مع نفسك !

فالتطبيعي جداً أن يسافر الإنسان . . أن يرحل . . أن يذهب بعيداً عن  
بيته ووطنه . . ليرى ويعرف . . إنه حب المعرفة . . إنها المغامرة . . إنه  
المجهول الذى يتحدانا وتحداه . . إنها متعة المعرفة والخوف منها معاً . .  
ولذلك فالرحلة هى مزيج من الرغبة والرغبة . . من الشجاعة والخوف . .  
ولكن الإنسان يفضل دائماً أن يعرف المجهول مهما كان الثمن . . وكثيراً  
ما دفع المسافرون أرواحهم من أجل أن يعرفوا . . وماتوا وهم يعرفون  
أكثر . . ولا بد أن تعاسمهم الوحيدة هى أن الموت حرمهم من أن يقولوا  
ما الذى رأوه . .

وكثيرون رأوا . . وعادوا يقولون . . إن المؤرخ هيرودوت جاء  
إلى مصر . . وعاد ورأى العجائب . . وكتب . . وكان يتغنى بما رأى  
في مهرجان الألعاب الأولمبية . .

والأسكندر الأكبر جاء إلى واحة سيوة . . وطلبت إليه إحدى الآلهات  
أن ينفرد بها . . وهمست فى أذنه بسر الكون . .

والقائد هانيبال أقسم أن يعبر البحر وأن يجعل الأمواج بساطاً إلى روما . .  
حتى يقضى على كل روماني وحتى يمسك في يديه مصير مدينة روما إلى الأبد .  
- . . والرحالة الإيطالي ماركو بولو . . أهانته فتاة يجيها ، فأقسم  
ألا يعود إلى بلاده إلا وهو بطل تتعلق بحذائه عشرات الفتيات الجميلات . .  
ويرفضهن جميعاً !

وعاد ولم يجد الفتيات . . ولم يحزن على ذلك . . فالذي رآه أروع . .  
وأصدق . .

واين بطوطه هاجمه الهنود ومزقوا مذكراته كلها . . وعاد ليروى  
ما حدث له في عشرين عاماً من الذاكرة . .

والرحالة ابن جبير الكنانى الأندلسى الشاطبي قد تعب كثيراً من  
رحلاته في الشرق الأوسط . . ولكنه في النهاية سعيد بما رأى . . ويشكر الله  
على ذلك . . وفي نهاية رحلته يقول :

فألقت عصاها واستقر بها النوى

كما قر عيناً بالإياب المسافر

« والحمد لله على الصنع الجميل الذى

أولاه ، والتيسير والتسهيل الذى

والاه ، فكانت مدة مقامنا من موعده

خروجنا من غرناطة إلى وقت إيابنا

هذا ، عامين كاملين وثلاثة أشهر

ونصفاً ، والحمد لله رب العالمين »

وكل هؤلاء المسافرين المغامرين يتحدثون عن عذابهم بلذة . . ولو

خيرناهم أثناء رحلاتهم الطويلة أن يعودوا لرفضوا . . فهم يريدون أن يستمروا . . أن يمضوا حتى نهاية الرحلة . . أو نهاية الحياة . .

وفي كل كتب الرحلات هذه العبارة : لا أعرف ماذا حدث . . وكيف حدث . . ولكنى قررت أن أتوكل على الله حتى النهاية . .

فمثلا في « رحلة كون تيكي » للرحالة النرويجي تورهايردال يقول :  
كان ذلك يوم ١٧ مايو . . إنه عيد الاستقلال . . ونحن في عرض المحيط . .  
لا أعرف كيف حدث ما حدث . . كيف وجدت نفسي في المحيط على  
زورق خشبي . . معي بيغاء وخمسة من البحارة . . ولما سألت واحداً منهم  
قائلا : كيف حدث ما حدث ؟ كان رده : « لا أعرف ، إنها  
فكرتك المجنونة . . ولكنها رائعة ! »

ولابد أن البحار هايردال قد اعتاد على هذا الجنون عندما عبر المحيط  
مرة أخرى بالزورق « رع » المصنوع من أعواد البردى . .

ويقال إن هيرودوت المؤرخ الكبير جاء إلى مصر هرباً من البوليس . .  
فقد أتهموه بالاشترك في مؤامرة . . وقد حاول هيرودوت أن يجعل لرحلته  
إلى مصر معنى نفسياً أو فلسفياً . . مع أنه ليس إلا مجرماً هارباً ، حاول أن  
يستفيد من منفاه !

ولابد أن صاحب هذا الرأي لا يقبل أن يسافر أى إنسان لمجرد السفر  
والمعرفة . . فلا بد أن يكون هناك سبب . . فالغرض من السفر هو أن يخفف  
الإنسان من عذابه . . أن يلقي بهومه على الشواطئ الجديدة . . ويرميها  
على الوجوه الجديدة . .

هذا المعنى أيضاً نجده في الصفحة الأولى من « ألف ليلة وليلة » . .  
فهذه الليالي هي شكل أدبي لكى يروى لنا المؤلف المجهول حوادث ونوادر  
. . وعادات غريبة في بلاد غريبة . . وليس صحيحاً أن هذه الليالي كانت

بسبب خيانة زوجة الملك شهريار أو زوجة أخيه الملك شاه زمان . . فألف ليلة وليلة تبدأ بأن الملك شهريار قد اشتاق لأخيه الأصغر شاه زمان . . وطلب إليه أن يجيئ لزيارته . . وأعد الملك الأصغر خيامه وخيوله . . وفي آخر لحظة تذكر شيئاً - وكان لابد أن يتذكر هذا الشيء - وعاد إلى القصر ليجد زوجته بين ذراعى خادم زنجي . . فقتل الاثنين . . وسافر حزينا إلى أخيه شهريار . . وعندما دعاه أخوه إلى الصيد والتخفيف عن نفسه ، اعتذر الأخ الأصغر وذهب الأخ الأكبر وحده . . وتصادف - ولابد أن يتصادف طبعاً - أن نظر الملك الأصغر من النافذة . . فوجد زوجة أخيه ومعها عشرة من الخدم الزنوج .. وتبادلوا عناقها جميعاً .. وكانت صدمة . وأحس الأخ الأصغر بأن مصيبتته هو أهون من مصيبة أخيه . . وروى لأخيه ما حدث ولم يصدق . . وقرر أن يرى بعينه . . وتوارى ورأى - مصيبة أخرى !

ومن هذا الشعور بالهوان والحيية واليأس تنبع قصص « ألف ليلة وليلة » فقد قرر الأخوان أن يسافرا إلى بلاد أخرى وشعوب أخرى . . ليريا إن كان هذا ما تفعله النساء مع كل الرجال أو أن هذه هي حال الدنيا . . أو حال دنياهما فقط . .

وتحت إحدى الأشجار وجد الأخوان فتاة جميلة ينام على ساقها عفريت فخافا . . ولكن الفتاة طلبت إليهما أن يهبطا وأن يعانقها الواحد بعد الآخر . . وإلا أيقظت العفريت . . واقتربا منها . . وعانقها ، الواحد بعد الآخر . . وأطلعت الأخوين على عقد به ٥٧٠ خاتماً . . قد أخذتها جميعاً من أناس عانقوها الواحد بعد الآخر ، بينما كان العفريت نائماً على ساقها . . وخلع كل منهما خاتمه . . وأعطاه للفتاة !

ومن المنطق أن يقول أحد الأخوين : إذا كان هذا هو حال المرأة مع عفريت فما الذى تفعله المرأة مع أى إنسان ؟

وعاد شهريار إلى بيته وقتل الزوجة وخدامها . . وراح كل ليلة يتزوج فتاة ويقتلها .. حتى جاءت شهرزاد تروى أكثر من مائتى قصة فى « ألف ليلة وليلة » وتروى له عجائب الدنيا لكى ينساها . . لقد اشترت حياتها بالرحلات والمغامرات . .

أما المعنى العام لهذه الليالى كلها فقد جاء فى صفحاتها الأولى هكذا :

ولا تثق بعهودهن	لا تأمنن إلى النساء
معلق بصدورهن	فرضاؤهن وسخطهن
والغدر حشو ثيابهن	يبدن وداً كاذباً
متحذراً من كيدهن	بحديث يوسف فاعتبر
أخرج آدمأ من أجلهن؟!	أو ما ترى أبلّيس

والذى حدث للملكين ليس إلا « حيلة » أدبية لاستدرج القارئ . . وبعد ذلك تتحول الليالى إلى مغامرات فى البر والبحر وبين الناس . . وفيها شعر وخيال وفيها حقائق تاريخية جغرافية وموعظة أخلاقية !

وكثير من النوادر العجيبة التى دخلت فى عالم الخيال ، قد أعاد روايتها « ابن بطوطة » فى رحلته .. فهو يحدّثنا عن الأحجار التى سقطت من السماء .. وعن النساء اللأئى لمن ثدى واحد .. وعن العفاريت التى تحكم جزر المالديف فى المحيط الهندى ..

وكل صاحب رحلة يروى ما شاهد على طريقته وبأسلوبه .. ولكن من الضرورى أن يكون صادقا . وأن يضع الصدق فى براويز فنية .. والذى يقرأ « رحلات جيلفر » للكاتب الساخر الكبير سوفيت يجد هذه العبارة فى نهاية الكتاب : ( لو كان الأمر بيدى لأصدرت قانونا يحتم على كل رحالة أن يقسم بالله العظيم أن يقول الحق ولا شئ إلا الحق قبل أن ينشر ما رأى وما سمع » !

ومن الغريب أن هذه العبارة قد جاءت في نهاية رحلات لا أساس لها من الواقع ، وإنما هي خيال الأديب الكبير الساخر – ومن المؤكد أنه يسخر من العلماء الجامدين الذين لا يصدقون ما يقوله الرحالة المغامرون . . ولا يحبون شاعرية المسافر الذى بهرته الأشياء والأشخاص والمواقف !

وليس المهم أن يسافر الغريب إلى أرض غريبة ، وإنما أن يعود إلى بلده ليقول .. لعل أحداً ينتفع بما قرأ .

وكثير من الناس لم يروا بلادهم وإنما فتحوا أعينهم وقلوبهم على الخارج وأقفلوها على أنفسهم .. وكان القديس أوغسطين ينصح تلامذته بقوله : بل اجلسوا .. اجلسوا .. وما هذه الأنهار والجبال والوديان والنجوم والفتيات .. بلادكم أولى بكم .. بل نفوسكم أعمق .. فانظروا فيها ..

.. وهو يدعو تلامذته إلى أن يتأملوا الإنسان نفسه .. فى النفس أعماق وألغاز ، أصعب مما فى هذا الكون كله .. ولا بد أن يستعين الإنسان بغيره على أن يفهم نفسه .. يستعين بالكتب .. أى بمؤلفي هذه الكتب .. ولذلك فقراءة الكتب : رحلات أخرى فى عقول الآخرين .. ووسيلة إلى الرحلات فى أعماقنا .

أما كتب الرحلات فهى أعماق الآخرين .. وأعماقنا نحن أيضا .. وأعماق هذه الدنيا .. ولذلك كانت أروع الرحلات هى التى نقوم بها فى رحلات الآخرين .. نرى بعيونهم ونسمع بأذانهم ، نرتدى على أحضانهم ونمشى على الدنيا معا .. وفى ذلك متعة للخيال وتشويق للإرادة .. أن نفعل مثلهم .. نسافر مثلهم .. ونكتب مثلهم .. وننفع بلادنا فى النهاية ..

ولاخوف إذا سافرنا .. ولاخوف إذا قصرت رحلاتنا .. ولا ضرر إذا لم ننجح كما نريد .. وإنما المهم أن نروح ونجئ .. أن نرى ونروى .. أن نعيش ونثير .. أن ننفع وننتفع ..

ولا أزال أذكر ما قاله الحريري في كتاب « المقامات » :

نقل ركابك عن ربيع ظمئت به إلى الجناب الذي يهوى به المطر  
فإن رددت فما في الرد منقصة عليك ، قد رد موسى قبل والخضر

ونحن في عصر الرحلات والمغامرات العلمية بين الأرض والكواكب الأخرى .. وإذا كنا لا نعرف الكثير من هذه الكواكب ، فلأن هذه الرحلات من الأسرار العلمية .. فأمريكا وروسيا ، لا تسمحان إلا بالقليل من المعلومات .. وحتى لو سمحت الدولتان ، فإن رواد الفضاء ليسوا من الأدباء أو الشعراء ولذلك لا يعرفون كيف يصفون .. حتى الحملة الوحيدة التي قالها أول إنسان وضع قدمه على القمر كانت قد كتبت له قبل أن يرتفع عن الأرض .. فلما ردها أخطأ في النحو . !

ولكن المسافر ، يجب أن يكون قادراً على الاحتمال . وقادراً على الملاحظة . وقادراً على أن يروى بعد ذلك . وأن يكون ممتعا .. وهناك عشرات سافروا وغامروا ورأوا عجائب الدنيا القديمة والجديدة .. وأساءوا فهم ما رأوا .. وبرعوا في فهم ما رأوا .. ولكنهم دائماً يستحقون الإعجاب . ويستحقون أن نلتفت إليهم وأن نتعلم منهم .. وأن نلاحقهم جرياً وراءهم بأقدامنا وعقولنا وخيالنا ..

ولما بدأ الإنسان حياته على هذه الأرض كان صياداً يرحل من مكان إلى مكان ولذلك يجب أن يبدأ كل طفل حياته وكذلك كل شاب : أن يسافر في بلاده ليعرفها .. وأن يسافر إلى بلاد أخرى ليعرف ويقارن ويعود ليصلح نفسه وغيره .. وليضيف إلى تاريخ بلاده .. تجارب الآخرين .. فليس أروع من السفر .. وليس أحب من المسافرين الذين يقولون ويقدرّون على ذلك ..

وفي جزيرة مدغشقر يوجد نوع من أشجار الموز .. الشجرة مرتفعة جداً ولها أوراق ملتوية كأنها ذراعان تحتضنان شيئاً .. أما هذه الأوراق فهبط

عليها الأمطار . وتنزل الأمطار إلى حوض في نهاية الأوراق . ويظل المطر في هذا الحوض ترتوى منه الشجرة في وقت الجفاف . وقد سميت هذه الشجرة باسم « شجرة المسافرين » لأنها مثل المسافرين تدخر الماء لوقت الحاجة .. ولأن الكثيرين من المسافرين الذين لا يجدون الماء يبحثون عنه في هذه الشجرة .. يرتوون ثم يتمددون تحتها وينامون ..

وهناك أسطورة تقول إنه إذا نام تحت الشجرة مسافر واحد ، فإن نوعا من الطيور يقف على هذه الشجرة .. وهذا الطير لا يقف على الشجرة إلا إذا كان النائم من بلاد غريبة ..

فما أكثر الطيور على أشجار المسافرين في كل مكان !

وكان المصريون  
يطلقون طيورهم عجم

حدث له هو أيضا ما حدث لمحمد على الكبير عندما سقط في الماء ،  
امتدت إليه أيدي البحارة .. وأنقذوه ثم أعادوه إلى الشاطئ فقد كان هارباً .  
واختلف المؤرخون في السبب الذي هرب منه المؤرخ الإغريقي هيرودوت  
الذي ولد سنة ٤٨٠ ق.م .

قالوا : هارب من ديون !

وقالوا : هارب من فضيحة أخلاقية .

وقالوا : بل من مؤامرة سياسية .

وعندما سئل بعض أقاربه أكدوا أنه مجنون – وأنه يحدث نفسه كثيراً  
وأنه يمشى أثناء النوم .. ولذلك فعندما حاول الهرب من « تركيا » إلى أى  
مكان في العالم ، كان طبيعياً أن يفعل ذلك . أليس مجنوناً !

ولكن هيرودوت لم يكن مجنوناً إلا بالسفر .. إلا بأن يعرف من أين  
يجئ هؤلاء الناس الذين يراهم يعبرون الدردنيل .. إنهم بيض وسمر وصفر  
وسود .. طوال وقصار وعيونهم سوداء وزرقاء .. وشعرهم أسود وأصفر .  
ولا توجد بينهم نساء .. ولا أطفال ..

قرر الشاب هيرودوت أن يسافر .. ووجد نفسه ، وهو في العشرين  
بين ركاب إحدى السفن . تمارض في الأيام الأولى حتى لا يسألوه عن أى شئ .  
إن كانت معه فلوس . أو كان مسافراً أو مهاجراً . أو حتى من هو ولماذا  
ترك بلاده مع أنه ليس تاجراً ولا جندياً . وكان هيرودوت يخاف على شئ  
تعلق في عنقه : إنه كيس من القماش ملاءه بألواح من الشمع ليسجل عليها  
ملاحظاته . وعرف هيرودوت أنه مسافر إلى مصر .. وكان سعيداً . وطلب  
إلى المسافرين أن يستمعوا إليه وهو يغنى .. ويقال إن صوته جميل .

ولا يحدثنا هيرودوت عن السفينة أو البحر . فقد اتجهت عيناه وخياله إلى مصر والشواطئ المصرية والمعابد والأسرار . ويبدو أنه نزل عند رشيد . وأقام في أحد الفنادق هناك . الفندق صغير من ست غرف . لكل واحد غرفة . ومن الغريب أن الناس يتحدثون بعضهم إلى بعض دون سابق معرفة . والمصريون كما يقول كرماء . كل واحد يعطيك ما في يده وهو لا يعرف من أنت .. وإنما يحس أن من الواجب أن يفعل ذلك وإلا اعتبروه بخيلا – وهذه رذيلة كبرى !

ولم يمض وقت طويل على بقاء هيرودوت في مصر حتى قال : « إنها أجمل بلاد الله . وفيها من العجائب والأسرار ما يعجز القلم عن وصفه » .

ولاحظ هيرودوت أن المصريين عموما في غاية الرشاقة . رجالا ونساء . وبسرعة أدرك الفوارق بين المصريين وبين كل شعوب العالم . يقول هيرودوت إنه ذهب إلى الأرض التي جرت عليها إحدى المعارك الحربية بين المصريين والفرس . ولاحظ أن جماجم الفرس قد وضعت في جانب .. وجماجم المصريين في الجانب الآخر .. وأن جمجمة الجندي الفارسي هشة لدرجة أننا إذا ألقينا عليها حجرا ثقبها .. أما جمجمة الجندي المصري فيصعب أن نثقبها بحجر . وسأل هيرودوت رجال الدين : ما السبب ؟ فقالوا إن المصريين يخلقون رؤوسهم تماما وتظل معرضة للشمس مدى الحياة وهذا يجعلها أكثر صلابة . أما الفرس فيضعون العائم على رؤوسهم .

يقول هيرودوت : يبدو أن هذا سبب وجيه !

واندهش هيرودوت وهو يمشى في شوارع المدن والقرى المصرية ... البيوت منعزلة بعضها عن بعض .. والمعابد كثيرة . والموسيقى تخرج من وراء كل باب ونافذة .. وهناك انحلال شديد . أو كما يقول هيرودوت : لم أكن أتصور أنه من الممكن أن يكون للإنسان حريات شخصية إلى هذه الدرجة ! ويقول أبو التاريخ هيرودوت : « جو مصر مختلف عن كل أجواء

الدنيا والنهر كبير واسع مليء بالحياة والحركة .. والناس لهم عادات غريبة . إن المصريين يختلفون عن كل الشعوب الأخرى .. الرجال يذهبون إلى السوق ، والنساء يجلسن يغزلن في البيت . الرجل يحمل الأشياء على رأسه ، أما المرأة فتحملها على كتفها .. الرجال يذهبون إلى دورة المياه ويجلسون ، أما المرأة فتذهب لتقف .. المصريون يتناولون طعامهم خارج البيت ، ولكن يحرصون على النوم في الداخل . لأن المصري يرى أن كل ما هو خاص جدا ، يجب أن يتم في سرية .. المرأة المصرية لا يمكن أن تكون راهبة أو كاهنة وهذا أفضل .. الرجال فقط . رجال الدين في العالم كله يطلقون شعورهم والمصريون يخلقون تماما . الرجال يضعون الباروكة في الجنازات ، بينما في العالم كله لا يفعلون ذلك .. كل الشعوب الأخرى يضعون حيواناتهم في الزرايب ، المصريون ينامون مع حيواناتهم .. المصرية عندما تعجن فإنها تعتمد على ركبتها ولكن لا مانع عندها أن تمد يدها إلى الطين أو إلى روث البهائم ثم تعود إلى العجين مرة أخرى .. الرجال يلبسون الثوب من قطعتين ، والمرأة من قطعة واحدة .. المصريون يكتبون من اليمين إلى اليسار ، والشعوب كلها تكتب من اليسار إلى اليمين . المصريون عندهم نوعان من الكتابة : مقدسة وعادية .. المصريون يرون أن الطهارة ضرورة صحية ومقدسة أيضا .

وهيرودوت شاب دقيق الملاحظة . وكان يسأل دائما لكي يعرف . وعندما لا يقتنع يقول : سمعت الكهنة يقولون ذلك .. أو قال لي واحد من الكهنة ..

وقد لاحظ هيرودوت في مصر عددا كبيرا من رجال الدين .. ملابسهم نظيفة وفي صحة جيدة .. ويستحمون مرتين في اليوم بالماء البارد حتى لا يكون في ملابسهم قمل أو براغيث - فأمام الآلهة يجب أن يكون الكاهن نظيفا تماما .. والكهنة يعيشون مجانا : طعامهم وملابسهم . والذي يزور الكاهن في معبده يزور رجلا غنيا أمامه الطعام من كل لون : دواجن وفاكهة

ولحوم ساخنة . وباردة – ولا بد أن هذا منظر لا يمكن أن ينساه رجل جاء من الشاطئ الآخر . وليس معه مليم واحد . وإنما يكتسب قوته من تدريس اللغة اليونانية . ومن كرم رجال الدين ... ولذلك كثيرا ما يتحدث هيرودوت عن الولائم والطعام الكثير الذى يتناوله المصريون أو الذى رآه على مآدب الأغنياء .. ومن الغريب أن الأغنياء لا يأكلون كل هذا الطعام . ولذلك يسأل هيرودوت نفسه هذا السؤال الخالد : لماذا يقدمون طعاما كثيرا يفرض عنهم ، وهم يعلمون ذلك ؟!

وقد لاحظ أن المصريين يحبون الحفلات والمهرجانات .. الغناء .. والرقص .. والخمر . ولكن من الملاحظات العبقريّة لهيرودوت : أنه نظر إلى وجوه المصريين فوجد عليها مسحة من الحزن . ويقول : إذا نظرت إلى سيدة من بعيد ، وكانت تضحك أو تغنى .. فإنك لا تعرف – حقيقة – إن كانت تبكى أو تندب عزيزا عليها .

ولكن إذا اجتمع الناس فالرجل يمسك المزمارة والمرأة تمسك الصاجات وينهض الرجال يرقصون .. والنساء يرقصن .. ولاحظ أن الرجل هو الذى يرفع ثوبه – على سبيل الإغراء – إذا رقص !

أما عيد المصاييح فالمصريون يضعون فى أيديهم آنية قد امتلأت بالزيت وفيها شموع تظل مشتعلة طول الليل .. وحول الشموع ترقص الفتيات والرجال يرقصون ويغنون ويتساقطون من الضحك والانسجام – وكلهم يشربون الخمر .

وقد أطلعه بعض رجال الدين على الطقوس السرية للآله أوزوريس بشرط أن يكتم السر .. وكتم السر . ولم يذكر شيئا واحدا مما رأى .

وأطلعه الكهنة المصريون على أسرار كثيرة لهذا الكون ولتحويل المعادن إلى ذهب .. وكان هيرودوت عند وعده . لم يقل شيئا<sup>(١)</sup> !

(١) راجع كتابي « الذين هبطوا من السماء » .

ولكنه ذكر أنه رأى نوعا من الأفاعى تطير .. ورأى الكهنة يطلقون طيوراً مصنوعة من الحجارة ، فإذا هي تطير . ولم يستطع هيرودوت أن يعلق على ذلك .. ولكنه عندما عاد إلى أثينا راح يروى ما رأى لشباب أثينا أثناء الألعاب الأولمبية .

واندهش هيرودوت عندما رأى تماسيح النيل .. وربما كان هيرودوت هو المسئول وحده عن نشر حكاية التماسيح في نيل مصر .. فقد ظل الناس يعتقدون أن التماسيح تبكى طول الليل في القاهرة .. مع أننا لا نراها إلا في حديقة الحيوان .. ومن مئات السنين . وقد وصفها هيرودوت فقال : التماسيح له عينا خنزير .. وأسنانه كثيرة .. وليس له لسان (!؟) وهو الحيوان الوحيد في العالم الذى يحرك فكه العلوى؟! .. والتمساح لا يرى فى الماء .. وإنما يرى على الشاطئ فقط .. وفى مدينة أسوان يأكل المصريون التماسيح ولا يرونه مقدسا .

ولسبب غير معروف هاجم هيرودوت الملك خوفو .. أو على الأصح تأثر برأى الكهنة فى هذا الملك .. فهم يرون أنه ملك سافل منحط حقير - هذه كلمات هيرودوت أيضا . فهو الذى سخر الشعب فى بناء الهرم الأكبر . وأنفق ميزانية الدولة .. ويقول هيرودوت إن من عادة المصريين أن يطلبوا إلى البنت أن تساعد والدها ، أما الولد فليس مضطرا إلى ذلك .. ولهذا كان من الطبيعى أن يطلب الملك خوفو إلى ابنته الجميلة أن تساعد .. وتحيرت الفتاة ما الذى تصنعه .. فأشار أبوها إلى جمالها وهو يقول : أليس لهذا الجسم الجميل ثمن ؟

ثم تقدم الذين يريدون أن يدفعوا الثمن ..

وساعدت ابنة فرعون والدها ..

ويروى هيرودوت أن الهرم الأكبر معجزة فى البناء . ويرى أن نقل الأحجار هو المعجزة .. لذلك لا بد أن يكون الهرم قد بنى أول الأمر على

شكل مصطبة ثم رفعوا إلى جوارها التراب .. ومن التراب المرتفع كانوا يرفعون الأحجار مستخدمين آلات رافعة من الخشب .. وقد بنى الهرم أكثر من مائة ألف عامل .. وكانوا يعملون ثلاثة شهور كل سنة ولمدة عشرين عاما .. أما الطريق الذى رصفه العمال ليدحرجوا عليه الأحجار فقد كان معجزة هندسية .

وعرف هيرودوت من الكهنة أن المهندس الذى بنى الهرم أراد أن يبين للأجيال القادمة كيف صنع العمال المصريون هذه المعجزة وأى نوع من الطعام كانوا يأكلون .. فسجل كميات البصل والفجل والثوم التى استهلكها العمال .. وبعملية حسابية بسيطة يمكن معرفة كم تكلف بناء الهرم الأكبر ..

ثم يعود هيرودوت يهاجم الملك خوفو ويروى عنه قصة لها نظير فى التوراة فيقول إن خوفو أصابه الفقر فى آخر أيامه .. ولم يجد غير ابنته . وأعطت ابنته جسمها لأغنياء مصر .. ودفعوا .. ورضى الأب .. ولكن لسبب غريب أيضا أصرت الابنة أن تبنى هرما صغيرا . وأن تكون أحجار هذا الهرم بعدد عشاقها .. وعدد لعناتها على أبيها ، أو لعنات الأجيال القادمة .. ويقول هيرودوت إنها أقامت هرما صغيرا ..

اندهش هيرودوت جدا عندما سمع هذه القصة .. ولما رأى الكهنة دهشته قالوا له : إذا لم تصدقنا فلنذهب معا إلى الهرم .

وضاق هيرودوت بما سمع . فاعتذر .. ولو ذهب لرأى تمثال أبو الهول .. ولكن هيرودوت لم ير هذا التمثال الجميل ولم يعرف أن له وجودا .

وفى اليوم التالى ذهب هيرودوت إلى حيث يوجد الهرم الثانى .. يقول : من المؤكد أنه أصغر من الهرم الأول .. هذا مؤكدا فقد قست قاعدة كل منهما . أما الهرم الثالث فقد سمع هيرودوت من الكهنة أن له قصة أخرى .. فقد أقامته الغانية رادوبيس . كانت غنية .. وكانت تحرص على مالها .. وقد

ساعدت في إقامة بعض المعابد في بلاد اليونان . ولما سأل هيرودوت عن مدى ثرائها .. ثم عرف .. استبعد أن تكون هذه الغانية هي التي أقامت الهرم الثالث .. لأنه يتكلف أموالا لا يملكها فرد .. بل تملكها دولة ..

ولابد أن هيرودوت وجد أن قصة بناء الأهرامات من السهرات الحمراء مكررة وبخيفة .. وأن الكهنة يحقدون على ملوكهم لأنهم يعجزون عن إقامة أهرامات أكبر وأجمل .. أو أن الكهنة لم يعد لهم هذا الدور القوي في الحكم .. ربما ..

وكان هيرودوت يتحدث عن السفن الشراعية اليوم .. فهو يصف السفن الشراعية .. ويصف معاكسة الريح لها .. ونزول الناس إلى الشاطئ وسحب السفن الشراعية ضد الهواء إلى جنوب مصر وشمالها .

وكل ما رآه هيرودوت في مصر قد هزه وأثاره وأسعده .. ولكن شيئا واحدا لم يتحمله : البعوض .. إنه كثير جدا في شمال مصر وجنوبها .. والناس يضعون ( الناموسية ) على فراشهم .. والناموسية هي نفس الشبكة التي يستخدمونها في الصيد .

ويقول هيرودوت وكان البعوض يتسلل إلى ما وراء الشبكة ويلسع ..

ولاحظ هيرودوت أن المصريين يسهرون في الأماكن العالية .. وسبب ذلك أن البعوض لا يستطيع أن يرتفع إليهم . وحتى إذا كاد النوم يغلبهم عادوا إلى بيوتهم .. فلا يشعرون بلسع البعوض ..

ولابد أن المؤرخ هيرودوت قد عانى الكثير في رحلته إلى مصر وبلاد الشرق الأوسط . ولكنه لم يذكر لنا شيئا عن نفسه . ما الذي كان يلبسه .. أين يأكل ويشرب وينام وماذا تناول : وكيف يكتسب قوته .. وما وسائل المواصلات بين مدن مصر ، وبين مصر والدول الأخرى .. هل ركب الحمار أو الحصان .. هل سار على قدميه ؟

هل مرض ؟ كيف عاجلوه .. ثم كيف سجل هذا التاريخ فى النهاية ..  
وكيف كان يسجل ملاحظاته أولا بأول .. هل صحيح أنه تزوج سبعا من  
النساء أو أنه وعد واحدة بالزواج ثم هرب منها إلى مصر ؟

إذن فالمؤرخ هيرودوت هو نوع من المؤرخين الذين ينشغلون بالعالم  
عن أنفسهم . هناك نوع آخر تشغلهم أنفسهم عن العالم .. هذا ينبع من الواقع ..  
وذلك ينبع منه الواقع .

ولكن لا يزال المؤرخ الإغريقى هيرودوت صاحب أجمل وأمتع رحلة  
قديمة إلى مصر .. وأخطر رحلة أيضا .. فكثير من ملاحظاته التى نقلها بحسن  
نية ظلت عالقة بأقلام وأذهان الأوروبيين أكثر من ألى سنة كما هى -  
تماسيح النيل على شواطئ القاهرة مثلا ..

فربح ولم يعد ...  
أصغر وأعظم رجل !

عندما انتصر الإسكندر الأكبر في أكبر معاركه في الهند اعتقل عشرة من الفلاسفة . وقال لهم : سوف أقتل صاحب الإجابة السيئة . إذن أمامكم أفسى امتحان ! .

واختار واحدا منهم قاضيا . وبدأ في الامتحان . والسؤال الأول – للفيلسوف الأول : أيهم أكثر عددا : الأحياء أو الأموات ؟ وكان الجواب : الأحياء لأن الأموات لا وجود لهم .

السؤال الثاني : أيهما أكبر .. حيوانات البر أم حيوانات البحر ؟

ورد الفيلسوف : بل حيوانات البر .. لأن البحر جزء من البر ؟

السؤال الثالث : كيف تستطيع أن تقنع إنسانا بأن يثور ؟

الجواب : بأن أوكد له أن الإنسان يجب أن يعيش كريما أو يموت كريما .

السؤال الرابع : ماهى أحبب الحيوانات ؟

والجواب : التي لم نكتشفها بعد ..

والسؤال الخامس : أيهما أسبق .. الليل أو النهار ؟

وكان رد الفيلسوف الخامس : النهار أسبق من الليل بيوم واحد !

ولما لاحظ أن الإسكندر لم يقنع بهذا الجواب عاد يقول :. لا تؤاخذني

إذا كان الجواب غريبا . فالسؤال غريب أيضا !

ثم كان السؤال السادس : ما الذى يفعله الإنسان ليكون محبوبا ؟

وكان الرد : بأن يكون قويا لا مخيفا ..

أما السؤال السابع فهو : كيف يكون الإنسان لها ؟

والجواب : بأن يصنع المستحيل !

والسؤال الثامن : أيهما أقوى الحياة أو الموت ؟

وكان الرد : الحياة أقوى لأنها تحمل كل المصائب ومع ذلك تستمر

وتحرص على الاستمرار .

أما السؤال التاسع فكان : إلى متى يحرص الإنسان على حياته ؟

وكان الرد : إلى أن يشعر بأن الموت أفضل من الحياة ..

ثم اتجه الإسكندر الأكبر إلى الفيلسوف العاشر وقال له : ما رأيك ؟

ونفض الفيلسوف مدعورا ليقول له : مولاي .. عفوا ليس قبل أن أعرف

رأيك فى كل ما سمعت !

ولكن الإسكندر أطلق سراح الفلاسفة ومنحهم الكثير من الهدايا . ولم

يكن ممكنا لفتى إغريقى - ابن الحضارة العظيمة وتلميذ الفيلسوف أرسطو - أن

يقتل فيلسوفا لأنه قال شيئا لم يعجبه . أو لم يقنعه . بل إن الإسكندر قبل قيامه

بغزواته فى آسيا . قد رأى رجلا متمددا فى الشمس . واقترب منه وسأله من

أنت ؟ فقال : إنسان . وسأله : وماذا تريد ؟ فقال : ألا تحجب عنى الشمس .

وأعجبه هذه الإجابة وسأل عنه فقيل له إنه الفيلسوف ديوجين . وقال

الإسكندر : لو لم أكن أنا الإسكندر العظيم لتمنيت أن أكون فى قوة هذا

الرجل ..

ولم يكن فى ذلك الوقت قد تجاوز العشرين !

ويقال إن الإسكندر الأكبر قد سأل الفيلسوف العاشر : هل رأيت أعظم منى ؟ ويقال إن الفيلسوف العاشر قد فكر لحظة ثم قال : أنت أعظم إنسان في بلادك .

ولم يسترح الإسكندر إلى هذا الجواب . ولكنه هز رأسه . وقال : يبدو أن الحق معك .. أنا أعظم إنسان هناك .. ولكن هنا .. الشمس أعظم . والجوع أشع !

ولكن الإسكندر كان يعتقد أنه أعظم قائد في كل العصور . فهو في طفولته قد أقنعت أمه أنه ابن كبير الآلهة . وكان الإسكندر يحزن كلما انتصر أبوه في معركة عسكرية ويقول : إذا انتصر أبي ، فما الذى يتركه لى بعد ذلك؟ إنه أصغر مسافر وأكبر قائد ..

وقد ولد الإسكندر الأكبر فى اليوم الذى احترق فيه معبد ديانا . وكسبت خيول والده فى الألعاب الأولمبية .. وقال الكهنة : إن مولده حدث جليل .

ويقال إن أنفاسه كانت عطرية . وملابسه أيضا . ويقال إن رأسه ثقيل لدرجة أن عنقه لا يقوى على حمله ولذلك كان يميل به إلى ناحية اليسار . وكان إذا مشى أسرع . ولما سألوه : ولماذا لا تشترك فى الألعاب الأولمبية وكان جوابه السريع : هاتوا لى عددا من الملوك !

وكان أبوه يقول : إن ولدى هذا تضيق عنه مملكتى ؟

وفى السادسة عشرة من عمره تركه أبوه ملكا على البلاد . وكان يتصرف كأنه ملك . وكانت قراراته غريبة عجيبة . وكان يجلس إلى جواره أعظم فلاسفة الإغريق : أرسطو ..

ولا أحد يدرى بالضبط ما الذى خطر على رأس هذا الشاب سنة ٣٣٤ ق.م . وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، على رأس جيش كبير . أعظم الجيوش الأوروبية فى ذلك الوقت .. ما الذى يريده من السفر بقواته إلى آسيا ..

هل يريد أن « يعرف » نهاية العالم .. مجرد معرفة .. هل ذهب لينتقم من الفرس الذين أحرقوا أثينا منذ قرن ونصف قرن .. هل ذهب ينشر الحضارة الإغريقية في الإمبراطورية الفارسية في آسيا وشمال أفريقيا .. هل هي مغامرات الشباب : خمر وذهب وعطور ونصر في النهاية .

إنه رفض أن يحدته إنسان في شئ وقواته تعبر الدردنيل .. في سفن .. وعلى ظهور الخيول .. ثلاثون ألف جندي وأربعة آلاف حصان .. وألوف يحملون الرماح التي طولها ١٨ قدما ومئات من المهندسين وعشرات من الفلاسفة وعشرات من السكرتارية وأربعة آلاف جندي من الحرس الخاص . ونساء وأطفال يمشون وراء هذه القوات أو وراء الشاب العظيم المغامر . ولم يخطر على بال هذا الشاب أنه ذهاب بلا عودة .. فلن يرى الإسكندر أرضه حيا بعد اليوم .

وعلى عادة الإغريق انطلقت سفينته به بعيدا عن الشاطئ .. ثم عادت لتقترب منه قليلا قليلا .. وليند رمحه الطويل ويلمس الشاطئ .. رمزا على أنه سوف ينال بسهولة كل ما يريد .. وقد نال ما يريد ، ولكن بصعوبة وعندما نظر الإسكندر إلى الشاطئ وجد بعض الشبان يستحمون فقال وهو حزين : ما أتعسى لقد نسيت أن أتعلم السباحة !

أما الإمبراطورية الفارسية في ذلك الوقت . فقد كانت واسعة منهاره تضم أرض العراق وسوريا وليبيا وما بين النهرين وغربي الهند . وقد هاجمها الإسكندر في وقت كانت تتداعى . وكان الإسكندر حريصا على أن يكون إغريقيا مائة في المائة .. في الطعام والشراب واللهو والصلوات . وكانت ترافقه معشوقته الجميلة تاييس وكان هو أيضا ليس ملكا طول الوقت .. لأنه ملك على الرجال . ولكن مع محبوبته هو مواطن آخر .. وعندما لاحظت محبوبته تاييس أن في خيمتها ثوبا تتسلل منه الشمس أشارت برجلها إليه .. وضحك الإسكندر ليقول : هذا الثقب أستطيع أن أسده .. أما قرص الشمس

فليس في قدرتي بعد أن أحطمه . ويقال إن تاييس بكت . فوعدها بأن يطفى الشمس .

وسافر الإسكندر إلى مصر وأقام فيها أكثر من سنة .. واستطاع بذلك الخارق أن يختار المكان المناسب لإنشاء مدينة الإسكندرية ، وهي واحدة من تسع مدن تحمل اسمه . وجمع المهندسين والجغرافيين ، ولاحظوا أن الأرض سوداء . وأنهم لا يستطيعون أن يخططوا للمدينة فأتوا بكمية من الدقيق يثرونها على الأرض .. وفجأة جاءت الغربان وأكلت الدقيق . وانزعج الإسكندر . ولكن علماء الفلك قالوا له : سوف تكون هذه المدينة جنة يعيش عليها الإنسان والحيوان والطيور .

وفي إحدى الليالي سمع الإسكندر صوتا يناديه في أعماقه . ونهض وسأل حبيته تاييس إن كانت هي التي نادته . ولكنه وجدها نائمة .. تتقلب ثم طلب المزيد من النيذ والقبلات . وخرج الإسكندر من خيمته ليسأل إن كان أحد قد ناداه .. ثم عاد يسمع الصوت يطلب إليه أن يذهب إلى واحة سيوه .. وأن يزور معبد الإله آمون .. وسار الإسكندر مع بعض أتباعه على شاطئ البحر . ثم نزل إلى الجنوب على حدود ليبيا . وكان يخاف من الرياح الرملية ومن العطش . ولكن الإسكندر آمن بأنه ابن الآلهة . وأن هذا الصوت الذي ناداه لا يمكن أن يكون شيطانا . وترك الخيول وركب الجمال . وسار في نفس الطريق الذي هلك فيه جيش قبيز قبل ذلك .. ثلاثون ألفا من قوات الفرس دفنت في الصحراء . ولكن الغربان كانت تقوده .. فإذا أخطأ في الاتجاه راحت الغربان تنق . فإذا ضل أحد من رجاله تصايحت الغربان حتى يعود إلى الطريق السليم .

وفي معبد آمون سمع الإسكندر من الكهنة أن الإله يريد أن يراه على حدة . ودخل الإسكندر واقترب وسأل الإله : إن كان الذين قتلوا قد لقوا ما يستحقون من عقاب ؟ ورد الإله : نعم . كلهم !

ولا أحد يعرف كيف كان شعور الإسكندر عندما نصبه كهنة آمون إلهًا ! إن صناعة الإله والتأليه هي إحدى حيل المصريين القدماء .. لأنها السم المقدس الذى يعطونه للإنسان لكي يتعالى على البشر . ويموت لا هو إنسان ولا هو إله ..

وشرب الإسكندر هذه الجرعة .

وكان من عادة الإسكندر أن يكتب الكثير من الرسائل فكتب إلى أمه يؤكد لها أن الفراعنة يقولون أيضا إنه إله ابن كبير الآلهة . ثم قال لها : وهناك أسرار أخرى سوف أحكيها لك عندما أعود . ولم يعد ومات وسره معه ..

وعندما اتجه الإسكندر بعد ذلك إلى أطراف الإمبراطورية الفارسية بلغه أن أستاذه العظيم أرسطو قد نشر بعض محاضراته . فكتب إليه الإسكندر عابثا يقول : « عتاب من الإسكندر إلى أرسطو . لم تحسن صنعا أن نشرت بعض محاضراتك فقد كان من الواجب عليك أن تجعلها سرا نهاهى به الأمم . ولا أزال أفضل أن تكون لى قوة العلم لا قوة السلاح » .

وعندما علم الإسكندر أن أحد أصدقائه فى أثينا فشل فى إقناع فتاة بالزواج منه . بعث إليه بهذه الرسالة ..

« هناك طريقتان لإقناع الفتاة بأن تكون لك : أن تعطيها الكثير من الهدايا وأن تحبها .. ولا توجد طريقة ثالثة . لأن الناس قد ولدوا أحرارا .. »

وفى إحدى المعارك الكبرى مع الملك دارا تذكر أنه يجب أن يبعث رسالة إلى أحد أصدقائه فى موضوع مضحك . كتب يقول بعد نهاية المعركة : « أعرف أن حصانك ضاع . سيكون لك واحد أفضل منه . وهذا إقرار منى بذلك .. » .

وبعد أن فرغ من هذا الخطاب قال لأحد حراسه : أريد أن أذوق طعم الملك . فقال الحارس : أنت ملك دائما يامولاي .. ولكن الإسكندر قال :

« فقط عندما أستحم بالماء الدافئ .. وأضع العطر وأنظر في عيني الفتاة التي أحبها وأنام في أمان .. هذا هو الملك ! » .

وقبل أن يذهب الإسكندر إلى حمامه قال له أحد الضباط : مولاي ... الوقت مناسب للهجوم على الملك دارا .. ليلا ، وكان رد الإسكندر : أيها القائد العظيم إن الإسكندر لا يسرق النصر .. إنني سوف أهزمه نهارا . سوف أجعله يرى نفسه منهارا . ويراني منتصرا .

وفي بلاد « العراق » أحس الجنود أن هذه هي نهاية العالم . وأنهم تعبوا . وأنهم يحملون الكثير من الهدايا . وأن خيولهم قد تعبت .. وأن بعض الخيول قد ماتت وأنهم يحملون هداياهم ويتساقطون تحتها . وطلبوا إليه أن يعودوا ولكن ليس الإسكندر هو الذي يعود .. وليس هو الرجل الذي يقترح عليه أحد فكرة أو خطة . فإن الإسكندر يحرق كل ما معه من هدايا .. ويفعل الضباط والجنود ذلك .

وكان من عادته أن يعطي الهدايا لكل من حوله .. بشرط أن يطلبوا منه ذلك . لأنه يجب أن تمتد إليه الأيدي . وأن يرى الامتنان في عيون الجميع .. ولكن واحدا من أصدقائه لم يحصل على هدية . لأنه لم يطلب . وفي مرة كان يلعب مع الإسكندر الكرة .. فصرخ فيه الإسكندر : لماذا لا تعطيني الكرة ؟ وكان رده : ولكنك لم تطلبها مني !

وفهم الإسكندر المعنى الذي يريد . ثم قال له : إنني أريد أن أرى امتنانك أنت أيضا !

نحن الآن في سنة ٣٢٠ ق.م .. وقد انتصر الإسكندر على الفرس في معركة أسوس . وجاء المرزبان - أي حاكم المدينة - يعرض عليه عددا من الأميرات .. ولكن الإسكندر قال : الإنسان لا يستطيع أن يكون ملكا على هذا العدد من النساء .. فالتساء يردن الرجل لا الملك !

وأَمْضَى الإسكندر ثلاث سنوات في هذه الأرض يروح ويحيى .. ولا أحد يعرف بالضبط كيف كان يتحرك .. فلم تكن هناك خريطة معه . وإنما كان يمشى بالسماع . ويتجه تبعا لمعلومات العلماء المرافقين له . وقد أمر الإسكندر ضباطه بأن يرتدوا ملابس الفرس . وأن يعاملوا الناس بالرفق .. ولا ينسوا أنهم أبناء الحضارة الإغريقية .

ومرض الإسكندر .. وطلب الطبيب .. وشكا له .. وقال للطبيب لا أريد أحدا يعرف دائي أو دوائى . فإن كان العلاج ناجحا فانشره على كل الجنود .

وبعد يومين شفى الإسكندر . وجاء الطبيب يستأذن في إذاعة الدواء ولكن الإسكندر قال : بل أنا الذى سوف أعلن ذلك .. وجمع الضباط وقال لهم : علاجى هو .. الفاكهة .. والنوم العميق .. والنصر !

وكان من عادة الإسكندر أن يملى على المؤرخين المرافقين له بعض ملاحظاته على الحياة والناس . فقال مثلا إنهم هنا في حاجة إلى نساتنا .. وإلى أفكارنا وإلى حضارتنا ..

ولم يضيع الإسكندر وقته فقد أمر ببناء مدن تحمل اسمه .. بل إن حصانه عندما مات .. وكان الحصان في الثلاثين من عمره . قد أقام مدينة تحمل اسمه .. وكذلك كلبه أقام له مدينة تحمل اسمه .

ولم يكن جنوده يعرفون أن هذا الشاب قد قرر أن يذهب إلى الهند نهاية الدنيا في ذلك الوقت . وأن يرى المحيط الذى هو آخر العالم . هكذا قال له العلماء والفلاسفة — إنه يريد أن يلمس بعينه نهاية العالم ..

وكل ما نعرفه عن رحلات الإسكندر الأكبر أنه اتجه إلى الشمال .. إلى ممر خيبر .. وأنه حاول طويلا أن يمر .. ولكن القبائل هاجمته .. وقتلت الكثير من جنوده .. ولكنه فوجئ بواد صغير .. وفي هذا الواد أناس شعرهم أصفر وعيونهم زرقاء ويعبدون إله الإغريق .. وأنهم تساقطوا راعين ساجدين

عندما رأوه .. وهناك عشرات الزهرات الإغريقية على أشجار اللبلاب ..  
وصنعوا منها تيجانا لهم ولقائدهم .. ثم شربوا ورقصوا حتى تعبوا .. أياما طويلة ..  
وفجأة انهارت الحجارة من قم الجبال على الإسكندر وجنوده .. وأصر الإسكندر  
على أن يكون في مقدمة الذين يتسلقون الجبل .

ثم اشتبك في معركة دامية مع الملك بوروس . وكان بوروس يعتمد على  
جيش كبير . وكانت الفيلة تتقدم الجنود . وانتصر الإسكندر - ووقع  
الملك أسيرا .. واستدعاه الإسكندر قائلا : كيف تتوقع مني أن أعاملك ؟  
فأجاب الرجل : كملك طبعاً ..

وجعله نائباً له على المملكة الهندية . وتعب الجنود . ونفقت الخيول ..  
وأصروا على العودة . وصرخوا .. وتظاهروا . ودخل الإسكندر خيمته .  
وراح يبكي ويتمرغ على الأرض ويقول : ماذا ستقوله الأجيال القادمة عنا  
إننا انتصرنا معاً . وكسبنا لأمتنا ما لم يكسبه أحد منا .

وفي يوليو ٣٢٦ ق.م .. قرر الإسكندر أن يعود من نفس الطريق الذي  
طوله ١٢ ألف ميل والذي قطعه في ثماني سنوات ..

وتوقف الإسكندر عند قبائل تعيش على الأسماك فقط .. أظافرها طويلة  
وشعورها أيضا .. وبيوتها مصنوعة من الحار وفي عيونهم بريق غريب .. ولكن  
وجوههم شاحبة وأصواتهم صارخنة . ونساءهم جميلات وفي برودة  
السمك - هذا تعبيره ..

وأنشأ الإسكندر مدينة خامسة تحمل اسمه ..

وانزعج الإسكندر عندما عرف أن بعض فقراء الهنود يعرضون بناتهم  
 للبيع .. أما الطريقة فهي التي أزعجته .. فالفتاة تلحف ملابسها تماما .. وتقف  
 وقد أدارت ظهرها للزبون .. ويقلب الزبون في جسمها .. ثم يطلب إليها أن  
 تجلس ويقلب في صدرها .. فإذا أعجبه اشتراها .. ولم تنس له معشوقته تاييس

مقاله تعليقا على هذا الموقف الشائن .. قال الإسكندر : لو كان من يتزوج يفعل ذلك . لسقطت في الامتحان أكثر النساء .. والرجال أيضا ..

أما طريق العودة فقد كان أقسى مما يتصور الإسكندر . فالطريق طويل . والجنود مرهقون . والخيول تكسرت . والهدايا ثقيلة . والشعوب تضربهم بالطوب والحجارة والسهام والنبال .. والشمس تكوى الجميع . والعطش يحرقهم ليلا ونهارا . والإسكندر يصير على أن تغسك قواته بعيدا عن المجارى المائية حتى لا تتلوث المياه بأقدام الرجال والخيول .. والرسائل تروح وتجيئ بينه وبين أثينا .. وما يزال الإسكندر يلعن أباه بين قواده لأنه طلق أمه وتزوج امرأة أخرى اسمها كليوبطرة .

وفي إحدى المعارك في طريق العودة جرح الإسكندر . وانهاه أحد الهنود عليه ضربا بالعصا . والتوت ذراع الإسكندر ورقبته . وخرج الجنود يبكون على قائدهم وبعد أيام ظهر لهم سليما .. ولكن جروحه كانت أعمق !

ولم ينس الإسكندر أنه سمع من فيلسوف هندي أنه أعظم الناس في بلده .. وأنه قد تراجع أمام قواته .. وأنه في طريق العودة .. وأنه لم ينتصر على آسيا وإنما أفرعها فقط . ولم ينس أحد أصدقائه عندما غضب منه ، أن صارحه بقوله : إن الإنسان عندما يكون في عظمتك وفي قوتك ، يكون وبالا على نفسه وعلى غيره .. والجنود هم الذين يدفعون الثمن عادة !

وفي إحدى الليالي من أبريل ٣٢٣ ق.م . جاء أحد الفلاسفة المرافقين له .. وأتى بجلد حيوان سلخوه وألقى به أمام الإسكندر . ثم وقف بقدميه على جانب منه فارتفع الجانب الآخر . ثم عاد فوقف على الناحية الثانية . فارتفع الطرف الآخر .. ونظر الإسكندر وكان مريضا محموما لا يفيق من الخمر ولا من الحمى . وقال له الإسكندر :

— ماذا تريد أن تقول ؟

وهنا قفز الفيلسوف بقدميه في منتصف الجلد . وبقى بعض الوقت فاعتدل  
الجلد وظلت أطرافه كلها مرتفعة عن الأرض بدرجة واحدة . وقال للإسكندر :  
— إذا أنت بقيت في أطراف مملكتك ثارت عليك .. ولذلك يجب أن  
تبقى في منتصف مملكتك .. هنا .. في بابل !

وكأنما كانت نبوءة .. فقد مات الإسكندر في بابل يوم ٢٢ أبريل .. في  
الثانية والثلاثين من عمره !

نزيك فندولا  
أبي التناء  
زقارة القناديل

التفوا حوله ، واستحلفوه أن يكتب قصته ، ويحكي حكايته . وانحنى الرجل وقال : أفعل ذلك إن شاء الله . وسجل رحلته الطويلة في كتاب عنوانه « رسالة اعتبار الناسك ، في ذكر الآثار الكريمة والمناسك » .

فقد كان الغرض من رحلته أن يؤدي فريضة الحج في الأراضي المقدسة واستغرقت رحلته الأولى ثلاث سنوات .

بدأها في فبراير سنة ١١٨٢ وهو في السابعة والثلاثين من عمره .

أما هذا الرجل المغربي فاسمه بالكامل : أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى الشاطبى البلنسى ، طويل القامة أجش الصوت أزرق العينين ذهبي الشعر ، قال عنه أحد أصدقائه : لو كانت لى عيناه ما أطبقهما قط .. فهما من آيات الله ! ..

ولكن ابن جبير كان يطبق عينيه كثيرا حتى لا يرى ما يؤذى إيمانه . حتى إنه عندما رأى زفافا فى الشام ضبط نفسه معجبا بمشية العروس فاستعاذ بالله من الفتنة ، وأعمض عينيه ولم يكمل وصف الزفاف ! .

وعندما كان فى مكة سمع عن أميرة من الأميرات أنها تخرج ليلا ، وقال الناس لا بد أنها قد غضبت مع زوجها وراحت تبحث عن غيره ، وقال آخرون بل ذهب تصدق على الفقراء واستعاذ ابن جبير من سوء الظن ، ولم يكمل سماع قصة الأميرة من أحد !

أما الذى ملأ عينيه فى الدنيا كلها فالمساجد والمقابر والأضرحة .. وجمال الطبيعة وهولها أيضا !

ولو سئل ابن جبير عن العذاب في الدنيا ما معناه لقال : إنه البحر وركوب البحر وموج البحر .. والسفن الشراعية !

في رحلته الكثير عن وصف الموج والعواصف وسقوط أشعة المراكب والخوف من الضياع في الليل والنهار وقد استغرقت الرحلة من الشاطئ الأسباني إلى الاسكندرية ثلاثين يوما وقد توقفت السفينة الشراعية عند جزيرة صقلية وكان ابن جبير في رحلته يدعو للمدن التي يراها أو يدعو «عليها» .. فيقول : أعادها الله أو أبادها الله .. أو أبادها الله وأعادها ، وهو كثير الدعاء لكل الناس بأن يغفر لهم الله أو يعفو عنهم أو يهديهم سواء السبيل .

وكانت الرحلة مؤلمة مفزعة حتى مياه الاسكندرية ..

ولو سئل ابن جبير بعد خروجه من ميناء الاسكندرية إن كان العذاب معناه ركوب البحر ، لقال بل العذاب هو الجمارك !

في ميناء الاسكندرية – في ذلك الوقت أيضا – جاء رجال الميناء وقتشوا الركاب ، ومدوا أيديهم إلى ملابسهم ، وإلى ما معهم من متاع .. ثم أتوا بالمصحف ، واستحلفوهم إن كان لديهم شيء آخر ويقول ابن جبير « وضاعت أشياء كثيرة ، ثم أطلق سراحهم بعد موقف من الذل والخزي العظيم » ..

ويرى ابن جبير أن صلاح الدين الأيوبي ذلك الحاكم العادل لا يعرف ماذا يجري في ميناء الاسكندرية . ولو عرف لفضى على هذا الهوان !

وكانت الاسكندرية رائعة في عينه .. بيوتها فوق الأرض وتحت الأرض والمياه تصل إلى كل الآبار ، ومن أهم معالم الاسكندرية المدارس والمحارس – أى بيوت المغربين ، وفيها الكثير من المستشفيات ، وفيها ألوف المساجد ويقول «من الغريب أيضا في أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم

بالنهار في جميع أحوالهم ، .. أى ينامون نهارا كما ينامون ليلا ويعملون ليلا ونهارا .. »

وفي الطريق إلى القاهرة توقف لصلاة الجمعة في مسجد بمدينة طنطنة — طنطا — وكان الخطيب فصيحاً ، وأروع ما أعجبه في الطريق مدينة قليوب فأسواقها جميلة وبها مسجد كبير ..

أما القاهرة فقد أذهلته لكثرة مبانيها ومساجدها وشوارعها ونيلها الواسع ، وهداه المغاربة إلى فندق جميل أقام في غرفة فوق الباب والفندق اسمه « أبى الثناء » في زقاق القناديل ..

ولم يفته طبعا أن يزور مسجد الحسين حيث وضع رأس الحسين بن علي بن أبى طالب في تابوت من الفضة مدفون تحت الأرض .

أما عجائب الدنيا كلها فقد وضعها المصريون في « القرافة » أو الجبانة « ففيها قبور الأنبياء وأهل السنة والصحابة والتابعين والعلماء والأولياء ذوى الكرامات الشهيرة والأنباء الغربية .. فيها قبور النبي صالح وروبييل بن يعقوب وآسيا امرأة فرعون » .

وقد أعجب ابن جبير بمستشفى المجانين ، ففيه غرف نظيفة وأسرة وفيرة ، وفيه خدام يسهرون على هؤلاء المرضى ..

ورأى أهرامات الجيزة ، ويقول « للناس في أمرها اختلاف : فمنهم من يجعلها قبورا لعاد وبنيه ومنهم من يزعم غير ذلك .. وبالجمله فلا يعلم شأنها إلا الله عز وجل » .

وعلى مسافة « غلوة » — أى قصيرة — من الأهرام يوجد « أبو الأهوال — أى أبو الهول ..

ولأنهاية لما قاله ابن جبير عن مساجد القاهرة وقلاعها .. ولكن من

الأشياء العجيبة التي رآها ابن جبير سور « العجوزة » . أو العجوزة ... وقد سمع في مصر أن العجوزة هذه قد حكمت مصر وأنها جعلت حولها سورا يمتد من القاهرة إلى أسوان .. ولم يبق من هذا السور إلا جزء ضئيل ، والباقي تحول إلى رمال الصحراء !!

وحكاية « العجوزة » هذه أنه عندما غرق فرعون في البحر الأحمر هو وجيوشه .. لم يبق في مصر في ذلك الوقت غير الخدم والعبيد والنساء والأطفال ، وخاف الجميع على مصر ، ورفضوا أن يولوا عليهم خادما أو عبدا أو طفلا يحميهم ، وإنما اختاروا سيدة اسمها « دلوكة » .. هذه السيدة كانت عجوزا قد تجاوزت المائة عام ، حكمت مصر ، وأقامت حولها هذا السور الذي أحاط بها من كل جهاتها .. أما مصر فقد حماها الله !

وركب زورقا في النيل في طريقه إلى قنا ومنها إلى ساحل البحر الأحمر إلى الحجاز ، ولكن أشنع ما رأى في النيل : هجوم بعض رجال الأمن على المسافرين ، قنصهم ، أدخلوا السكاكين في أمتعتهم ، قنصوا الأرز والقمح وقد انزعج ابن جبير لما حدث .. ورأى في ذلك شيئا شنيعا وقال : كيف يفعلون ذلك والله قد نهى عن التجسس . !

ويؤكد ابن جبير أن الملك صلاح الدين يستحيل أن يعرف هذا الذي يجري في بلاده .. لأنه رجل عادل .

أما مدينة قنا فقد أعجبت ابن جبير وهذا الإعجاب هو مقياس للقيم الأخلاقية والدينية عنده . يقول : « مدينة قنا من مدن الصعيد .. بيضاء أنيقة المنظر ذات مبان جميلة ، ومن مآثرها الماثورة صون نساء أهلها والتزامهن البيوت ، فلا يظهرن في زقاق من أزقتها وكذلك نساء مدينة دشنة » .

وبعد ابن جبير بمئات السنين جاء الكاتب الفرنسي جوستاف فلوير وأقام في مدينة قنا وأعجب بها وبليلها الساحرة حيث الغناء والطرب والحظ ..

وعبر البحر إلى الأراضى المقدسة . ولو سئل ابن جبير إن كان العذاب  
معناه رجال الجمارك لقال : بل الحج هو العذاب نفسه ! ..

فقد رأى من الهوان والأهوال ما لا يستطيع أن يصفه ، فاجلو حار ..  
والصحراء مؤلمة وموجعة .. وهى الضياع لكل أجنبي .. وفى الطريق إلى مكة  
يتعرض الحجاج للصوص يخطفون ويسرقون ويقتلون .. وسمع من الناس  
أن خير الطرق إلى الأراضى المقدسة أن يدخلها الناس من ناحية بغداد فى  
حمى أمراثها .

يقول عن الأراضى المقدسة : حسبك من بلد كل شئ فيه مجلوب حتى  
الماء والعطش أشهى إلى النفس من الماء . فأقنا بين هواء يذيب الأجسام  
وماء يشغل المعدة عن اشتهاى الطعام ، والشاعر يقول : ماء زعاف وجو كله  
لهب ..

ولم يعجبه الناس ، لا حياتهم ولا أسلوبهم ، ولا معاملتهم للذين جاءوا  
من أقصى الأرض .. وقال ابن جبير ليريح نفسه : « لا إسلام إلا ببلاد  
المغرب لأنهم على جادة صحيحة ، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات الشرقية  
فأهواء وبدع ، وفرق ضالة وشيع .. إلا من عصم الله ! » .

ولكن هذا العذاب يهون أمام مكة والمدينة .. فمن أجل مكة والمدينة  
ركب البحر والنيل والصحراء وجف ريقه واشتعل صدره ونام على الأرض  
وأكل ما لا يجب .. وفى طريقه إلى مكة يقول : « دخلت مكة .. والبدر  
قد ألقى على البسيطة شعاعه ، والليل قد كشف عنا قناعه ، والأصوات تصك  
الأذان بالتلبية فى كل مكان » .

وفى مكة ذاب ابن جبير فى الأماكن المقدسة ، صلى وبكى ، وصلى  
وحمد الله ودعا للمسلمين بالنصر ، ودعا لصلاح الدين وكل الأمراء بتقوى  
الله ورأى كل شعوب الأرض حول الكعبة وحول زمزم ..

ولم يسعد بطعام أكله مثل سعادته بالبطيخ ، فلم يكن قد ذاقه من قبل فهو مبهور بطعمه ورائحته ، بل إن الإنسان ليأكل البطيخ ورائحته الحميلة تسبقه .. أما البلح الرطب فهو « في غاية الطيب واللذابة » ..

ورغم انشغال ابن جبير بالأماكن المقدسة وبالنظر إلى الناس والاستماع إلى كل ما يقال حوله ، فإنه انفجر ضاحكا مرة واحدة في كل هذه الرحلة .. وذلك عندما جاء الوفد اليمنى لأداء العمرة .. فهم يأتون إلى هذه البلاد يبيعون ما معهم من طعام ويشتررون به الملابس ، لأنهم يبيعون عراة ، وصفهم ابن جبير فيقول : « عرب صرحاء فصحاء حفاة أمحاء ، لم تسدهم الرقة الحضرية ، ولا هذبهم السير المدنية ، ولا سددت مقاصدهم السنن الشرعية ، فلا تجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق التنية » ..

وهم يشدون أنفسهم بسلسلة واحدة حول الكعبة ، فإذا تعثر واحد منهم سقط الباقون فوقه ، وإذا التفوا حول الكعبة واستلموا الحجر الأسود فلن يستطيع إنسان أن يقرب لا من الكعبة ولا من الحجر ، وهم لا يجسنون الصلاة .. بل إنهم يسجدون دون ركوع .. وإذا سجدوا فهم ينقرون الأرض . ثم يرفعون رؤوسهم . ويتكلمون أثناء الصلاة ، ثم يعاودون السلام .. ولكنهم سيكونون فتمزق القلوب لما يقولون ، ويقال إن النبي عليه الصلاة والسلام قال : علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء .. وقال أيضا : الإيمان يمان - أي الإيمان في اليمن !

وقد سقطوا حول الكعبة ، فضحك ابن جبير لأول مرة ! .

ولم يسترح ابن جبير لإقامته في بغداد . فقد رأى المدينة خرابا . لم يبق فيها غير هذا الاسم ، أما الناس فكرههم جميعا ، وحكم عليهم بعنف . فيقول : « أما أهل بغداد فلا تكاد تلتقي منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء ، وتذهب بنفسه عجبا وكبرياء ، يحتقرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الألفة والإباء .. ويستصغرون عن سواهم الأحاديث والأنباء ، وقد تصور

كل منهم في معتقده وخلده ، أن الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده ، فهم لا يحبون في الدنيا أرضا غير أرضهم ، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادا أو عبادا سواهم .. » .

وعندما سافر إلى الشام ، أعجبه مدينة حمص ، وسأل واحدا من أهلها هل عندكم مارستان — أى مستشفى ؟ وكان رد الرجل : إن حمص كلها مارستان ! .

ولم يفهم النكتة ولذلك لم يضحك !

أما حفلة الزفاف التي رآها فقد أعجبه لأنها مختلفة عن زفاف المسلمين فأهل العروسين يقفون صفيين ، وتجيء العروس وقد لبست فستان الزفاف الشفاف ، ومن ورائها فتيات جميلات وعلى رأس العروس تاج من الذهب .. — والعروس تمشي تبختر — والعياذ بالله — ولم يكمل ابن جبير الفرجة على حفلة الزفاف ، فالذى رآه هزه وحرکه .. إنه الشيطان في ثوب الزفاف ، ولم تعجبه « الآلات اللهوية » — أى الموسيقى ! .

ويعود ابن جبير إلى البحر الهائج المائج .. وإلى السفينة الشراعية التي انكسرت أكثر من مرة ، وصرخ الناس واستعاذوا بالله ، ومضت السفينة لا أحد يدري أين ترسو.. قالوا في مصر .. وقالوا في إيطاليا.. وقالوا بل قد ضاعت تماما .. ولكن السفينة بعد أيام طويلة أئمة رست في ميناء على ساحل صقلية .. وهناك رأى جبل النار — أى البركان المعروف الآن باسم استرومبولي ، وهو يقذف اللحم في البحر .. وفي هذه الجزيرة يعيش عدد كبير من المسلمين وهناك ملك اسمه غليام — أو غليوم الطيب ، وهو يعتمد على المسلمين في كل شيء .. في حراسته وفي مطبخه ..

وانجهت السفينة إلى الأندلس .. وعاد ابن جبير إلى الرحلات مرتين بعد ذلك .. وفي المرة الثالثة توفي سنة ١٢١٧ في مدينة الاسكندرية .

ولو سئل ابن جبير الآن ألا يزال العذاب عندك معناه الحج ، لقال : أن  
يموت الإنسان في الاسكندرية !  
فلم يمش في جنازته إلا رجل واحد جاء يستعجله أن يدفع ما عليه ..  
لقد كان أحد رجال الجمارك ! ..

فريط الحزير ...

الذي

طوله عشرون سنة!

لم تكن الفتاة الصغيرة تعنى أى شئ عندما أشارت إلى البحر وهى تتحدث إليه . . فلا هى طلبت إليه أن ينتحر ولا أن يركب السفينة إلى أى مكان فى العالم . . ولا قصدت الفتاة أن يبحث له عن مكان آخر بعيد عن قلبها كأن يذهب إلى الصين مثلا . . ثم إنه إذا لم يعجبها فهناك عشرات الفتيات يعجبن به . . لا هى فكرت فى هذا كله ، ولا هو ولكن غضب الفتاة عند الرجل الإيطالى معناه غضب الدنيا . . فالشاعر دانتي كره الحياة والآخرة لأن محبوبته بياتريتشه قد هجرته . . والشاعر الإيطالى بتراركة قد أبكى الدنيا لأن حبيبته لورا لم تأت فى موعدها . . وكذلك الفنان العظيم بوكاتشيو . . ولو كانت ليلى تزوجت المخنون لاستراح الاثنان . . وما كان هذا الشعر الجميل . . ولا كانت ملحمة دانتي ولا روايت بتراركة . . ولا سافر هذا الفتى الإيطالى « ماركو بولو » من مدينة البندقية إلى آخر الدنيا . . وكان آخر الدنيا فى ذلك الوقت هو بلاد الصين . .

فلم يكد ماركو بولو يسمع القصص التى رواها أبوه وعمه اللذان جاءا من الهند والصين وكان فى الخامسة عشرة من عمره حتى قرر أن يسافر معهما . وربما كان ماركو بولو هو أول شاب فى التاريخ قرر أن يتزوج من أية فتاة أخرى ، ويأخذها معه إلى أقاصى الأرض . . ولكن الأب ضحك وهو يقول له : صحيح أن الطريق اسمه خيط الحرير . . ولكن هذا الخيط من نار . . محرق . . قاتل . . كأنه أفعى ناعم ولكنه مهلك . . تعال وحذك . . فلا مكان للنساء إذا أردت الشهرة والمال !

وبدأت الرحلة الطويلة في سنة ١٢٧١ من مدينة البندقية إلى عكا وكان الأب يوكد لابنه : سوف تنسى . . سوف تنساها . . ففي الدنيا ما هو أجمل وأفضل . . وسوف ترى العجائب . . سوف تنسى !

ومن مدينة عكا اتجهوا مرة أخرى إلى تركيا . . إلى أرمينيا . . إلى بلاد الفرس . . إلى بخارى وسمرقند . . ثم إلى الهند وبلاد المغول والصين — هذه الكلمات استغرقت سطرين . . ولكن آن بولو قطعوها في عشرين عاماً ذهاباً وإياباً . .

وفي الليل ، كل ليلة كان ماركو بولو يطلب إلى والده وعمه أن يرويا له شيئاً مما رأى الاثنان ومما سيرى هو . . وقد سمع منهما عن القوافل التي تذهب بالعطور والذهب والحريز وتجارة الرقيق . . واللصوص يقطعون الطريق والرقاب أيضاً . . والثلاثة معاً هم أول أبناء أوروبا الذين سافروا إلى هذه الأماكن النائية من العالم القديم . . ولكن ماركو بولولا ينسى أبداً هذه الفتاة كارلينا التي رفضته وهي تعلم أنه وحيد . . فأبوه في الصين وأمّه ماتت قبل عودته بأيام . . ولكن الفتاة الإيطالية رفضت أن تزوج شاباً هجم عليها في الطريق وعانقها بالقوة . . إهانة لم تغفرها له ! ( وهذا ما فعله مواطن آخر بعد ذلك بستة قرون : موسوليني ! ) .

وكان الفتى ماركو بولو شديد الملاحظة . ولكنه لم يكن مثقفاً . فلا تقرأ له كلاماً عن الأدب أو الفن أو الفلسفة في هذه البلاد . . ولكنه يسجل فقط ما رأى . . ويقول إن هذا رآه بنفسه ، أو سمع عنه . . فثلاً عندما ذهب إلى أرمينيا مر بالقرب من جبل أرارات الذي استقرت عليه سفينة نوح . . قال إن أناساً رأوا السفينة عند قمة هذا الجبل . . وأنها ما تزال هناك — (والذي رواه ماركو بولو قد قاله قبل ذلك المؤرخ اليهودي يوسيفوس . . وظل الناس يعتقدون في ذلك حتى هذا القرن . . ولكن حدث في سنة ١٨٢٩ أن ذهب البروفيسور باروت وتسلق أرارات وارتفاعه ١٦ ألف قدم ولم يجد هذه

السفينة . . ولكن عاد العلماء يشككون في أنه وصل إلى القمة . . وحاول آخرون . . واستخدمت طائرة هليكوبتر في رؤية القمة عن قرب . . ولكن السحب الكثيفة والجليد والعواصف منعت الطائرة من رؤية شيء بوضوح . . والكثيرون يؤمنون بأن سفينة نوح أو جزءاً منها ما يزال هناك ! )

وماركو بولو هو أول أوروبي مر بمدينة باكو ورأى آبار البترول . . ووصفها وصفاً مضحكاً لأنه ساذج ، فهو يقول : الزيت لونه أسود بني ويشتعل دائماً . . وهو لا يستخدم في الطعام . . وإنما يستخدمه الناس في دهان الجمال والحمير . . ويقولون إنه مفيد للبشرة . .

ومن القصص التي سمعها ماركو بولو ، وهو في طريقه إلى الصين ، أن القائد المغولي هولاکو قد جاء إلى مدينة بغداد وأهلكها وأهلها . . وأن الخليفة المستنصر قد حاول – يائساً – أن يقف في وجه هولاکو . . ولكنه لم يكن يعرف معنى أن يكون الإنسان قائداً مغولياً . . ويقال إن حواراً دار بين هولاکو والخليفة . . قال هولاکو : هذا الذهب الذي جمعته لماذا لم تعلم به شعبك كيف يقاوم الغزاة ؟ . . ولم يرد الخليفة . . ويقال إن هولاکو أدخله في خزائنه الذهبية وتركه حتى يموت . . ويقال إن هولاکو أذاب الذهب وأمره أن يشربه فمات . . ويقال إنه وضعه في سجادة ولفها حوله . . ثم ربطها . . ودحرجه حتى الموت !

\*\*\*

وكانت وجهة الثلاثة هي الصين . . حيث الخاقان – ملك الملوك فقد أكرم الأب والعم . . وطلب إليهما أن يعودا . . وكان هذا الخاقان – أوكو بلاى خان – محباً للأوروبيين . . وكان مثقفاً . . وكان من أمنياته أن يستعين برجال الدين المسيحيين ليقاوم رجال الدين البوذيين . . كان يريد أن يستخدم سمرا آخر . . ولذلك طلب من آل بولو أن يأتوا له بالمبشرين من المسيحيين . . وحملهم أمانة الاتصال بالبابا . . ولكن البابا مات . . ومعهم رسائل تؤكد أنه مات وأن البابا الجديد لم يتم اختياره بعد .

وفي طريقهم قاطعهم اللصوص .. وقتلوا بعضهم .. وسرقوا ما معهم  
وأسروا بعض الخدم .. وباعوهم .. ولم يبق من قافلة آل بولو سوى سبعة  
أشخاص .

ومن الغريب أن ماركو بولو كان يعتقد أن هؤلاء اللصوص يستخدمون  
السجن في إثارة الغبار والضباب .. فقد لاحظ أن هؤلاء اللصوص خلقوا  
ضباباً لا وجود له .. هذا الضباب أخفاهم .. وهربوا .. وكانت لدى  
اللصوص القدرة على تبديد الضباب أيضاً .. بالأمر يروح وبالأمر يجيء ..  
وشئ من هذا قاله المؤرخون بعد ذلك في سنة ١٧٦٢ عندما قامت حرب  
أهلية بالقرب من مدينة بخارى (أزبكستان السوفيتية الآن) .. فقد استخدمت  
القوات التي هاجمت المدينة السحر الأسود في خلق ضباب جاف !

وفي الطريق كان ماركو بولو يسمع قصصاً عن هولاء و جنكيز خان  
وتيمور لنك والإسكندر الأكبر .. إن هؤلاء الأربعة قد ملأوا الطريق دماً  
ودماراً - فخيظ الحرير ، ليس خيظاً ولا حريراً .. إنه خيظ الموت والأشباح !  
وسمع ماركو بولو عن قصة الشجرة المقدسة التي وقف تحتها الإسكندر  
الأكبر ويقال إن هذه الشجرة لها قدرة عجيبة على قراءة ما يدور في رأس  
من يقف تحتها ويقال إن الإسكندر سأل الشجرة بصوت مرتفع : قولى لى  
يا شجرة هل سأكون ملك الملوك وأعود سالماً إلى وطنى ؟ وأجابت الشجرة :  
نعم .. و .. لا .. ستكون ملك الملوك .. ولن تعود إلى وطنك !

ومات الإسكندر قبل أن يصل إلى وطنه !

وسألها ماركو بولو : هل سأكسب المال وأتزوج كارلينا . وقالت  
الشجرة نعم .. و .. لا .. ستكسب المال ولكن لن تتزوج هذه الفتاة !

ورأى ماركو بولو اللجنة التي صنعتها جماعة من الإسماعيلية في جنوب بحر  
فروزين .. جنة ، أشجار وأنهار .. وطيور مغردة .. والناس يرتدون الملابس  
البيضاء .. ويتعاطون الحشيش . وسمع ماركو بولو أن لهذه الجماعة رجلاً اسمه

« شيخ الجبل » . هذا الرجل يطعمهم ويسقيهم ويمتعهم ثم يأمرهم بأن يقتلوا أى إنسان .. فيقتلونه .. اسمهم الحشاشون .. ( وقد قتلوا بعد ذلك شاه إيران والوزير الأكبر فى مصر واثنين من الخلفاء فى بغداد وقتلوا كونراد ملك القدس . وعندما ذهب كونت شامبانيا أيام الحروب الصليبية قابل شيخ الجبل . وأطلعه الشيخ على الجنة . ثم أشار إلى شابين يرتديان الملابس البيضاء قد جلسا على حافة إحدى القلاع . فارتقى الشبان على الأرض . وماتا فوراً - لأنها الطاعة العمياء ! ومن عادة شيخ الجبل أن يأتى بأتباعه ويعطيهم الحشيش وينقلهم إلى هذه الجنة يأكلون ويشربون ويغنون مع النساء ويرقصون : وفجأة يلقى بهم خارج الأسوار . فإذا أفاقوا وجدوا أنفسهم على أرض الحقيقة المؤلمة . وهنا يقول لهم شيخ الجبل : إذا أردتم دخول الجنة فاقتلوا فلانا . ويقتلون فلانا ويعود بهم إلى الجنة !

أما الطريق الذى سار فيه آل بولو فطوله ثلاثه آلاف كيلو متر . وهم يقطعون منه عشرة كيلو مترات فى اليوم الواحد ولذلك استغرقوا سنة فى الذهاب واستخدموا الثيران فى نقل متاعهم والخيول فى نقلهم ، والبغال فى نقل أتباعهم وخدمهم !

وكان عليهم أن يمروا بصحراء جوبى . صحراء جافة عارية تماما ملتهبة . وكان ماركو بولو يعتقد أن هذه الصحراء مليئة بالعفاريت . يكنى أن واحدا من أية قافلة يتخلف عنهم ليضيع إلى الأبد . وهو يضيع لأن أشباحا تظهر له . وهذه الأشباح تحدثه وتستدرجه إلى طريق آخر . ومن الغريب أنه رأى جيوشا وطبولا ومعارك لا وجود لها .. ثم أنه استمع إلى موسيقى غريبة قادمة من أماكن متفرقة فى هذا الطريق . ولكنه خاف أن يروى ما يفزع لوالده وعمه . وقبل ماركو بولو وصف لنا الرحالة الصينى « فاد بن » صحراء جوبى هذه بأنها مليئة بالعفاريت .

ولابد أن الخوف هو الذى صور له هذه الأيام الثقيلة . فالجو حار جدا .

والطيور الجارحة في كل مكان . وفي الطاريق بقايا أجساد إنسانية . ولا بد أنه السراب أيضا . الذي ساعد على هذه المخاوف الصوتية والضوئية معا ! - ثم لا ننسى أنه أوروبى وحيد وأنهم في العصور الوسطى .. وأنهم بقعة بيضاء تتحرك في محيط من الناس الصفر !

وأخيرا وصلوا جميعا إلى بكين ..

وقدم الأب بولو ابنه ماركو بولو إلى الخاقان . وعلم الابن أن يسجد وأن يقبل الأرض بين يدي الخاقان . وفعل . ولكن الإنجليز بعد ذلك بمئات السنين ضاقوا بهذه العادة فاخترعوا الخدعة التي يضعها كل إنسان تحت جبهته عندما يسجد للملك الملوك .. ثم اخترعوا أن يركع الإنسان ويحنى رأسه على صدره .. ثم الرجوع فقط .. ثم الانحناء وهم واقفون !

وفرخ الخاقان بالابن . وأعجب به واندهش كيف أنه استطاع أن يتكلم اللغة المغولية بهذه السرعة . وقرر الخاقان أن يلتحق الابن بالعمل في البلاط الملكى . وتردد الابن لحظة . لكنه أبدى سعادته . وأما سبب تردده فقد قاله لوالده عند العودة إلى البندقية . فقد سمع الابن من أحد العرافين في الهند أنه سوف يدخل السجن . ولذلك كان شديد الخوف من أية مسئولية !

ولم ينس ماركو بولو أن يتحدث عن المغول . انه معجب بشجاعتهم وخفتهم . ولكنه لا يحب إسرافهم في الزينة . وتعليق ما لديهم من الذهب على ملابسهم . وهم في نفس الوقت لا يستحمون مدى الحياة . فهم يعتقدون أن الإنسان عندما ينزل النهر ، فإنه يغضب أرواح النهر . ولذلك لا يستحمون أما إذا طالت رحلاتهم على ظهور الخيل ، فإن الواحد منهم يأقى بسيفه ويضرب شريانا في جسم الحصان ثم يشرب دمه .. وهذا يرويه !

الأوروبيون بعد ذلك معذورون عندما لم يصدقوا كل ما رواه ماركو بولو . فهو يتحدث عن أشياء عجيبة . ولذلك أطلقوا عليه اسم : ماركو المليونير - أى ماركو صاحب المليون حكاية !

فقد حدثهم عن استخدام العفاريت في تحريك أدوات الطعام . لأنه رأى بعينه كيف أن الأطباق والأكواب تطير دون أن يمسه أحد . ورأى قطع الشطرنج تتحرك ويترد بعضها البعض دون أن يقترب أحد منها .. ورأى الأطباق الفارغة تمتلئ ثم تقترب من يدي الخاقان .. ( حدث في أيام شارل التاسع في فرنسا أن جاء الساحر سيزار ماليتسو وحرك الأطباق الموجودة على المائدة دون أن يمسه وبعد ماركو بولو بسبعين عاما روى لنا ابن بطوطة في رحلته كيف أنه رأى رجلا مرفوعا في الهواء .. وكيف أنه رأى جبلا مرفوعا في الهواء . . وكيف أن طفلا تسلق هذا الجبل هاربا من أبيه . وكيف أن الأب طارده ومعه السكين . واختفى الاثنان . وتساقطت ذراعا الطفل وساقاه .. وأخيرا رأسه وهو يزف دما . ثم نزل الأب وجمع هذه الأطراف وغطاها ونهض الطفل ! ) وصفحات كثيرة يروى فيها ماركو بولو إعجابه الشديد بالخاقان . أو على الأصح ببادله الإعجاب . وهو لم يرفى كل ما فعله الخاقان عيبا . قتيلا عندما ينتقل الخاقان من قصره الصيفي إلى قصره الشتوي ، يرشون الطريق كله بلبن الحمير إرضاء لأرواح الأرض . وينتقل الخاقان في غرفة من الخشب تجرها أربعة فيلة والغرفة مطعمة بالذهب . وكانت للخاقان أربع زوجات ، ومئات من الخدم .

ويروى لنا في الفصل الخامس عشر من كتابه الذي أصدره في جزئين : كيف أنه أصبح موظفا في القصر الإمبراطوري . وكيف أنه أصبح قادرا على التحدث باللغات الفارسية والمغولية والعربية . ثم كيف عينه ملك الملوك قنصلا سنة ١٢٧٧ .

ومن الحكايات التي أفزعت ماركو بولو قصة الوزير الذي اسمه أحمد هذا الوزير قدر شجته لإحدى زوجات الخاقان . فقد كان جميلا مهذبا رقيقا . وقد أحبه الخاقان . وترك له كل السلطات يفعل بها وبه ما يشاء . وتضايقت حاشية الخاقان . ولكن أحمد لا يعبأ بشيء . وتكاثرت الشكايات ولكن الخاقان لا يسمع . ولا يصدق ما يسمع . وأخيرا سافر الإمبراطور . وعلم

ماركو بولو بمؤامرة على حياة أحمد ولكنه لم يتدخل . إنه يخاف من السجن .  
وفي إحدى الليالي جاء اثنان عند منتصف الليل إلى الوزير أحمد يقولان له  
إن ولي العهد قد عاد فجأة . وأنه يريد أن يراه . وخرج أحمد للقاء الأمير .  
ولكن الحراس رفضوا إدخاله لأن الأمير لم يصل . ولكنه أصر على دخول  
قصر ولي العهد . ودخل إلى إحدى الغرف وكان الضوء شاحبا ولم ير بوضوح  
إن كان الجالس أمامه أمير أو أى إنسان آخر .. وسجد أحمد وقبل الأرض  
وأخفى رأسه ينتظر أوامر الأمير : وتقدم أحد المتآمرين وأطاح برأسه !

وانكشفت المؤامرة . وقتل الخاقان مئات من رجال القصر !

ومن عجائب الدنيا التي اندهش لها ماركو بولو ولم يفهمها : العملات  
الورقية كيف يبيع الإنسان الذهب مقابل هذه الأوراق . أو كيف يشتري  
بها أى شئ .. وعلى الرغم من أن ماركو بولو من أسرة من التجار الناجحين ،  
فإن عقله لم يستطع أن يفهم معنى هذه الأوراق المالية وأنها « تعهدات »  
بالدفع . وهو معذور لأن هذه العملات لم تكن مستخدمة في أوروبا في  
ذلك الوقت . وإن كان الإمبراطور فريدريش الثاني قد استخدم عملات من  
الجلد .

وأعجب جدا بنظام البريد في الصين . وكيف أنهم يستخدمون الخيول  
لمسافة معينة . ثم يغيرون الخيول وهكذا - وكيف أنهم استخدموا الحمام الزاجل  
أيضا . ( وإن التاريخ يؤكد لنا أن العرب هم أول من استخدم الحمام  
الزاجل بدلا من الطائرات في كل شئ . ومن أشهر حوادث التاريخ أن الخليفة  
العزیز قد طلب إلى الوزير الأكبر في بعلبك بلبنان أن يبعث له بعض حبات الكرز .  
فأتى الوزير بحبات الكرز ووضع كل حبة في كيس من الحرير وعلقه في  
ساق حمامة من الحمام الزاجل .. وأرسل للخليفة سربا يضم ٦٠٠ حمامة ! وفوجئ  
الخليفة قبل أن يتناول طعام العشاء بأن الفاكهة قد وصلت من لبنان ! )

وقابل ماركو بولو رجلا تاجرا اسمه محمد ذو الفقار وكان هذا الرجل

مشرفا على مناجم الفحم . ومستولا عن صناعة الحرير . وكان مأخوذا بدقّة الخيوط التي لا تقبل الاحتراق !

ومن أهم الأعمال التي كلفه بها الخلقان أن يقود عشرين سفينة إلى جزيرة سيلان . ووصلت السفن إلى شواطئ الجزيرة . وسأل ملك الجزيرة عن سبب وجود هذه السفن ورد ماركو بولو بأنه سيعرف بعد أيام . فقد كان من عادة الخلقان أن يبعث رجاله في مهمة لا يعرفونها ومعهم الأوامر . ولكن هذه الأوامر لا يطلعون عليها إلا بعد أن يصلوا إلى المكان الذي عينه لهم . ويفتح ماركو بولو صندوقا به الأوامر الإمبراطورية . وكان الأمر : أحضر لي أسنان بوذا وخصلة من شعره ووعاء الطعام الذي كان يتناوله !

وكانت هذه المخلفات جميعا قد احتفظ بها ملك سيلان . ويقال إنه زيف بعضها وباعها للملك سيام . ثم باعها مرة أخرى لماركو بولو . واندesh ماركو كيف أن بوذا له أسنان فيل !! وكان رد ملك سيلان أن بوذا قد حل في أجسام كثيرة : جسم فيل .. ثم جسم إنسان .. وأنه عندما مات كان في جسم فيل ولذلك فأسنانه أسنان فيل ..

ويبدو أن ماركو بولو قد سافر من مدينة كالومبو – العاصمة الآن – إلى مدينة كاندي – التي كان يسكنها أحمد عرابي باشا ولا يزال بيته فيها حتى الآن – هناك فوجد مخلفات بوذا في إحدى القلاع . ولكن ماركو بولو حدثنا فقط عن « قبة آدم » أو جبل آدم – وقد رأيته أنا عندما سافرت إلى جزيرة سيلان سنة ١٩٥٩ . أما الجبل ففي أعلاه بحيرة . ويقال إن هذه البحيرة هي الأثر الباقي للقدم آدم عندما وطئها لأول مرة !

أما سعادة الخلقان فلا توصف – كما يقول ماركو بولو . فقد عرض هذه المخلفات على الشعب . ووقف الناس طوابير طويلة يرونها . والطبول تدق . والموسيقى تملأ الشوارع . ويزداد حب الناس للإمبراطور . ويزداد ضيق الناس

رجال الدين الذين أكدوا لهم أنهم هم الذين استخدموا السحر في الحصول على الخلفات الأصلية وليست الزائفة !

ومات هذا الخاقان بعد ذلك !

وكانت صدمة لآل بولو . وبعد شهر من وفاة الخاقان جاء خاقان جديد وتقدم الثلاثة يطلبون الإذن في العودة إلى بلادهم . وقال الأب بولو إن له زوجة وأولادا لم يرهم . وهو كاذب طبعا فقد ماتت زوجته . وليس له غير هذا الابن . ولكن الخاقان الحديد رفض . وقال لهم : إن كان الذهب أعطيتكم أكثر وإن كانت الزوجة فهنا كثيرات . وبالاختصار : لا .. ولكن كلمة « لا » في الشرق لاتعنى هذا المعنى . ولذلك عاد الثلاثة يطلبون العودة . ووافق الملك . - وودعهم وأعطاهم الهدايا من الذهب والأحجار الكريمة وبكت نساء القصر ورجاله على فراقهم . وطلب إليهم أن يأخذوا عروسا معهم لأحد أقاربه من الحكام في فارس . بعد أن ماتت زوجته . وكانت العروس في السابعة عشرة من عمرها .

وكانت العودة بطريق البحر في يناير سنة ١٢٩٢ . ومنحهم الخاقان الحديد لوحات من الذهب الخالص مكتوبا عليها الإذن بالسفر وضرورة تأمينهم طول الطريق . وبعث معهم هدايا ورسائل إلى البابا وملوك فرنسا وأسبانيا وإنجلترا .. ثم أعطاهم ١٤ سفينة بها ٦٠٠ رجل . وعندما وصلت بعض هذه السفن إلى منطقة الخليج كان عددهم جميعا ١٨ نسمة !

وعندما وصلوا إلى أرض فارس كان الحاكم الذي حملوا له العروس قد مات عن ٧١ عاما ، بسبب إسرافه في تعاطي السوائل المقوية جنسيا . وأعطوا العروس ووصيفتها لابنه .. وبكت العروس عند وداع ماركو بولو فقد أنقذ حياتها أكثر من مرة .

وفي سنة ١٢٩٥ وصلوا جميعا إلى مدينة البندقية ، أى بعد أكثر من عشرين عاما . ويقال إنهم دقوا باب البيت . ولكن أحدا لم يعرفهم . ويقال إنهم اضطروا

أن يخلعوا ملابسهم المغولية . وعرفهم أهل البيت . وتحدثت المدينة عن ثرائهم وتلفت الأب والعم عبثا عن ماركو بولو . لقد اختفى يبحث عن فتاته . وبعد لحظات عاد حزينا . لقد ماتت الفتاة بعد سفره .. لقد ألفت بنفسها في الماء حزنا وندمًا على أنها رفضته زوجها لها . من يدرى فرجها لو تزوجها ما كانت هذه الرحلة !

.. وتحققت نبوءة الشجرة ..

وبعد سنة من الإقامة في البندقية دارت معركة بحرية بين سفن جنوده المعادية لمملكة البندقية . وتولى ماركو بولو قيادة سفن البندقية . ووقع أسيرا ... ودخل السجن . — وتحققت نبوءة العراف الهندي .

وفي السجن لقي أديبا اسمه روستيكللو أملى عليه مذكراته هذه . وكتبها هذا الأديب بلغة إيطالية بها كثير من العبارات الفرنسية . واستغرقت عملية الإملاء هذه ثلاث سنوات . خرج بعدها ماركو بولو ومعه هذا الكتاب وأعطاه للناس يقرؤونه ويتداولونه حتى كادت سطوره أن تتلاشى .. وعاش ماركو بولو بعد ذلك ربع قرن لا نعرف عن حياته شيئاً !

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب قد امتلأ بكثير من الخوارق ، وأن بعض العلماء قد شكك في قيمتها ، فقد ظل المرجع الجغرافي الوحيد لكثير من المدن مئات السنين !

ولهذا الكتاب مقدمة وجهها ماركو بولو إلى الحكام ورؤساء الدول يقول لهم فيها : إن السفر هو أعظم متعة في الدنيا .. وإنه من الخير للحكام والرؤساء وللإنسانية أن يسافروا وأن يفتحوا الأبواب لغيرهم لكي يسافروا أيضا !

تحفة النظر  
في غرائب الابصار  
وعجائب الأسفار!

كان هذا الشاب أكثر اهتماما بالناس . ومعه حق . فالدنيا من صنع الناس . ملابسهم تدل عليهم . وطعامهم وشرابهم ، ومعاملتهم لضيوفهم ولنسائهم ، وحيواناتهم .. إنه يختلف عن الرخالة الأندلسى ابن جبير الذى كان أكثر اهتماما بالمدن والمساجد . إن هذا الشاب أبو عبد الله بن إبراهيم اللواتى - نسبة إلى قبيلة لواته إحدى قبائل البربر - المعروف بابن بطوطة والملقب بشمس الدين ( ١٣٠٤ - ١٣٧٧ ) .

فقد كان فى الثانية والعشرين من عمره عندما بدأ أطول رحلة قام بها الإنسان فى العصور القديمة . طولها ٧٥ ألف ميل و ٢٩ عاما تزوج فيها ٢٣ مرة وأنجب سبعين ولدا وبناتا .

ولقد ولد ابن بطوطة فى مدينة طنجة متدينا متفتحا شديد الرغبة فى المعرفة وفى السفر . أى فى المعرفة عن طريق السفر . قرأ رحلات ابن جبير وتأثر بها ونقل عنها أيضا .. بدأ رحلته بالسفر إلى الأراضى المقدسة . ومن الغريب أن رجلا تنبأ له بأنه يعبر البحر الأحمر من الشاطئ المصرى .. وأنه سوف يحج عن طريق الشام . وقد حدث له ذلك ..

ورحلات ابن بطوطة متعة حقيقية . فكلها حكايات ونوادير وخرافات سمعها وصدقها . أو لم يتسع وقته لكى يتحقق منها . ولكنه ينقلها دائما كما هى .

فثلا فى مصر سمع عن رجل اسمه الشيخ جمال الدين بن الساوى من دمياط جميل جدا . هامت به النساء . بعثت سيدة من دمياط بخادمتها تقول له إنها تلتقت خطابا من ابنها وتريده أن يقرأه لها وحاول الشيخ ثم طلبت

إليه أن يفعل ذلك بالقرب من باب البيت حتى تسمع الأم صوته ، وذهب الشيخ وتقدمت الخادמות وهجمن عليه . وكتفته السيدة . ولكن الرجل لم يستطع وأخيرا طلب إليهن أن يدخل دورة المياه . وحلق لحيته وشاربه وشعره وحاجبه وخرج كأنه قرد .. وهربت النساء منه !

ويقول ابن بطوطة إن هذا الشيخ جمال الدين كان يستطيع أن يأتي بلحية سوداء أو بيضاء كما يحلو له !

ويقول ابن بطوطة إنه كان في الطريق إلى جزيرة سيلان عندما شاهد البحارة جزيرة صغيرة انزعجوا منها . فلم يكن ذلك في حسابهم . وكانت الرياح ترميهم على الجزيرة .. وفجأة اكتشفوا أن هذه الجزيرة ليست إلا طائرا ضخما اسمه : الرخ .. ومن الغريب أن البحارة راحوا يصلون ويبيكون وكل واحد منهم ينذر لله أن يتصدق بكذا وكذا . والناس في حالة من الفرع الرهيب . ولكن ابن بطوطة كان مشغولا بتسجيل المبالغ التي نذرها البحارة !

وعندما جاء ابن بطوطة إلى الإسكندرية سمع عن أحد المصريين أنه استطاع أن يتسلق عمود السوارى عاريا . والتف الناس حوله في دهشة كيف استطاع . ويقول ابن بطوطة لا بد أنه لف حوله حبلا وعقده ثم تسلل إلى أعلاه . وسحب الحبل وأخفاه ليضاعف دهشة الناس . أو أن هذا الرجل فقير يريد حسنة من الناس أو يريد أن يلفت إليه العيون ( فعلت ذلك في لندن الراقصة المصرية دولت سليمان عندما صعدت عارية تمثال نلسون سنة ١٩٥٧ ! )

ويروى ابن بطوطة أنه سمع في مدينة بخارى أن رجلا طيبا مؤمنا اسمه أدهم الزاهد قد وجد تفاحة في مجرى النهر . فأكلها . ثم ذهب يسأل عن صاحب البستان القريب الذي جاءت منه . وعرف أن صاحب البستان سيدة فقالت له : هذا البستان أملكه أنا والسلطان وأنا نزلت لك عن حق في التفاحة . فذهب إلى السلطان وبحث عن السلطان . وعرف أنه على مسافة بعيدة . فذهب إليه . وحكى له ما حدث . وأعجب به السلطان . وزوجه ابنته .

وظل هذا الرجل الطيب بعيدا عن الزوجة تسعة أيام يصلى . وعندما طلب الإذن بالسفر قرر السلطان ألا يتركه حتى يبيت مع ابنته في فراش واحد . وفعل ومات ..

وقصص أخرى ونوادير كثيرة الواحدة بعد الأخرى في مئات الصفحات فرحلة ابن بطوطة رحلة في عادات الناس وتقاليدهم .. وهو يصف لك الطعام وكيف يصنعونه والشراب وكيف يعصرونه . ثم يحدثك عن شجرة « القات » ويسميا شجرة التنبول ويقول إنها تقوى الذهن وتملأ النفس بالحياة الجنسية .

وكان لابن بطوطة طريقة معروفة في كل البلاد التي يذهب إليها إنه يسأل عن القاضى : السلام عليكم – وعليكم السلام .. أنا فلان قادم من الغرب في طريقى إلى مكة والمدينة .. أو كنت في مكة والمدينة . ويكون الجواب : أهلا وسهلا .. ضيفا علينا ثلاثة أيام . ويقول ابن بطوطة : إن معى عددا كبيرا من الأتباع والخدم والدواب ويقول القاضى أو السلطان : كلهم ضيوفى !

ولا يجد ابن بطوطة حرجا في أن يقول له : ولكن هناك مشكلة بسيطة .

ويقول المضيف : بسيطة إن شاء الله .

– إننى مدين لفلان بعشرين ألف دينار .

– ويقول المضيف ندفعها عنك بإذن الله !

وهكذا في كل رحلة ابن بطوطة التي استغرقت أكثر من تسعة آلاف يوم لم يدفع فيها مليما واحدا من جيبه .. وإنما هو بلطفه وظرفه وبراعته ينقل الفلوس من جيوب السلاطين والقضاة إلى أكراش التجار . في إحدى المرات في الهند ، كان مدينا بمبلغ خمسين ألف دينار . فنظم في السلطان قصيدة بخيفة . السلطان لا يعرف العربية . إنه يعرف اللغة الأردنية فقط . وأمسك السلطان بطرف القصيدة وأمسك ابن بطوطة بالطرف الآخر . ثم طلب إلى المترجم

أن ينقلها له بأمانة . ولم يهتز السلطان . وحزن ابن بطوطة . وأخيرا قرر السلطان .  
أن يصرف له هذا المبلغ . ولكن الطريق بين قرارات السلطان والخزانة طويل  
جدا ولا بد أن يعطى هو أيضا مما أعطاه السلطان !

وفي أكثر من مرة كان يدعى المرض وعندما يسأل عنه السلطان يقول :  
قلبي يوجعني يامولاي !

ويشير ابن بطوطة إلى جيبه !

وكان ابن بطوطة يعمل قاضيا للمسلمين في كل البلاد التي ذهب إليها  
وكان إذا سمع عن شيء غريب . طلب أن يراه أو يكون قريبا منه . كانت  
حياته كلها من أجل السفر ومن أجل أن يرى أكثر ليروى للناس بعد ذلك .  
وإذا وجد الطريق صعبا أو مليئا باللصوص طلب من الله أن ينقذ البشرية من  
هؤلاء السفاكين ليتقارب الناس أكثر ..

وكان ابن بطوطة يتزوج في كل مكان يحل به . ثم يطلق زوجته . أو  
يقول لها إذا لم أعد بعد سنة فأنت حرة وتزوج كثيرا جدا . ولا بد أن الحياء  
هو الذى منعه من أن يقول رأيه في أشكال وألوان النساء اللاتي عاشرهن  
وإن كان قد صرح بذلك في أكثر من مكان . فقد وصف بنات الفرس  
بأنهن جميلات وأنهن أقدر لساء العالم على « التفتن في حركات العشق » .  
أما الزوجات في جزر المالديف — ذبية المهل كما يسميها — فقد حاول أن  
يقنعهن بتناول الطعام معه فرفضن . لا بد أن يأكلن بمفردهن !

وحاول ابن بطوطة أن يصلح فهم الشريعة الإسلامية في كل البلاد  
التي ذهب إليها . فقد انزعج مرة عندما سمع صوت أجراس الكنيسة أعلى  
من صوت المؤذن .. وطلب من المصلين أن يصعدوا إلى الجامع وأن يرفعوا  
أصواتهم بالدعاء !

وعندما علم أن نساء جزر المالديف يمشين عاريات الصدر ممنعهن .

ولم يفعلن . ولكنه منع أية واحدة تقف أمامه إلا إذا غطت صدرها !

وكان من عادة المسلمين في الهند إذا طلق الرجل زوجته أن تبقى في بيته حتى تجدها زوجا آخر . وحرم ذلك . وأطلق سراح المطلقات . وضرب الرجال وفضحهم في الشوارع . وكان يحكم بقطع يد السارق !

وفي الهند رأى عجائب الدنيا .. ولا تزال هذه العجائب تنتقل من القرن الرابع عشر حتى يومنا هذا .. دون أن يناقشها أحد .. أو يدعى كثير من الناس أنهم رأوها . فهو أول من وصف لنا الرجل الذي يرتفع تلقائيا فوق الأرض .. ثم يرتفع حذاء إلى أعلى رأسه ويضربه .. وينزل الرجل إلى الأرض! (١)

وهو الذي يصف قصة الفيلة التي قتلت أصحابها .. فقد حدث أن جماعة ذبحوا فيلا وأكلوه . وناموا . وجاءت الفيلة تشمشم فيهم ليلا . وتقتل كل من في فمه رائحة لحم الفيل .. إلا رجلا واحدا .. حملته الفيلة على ظهورها . وكان رجلا صالحا !

ويقول ابن بطوطة إنه رأى في جزر المالديف نساء هن ثدى واحد !

وسمع عن شجرة تسقط منها ورقة واحدة كل سنة . في الخريف . هذه الورقة مكتوب عليها : لا إله إلا الله .. وينتظرها الناس كل سنة . ويقتسمونها مع السلطان ونصفها يكفي لعلاج الناس جميعا !

وهو أول من حدثنا عن حجر أسود وقع من السماء . أتوا له بهذا الحجر حاولوا تكسيه . فلم يستطيعوا . فوضعوه في مكانه !

وضحكت - ولم يضحك ابن بطوطة - عندما زار مدينة البصرة . فوجد أمام المسجد رجلا يخطئ في النحو والصرف . واندعش كيف يحدث ذلك

---

(١) راجع كتابي « الذين هبطوا من السماء » .

في المدينة التي ولد فيها أبو النحو : سيويه ! ( حدث لي ذلك أيضا عندما ذهبت مع وقود الأدباء والشعراء . ولاحظت أن الكوبرى الذى يصل بين المدينة والمدينة الجامعية مكتوب عليه . الكوبرى حمولة ١٢ طن - وليس ١٢ طنا . وكتبت مقالا أفصح فيه هذه الغلطة الفظيعة في مدينة النحو . وأصلحوا هذا الخطأ ! ) .

وابن بطوطة قوى الملاحظة ، وشديد الذكاء . ولذلك يخطئ كثيرا . فثلا عندما رأى قواقع اللؤلؤ . قال إن هذه القواقع إذا أخرجوها من الماء . ثم مزقوها . فإن قطع اللحم هذه ، إذا تعرضت للهواء ، تجمدت وتحولت إلى هذا اللؤلؤ الجميل - إنه لم يعرف أن اللؤلؤ إنما يتكون في أحشاء هذه الحيوانات الصغيرة سنوات طويلة تحت الماء !

وقد تأثر ابن بطوطة بالحياة في جزر المالديف . وقد تزوج هناك أربع سيدات معا . وكانت له خادما أيضا ومن عادة أهل الجزر هناك وعددها ألف جزيرة ، أن العروس تفرش الطريق إلى بيت العريس بالقماش . ثم تنتظره عند الباب فإذا جاء ألقبت بثوبها على قدميه . وكذلك يفعلون مع الذين يحترمونهم من الناس . أما كيف دخل الإسلام إلى هذه الجزر النائية المتناثرة في المحيط الهندي . فابن بطوطة يقول إن أهل الجزر كانوا يتوقعون مجئ أحد العفاريت مرة كل شهر والعفريت يجئ في سفينة مضاعة أما أهل الجزر فيعدون له فتاة عذراء جميلة - مثل عروس النيل - ويضعونها في إحدى القلاع وتبيت معه حتى الصباح .. وفي الصباح لا تكون عذراء .. ويقال إن رجلا اسمه أبو البركات البربرى من المغرب جاء إلى هذه الجزر . وسمع بهذه القصة وانزعج . وفي يوم وجد سيدة عجوزا تبكى . وسألها . فقالت :

ابنتي الوحيدة عليها الدور ! فقال لها أبو البركات : لا تجزني - سأذهب بدلا منها .

وذهب الشيخ أبو البركات إلى القلعة . وظل يصلي طول الليل .. حتى طلع النهار . وجاء أهمل الجزر يتسلمون الفتاة تمهيدا لقتلها وحرقتها بعد ذلك فوجدوا الشيخ أبو البركات وفي الشهر التالي تكرر ذلك .. وآمن أهل الجزر بدين الإسلام . ولا يزال للشيخ أبو البركات قبر يزار في جسر المالديف .

وعندما عاد ابن بطوطة من هذه الرحلات الطويلة كان يجلس إلى الناس ويحكى لهم ما رأى . وخاف السلطان أبو عنان من أمراء بني مدين أن تضيق هذه النوادر . فطلب إلى ابن بطوطة أن يملأها . وأتى له بكتاب اسمه ابن جزى الكلابي . وأملاها عليه ونشرت بعنوان « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » . وفي كثير من الأحيان يضيف ابن جزى فقرات من عنده . وكان ابن بطوطة ينتقد أيضا .

وأجمل صفحات هذه الرحلة ما كتبه ابن بطوطة عن نفسه . عن عذابه هو . فعندما وقع في الأسر . هنا فقط يتحول ابن بطوطة إلى إنسان رقيق بليغ إنه يصف عذابه وهوانه على الناس . وكيف سجنوه ليقتلوه . ثم ربطوه بالحبال . وكيف أن الرجل المكلف بقتله كانت عينه على ملابس ابن بطوطة فأعطاهها له . وارتدى ملابسه الممزقة . ثم هرب إلى الحقول والغابات ونام في البيوت المهجورة مع الثعابين والقرآن . وكيف أنه عندما أوى إلى أحد البيوت لاحظ أن طائرا يرفرف فقال : لعله خائف . وهكذا تجمعنا خائفين في مكان واحد .. ثم كيف أن أحدا حملته على عنقه .. فقد كان مرهقا . وكيف أنه تصور أن هذا الذي حمله اختنى . لا يعرف إلى أين .. صفحات من أرق وأعمق ما كتب ابن بطوطة !

ومرة أخرى عندما ثار لكرامته في جزر المالديف . هنا نحس أنه رقيق

ولكنه فى الوقت المناسب قاطع كالىسيف ! ولا يرجع عن قراره حتى اذا  
انحنى السلاطين عند قدميه - وقد فعلوا . ولكنه لم يرجع !

ويظهر التعب والملل واضحا على ابن بطوطة عندما نقلته السفينة من جزر  
المالديف الى جزيرة سيلان ومعه لاحدى زوجاته وأمها . فقد رأى جزيرة  
صغيرة . وفى الجزيرة شجرة واحدة . وغربان وزورق . ورجل وزوجته  
وأولاده . لا أحد غير ذلك . والبحر هادئ . والشمس حانية . والنسيم  
صحيح . والهدوء تام . هنا .. تمنى ابن بطوطة أن تكون له هذه الجزيرة وحده  
ويعيش فيها حتى الموت !

ذهب يبحث عن الهند  
فوجد أمريكا ...  
أكبر غلطة

في إحدى حانات مدينة جنوه الإيطالية يجلس عدد من الرجال ومعهم سيدة جميلة . يشربون ويغنون . وفي آخر الليل يغمزون لها أن تستدعي ذلك الشاب الحزين المأخوذ الذي ينظر في السقف . ويحيى الشاب ويقربون منه .. وبعد أن يرفض أن يشرب أو يضحك يقولون له : وتريد أن تكون ملكا؟ ويكون جوابه : سأكون ملكا !

ويقولون له : قل لنا يا ملك والكنوز التي سوف تعثر عليها ماذا ستفعل بها ؟

ويكون جوابه بنفس الجدية وعيناه هذه المرة إلى وجوههم وعيونهم الحمراء : سأقسّمها مع الدولة .

ويقربون منه أكثر ويسألون : وتدعونا جميعا إلى أن نشرب في صحتك؟ ويرد بسرعة كأنه يصدق ما يقولون : بل أدعوكم إلى أن نساfer معا إلى أرض جديدة .. ومن المؤكد أنني سأجدها !

ويخرج الشاب إلى الشارع .. إلى الشاطئ .. وعند الشاطئ يجلس في زورق صغير ويظل ينظر في السماء حتى يغلبه النوم . فإذا طلع النهار عاد إلى بيته لينام ..

وكان أبوه يعرف ذلك .. فلا يسأله عن شيء . وكل ما يفعله الأب هو أن يلقي إليه ببعض النسيج . فقد كان أبوه ناسجا .

ثم ينبه إلى ضرورة أن يفرغ من عمله في أسرع وقت ، وأن يحلم فيما بعد

ولكن لم يعرف التاريخ رجلا عاش حالما طول الوقت مثل هذا الشاب  
خريستوف كولمبوس الذى تسلطت عليه فكرة غريبة عجيبة . أنه وحده هو  
الذى سوف يكتشف بلاد الهند والصين . لقد قرأ الكثير : وسمع القصص  
والنوادير والخرافات التى امتلأت بها المدائن الإيطالية والأسبانية والبرتغالية .  
وقرأ رحلة ماركو بولو الإيطالى الذى سبحن فى مدينة جنوه . وسمع عن المحرمين  
الذين هربوا من سبحون البرتغال واختفوا فى إحدى جزر المحيط الأطلسى ..  
بعيدا عن كل العيون .. وسمع قصة الراهب الذى ركب زورقا واختفى فى  
الشاطئ حيث لا يدرى به أحد . وسمع قصة بلقيس ملكة سبأ التى قيل عنها  
إنها عبرت المحيط ووصلت إلى اليابان وقرأ عن العرب الذين سافروا إلى الشاطئ  
الآخر من المحيط ، وعن كثيرين جدا .. ذهبوا ولم يعودوا ..

وقد عرض كولمبوس فكرته الجنونية هذه على حكومة جنوه فسخروا منه .  
وسافر إلى اليونان وإلى شمال أوروبا .. وكره بلاده .. وأقسم ألا يتكلم الإيطالية  
وآلا يكتب بها ، بل أنه غير اسمه تماما . وجعله : كريستوبال كولون . وكذلك  
فعل لإخوته .. ووقف فى زورق خارج مدينة جنوه وبصق عليها . ( بعد ذلك  
بمئات السنين فعل ماركونى نفس الشيء . عندما عرض اختراعه اللاسلكى  
على حكومته فهزت له كتفها فسافر إلى إنجلترا ) .

وسافر كولومبوس إلى البرتغال . إلى لشبونة . حيث كان الناس بحارة  
وكلهم أبطال . وعندهم مغامرات . وروى فكرته فى أن يذهب إلى الهند  
والصين عن طريق المحيط – أى يذهب إلى الشرق عن طريق الغرب . وفى  
مدينة لشبونة عرف إحدى الفتيات . أعجب بها . عرض عليها الزواج . وافقت .  
اشترط أن تهديه إلى قصر الملك . الصدفة وحدها هى التى هدته إلى هذه الفتاة .  
فإحدى قريباتها تعمل فى البلاط الملكى . استطاع أن يقرب من الملك يوحنا  
الثانى . لعرض فكرته . نظر الملك إلى هذا الشاب الإيطالى المؤمن تماما بمشروعه .  
نظر إلى الخرائط التى رسمها فى يده . سأله : من الذى رسمها ؟ فأجاب كولومبوس : أنا .

ثم طلب إليه الملك أن ينتظر بعض الوقت ..

وكان البحار دياز يلف حول أفريقيا يريد أن يكتشف طريقا آخر إلى الهند . ولذلك لم يكن ملك البرتغال متحمسا لمشروع كولبوس .

ولم يطق كولبوس صبرا . فهو يريد أن ينفذ مشروعه . فقد قرأ في الكتاب المقدس أن العالم سوف ينتهى سنة ١٦٦٥ (١٩) وقرأ أيضا في سفر أشعياء ( الإصحاح الحادى عشر الآيات العاشرة والحادية عشرة ) أنه هو وحده الذى سوف يتخذ العالم . وأنه هو الذى سينقل البشرية إلى الشاطئ الآخر . أو هكذا فهم !

والآياتن تقولان : «ويكون فى ذلك أن أصل ( يسى ) القائم رأيه للشعوب . إياه تطلب الأمم ويكون محله مجدا . ويكون فى ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقتنى بقية شعبه التى بقيت من آشور ومن مصر .. ومن جزائر البحر » .

وآمن كولبوس أنه هو المقصود . ولذلك كان يمشى ويأكل ويشرب وينام وهذه الكلمات ترن فى أذنيه .. كان يعيش كأنه منوم تنويما مغناطيسيا . لا يعرف الضحك . ولا يعرف المشاركة فى أى نوع من أنواع الحياة الاجتماعية . وليست لديه إلا قصة واحدة : اكتشاف الهند . وعندما تزوج لأول مرة : قال لعروسه : وفى استطاعتك أن تحتلمى جنونى . قالت نعم ..

وحاولت أن تجعله يعدل عن الجنون . ولكنها لم تستطع . وبعد أن ماتت هذه الزوجة الغنية اختار عشيقه له . كانت مهمة هذه العشيقه أن توقفه طول الليل لتقول له : أريد أن أنام .. اسكت .. لقد سمعت هذه القصة ألف مرة !

ولكنه لا يتعب من تكرارها .. ذهب إلى الملك فردناند والملكة إيزابيلا ملكى أسبانيا . قدم مشروعه . نشر خريطته أمامهما كأنها طائر أبيض ذبيح تحمس الاثنان . استدعيا رجال البلاط والخبراء . ناقشوه . اقتنعوا بأنه مجنون

اعتبروا . ولكن الملكة تأثرت لمنظره : طويل عريض . ذهي الشعر أزرق العينين شديد البياض . له أنف حقر . لا يضحك . ولا يحب الضحك . وقررت الملكة أن تحتفظ . به بعض الوقت . واعطته معاشا لمدة سنتين . وبعد ذلك تخلت عنه فعرف الجوع والمرض والتضور . وكان لا يخرج من البيت حتى لا تتسلل الأمطار إلى ملبسه وحذائه . وأصابه القرس . وشاب شعره في سن مبكرة . وأرسل أخاه إلى شارل السابع ملك فرنسا . ثم أرسله إلى هنري الرابع ملك إنجلترا . واعتذر الواحد بعد الآخر ..

ذهب كولبوس على ظهر بغل ليأتي بابنه الذي تركه في أحد الأديرة في جنوب فرنسا . دق الباب . خرج له أحد الرهبان . فقال له كولبوس : أريد ثلاثة أشياء . هل هذا ممكن ، وقال الراهب : ممكن يا ولدي ! قال كولبوس : لقمة عيش .. وولدي الذي تركته هنا منذ سنتين .. ونصف ساعة من وقتك بعد ذلك !

وفي نصف الساعة روى له كولبوس مشروعه الخيالي . واقتنع الراهب وأرسل خطابا إلى الملكة إيزابيلا ورجاها أن تستمع إليه .. وبعد أسبوعين جاء الرد من الملكة بأنها سوف تستمع إلى كولبوس .

وذهب كولبوس يعرض مشروعه مرة أخرى على مسمع من الملكة ورجال البلاط ورجال الدين والعلماء والمنجمين . وكان كولبوس كأنه « وسيط » روحاني يتحدث بصوت إنسان آخر .. ووافقت الملكة على المشروع . ونظرت إلى وجه كولبوس . ولكن الوجه جامد . لا سعادة . لا فرح . لا امتنان . وسألته ماذا تريد بعد ذلك ؟ فقال كولبوس : ننتقل إلى الشروط .

ودهش الحاضرون . ولكن الملكة قالت له برفق : وما هي شروطك ! ؟

قال : أن أعين أميرا للمحيط ونائبا للملك وحاكما على الأرض التي سأكتشفها وأن آخذ عشر إيراداتها وثروتها وكنوزها .

ورفضت الملكة المشروع والشروط معا .

وقال كولبوس : شكرا لأنك استمعت إلى .. وخرج كولبوس وركب بغلته واتجه إلى الشمال . لا أحد يعرف بالضبط إلى أين . ولكن وزير الخزانة قال للملكة يامولاتي . إننا لن نخسر شيئا . هذا الرجل إما أن يكون مجنوناً أو عبقرياً . فإذا كان مجنوناً فهذه مغامرة . وإذا كان عبقرياً وأنا أو من بذلك فسوف يضيف إلينا أرضاً جديدة .. وعددا هائلا من الهنود يدخلون الديانة المسيحية .. إنه مجد لأسبانيا ! وإذا لم توافقى على تمويل هذا المشروع فأنا على استعداد أن أموله على حسابي !

واستدعت الملكة كولبوس لتهيى رحلة العذاب والهوان التي استغرقت من عمره عشرين عاما !

ومنحته مبلغ خمسة آلاف جنيه :

وقالوا لها : هذا كثير !

( خمسة آلاف جنيه أدت إلى اكتشاف أمريكا كلها . ! ولذلك فالأموال التي تنفقها أمريكا وروسيا على سفن الفضاء ليست كثيرة إذا ما قورنت بالفوائد الفلكية والعلمية التي سيهتدى إليها الإنسان بعد ذلك ! )

واقترض كولبوس بضع مئات من الجنيهات .

وأعدت له الملكة أسطولا من ثلاث سفن هي : سانتا ماريا ( حمولة مائة طن ) ورجالها خمسون . ونيبيا ( ٥٠ طنا ) ورجالها ثلاثون . وبنتا وحمولتها ( ٤٠ طنا ) ورجالها ٢٤ .

وفي يوم ٣ أغسطس ١٤٩٢ بدأت الرحلة من الشاطئ الأسباني إلى المجهول مارة بجزر كنارى - في هذا اليوم بالضبط قررت حكومة أسبانيا طرد اليهود جميعا من البلاد !!

وكان على ظهر سفينة القيادة عدد من الموظفين الرسميين . وكان كولبوس

حريصا على كل مظاهر الرياسة . وشديد التمسك بحقوقه . وكان يطلب إلى كل الرجال أن يعاملوه كأmirال ونائب للملك . وتوقفت السفينة عند جزر كنارى بعد أن انكسرت إحدى السفن .

وبعد جزر كنارى اتجه كولبوس إلى المجهول . انه يمشى فى طريق لا يعرفه أحد . لم يعبره أحد . فكل ما عنده قصص وخرافات . وفى أعماقه إيمان بأنه هو الذى سوف يهتدى إلى الأرض الجديدة . إن الأقدار قد اختارته والدليل على ذلك أنه غرق فى المحيط وأنقذته إحدى الصخور الصغيرة .. وأنه وحده هو الذى يسمع صوتا واضحا يهتف فى أعماقه . وأنه هو وحده الذى يتجه إلى الهند عن طريق الجنوب لا عن طريق الشمال .

وبدأ البحارة يشعرون بالخوف . فقد كانت الطيور تطمئنهم . إن هذه الطيور دليل على أن الأرض قريبة . ولكن الأيام طالت وطالت . واللبل يبحى ويروح .. والرياح يتغير اتجاهها وأشرعة السفن الصغيرة تتمزق . وفجأة لم تعد البوصلة تتجه إلى الشمال .. إنها تتوقف .. وفجأة تعالى صوت أحد البحارة : الأرض .. الأرض .. ولم تكن أرضا . وإنما هى سحابة كثيفة جاثمة على صدر المحيط .. وفجأة ظهرت أعشاب بحرية كثيفة تعوق سير السفن .

وفى يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٤٩٢ صرخ أحد البحارة : الأرض ! .. الأرض ولم تكن أرضا . وإنما هى هم . أو تعب . أو سحب .. أو أسماك تلمع فى الماء فيظن البحارة أنها مشاعل فى أيدي الهنود .. ورغم ذلك فإن البحارة أقاموا الصلاة . وراحوا يبتهلون لله .. وينشدون معا : حفظ الله الملكة .. وطلع النهار . ولم يجدوا الأرض ..

وفى يوم ١٠ أكتوبر قرر البحارة التمرد على هذا الرجل المجنون كولبوس وأعلنوا أنه لا بد من العودة .. واستدعاهم كولبوس وقال إنه سوف يعطى معاشا سنويا ضخما لأول من يرى الأرض .. ثم قال لهم : إذا لم تظهر الأرض بعد ثلاثة أيام بالضبط فسوف نعود إلى أسبانيا !

وهذا المتردون ومن العجيب أن الأرض ظهرت بعد يومين . أما كيف أعلن كولبوس ذلك وفي يقين . فلا بد أن يكون السبب هو أنه رأى بعض الطيور البحرية تتجه إلى الجنوب . ولا بد أن أغصان الأشجار العائمة والتي التقط منها واحدا هي التي شجعتة على ذلك .. ولا بد أن قطعة الخشب المحترقة هي التي أكدت له أنه قريب من الشاطئ .. وفي الساعة الثانية من صباح يوم ١٢ أكتوبر صرخ أحد البحارة : الأرض .. الأرض ..

وكانت الأرض الجديدة بعد ٣٢ يوما من السفر من جزر كنارى . وطلب إليهم كولبوس أن يصلوا وأن «يعترفوا وأن يتناولوا» ونزلوا إلى الأرض . وغرسوا علم أسبانيا وارتندى كولبوس ملابس الأميرال ونائب الملك وأعلن أن هذه الأرض ملك لأسبانيا وأنه هو حاكمها .. وانتهت بذلك الخرافات والقصص والنوادر التي أعلنتها الشعوب مئات السنين عن الشاطئ الآخر للمحيط الأطلسي . انتهى ما جاء في كتاب « صور الدنيا » للكاتب بيير وايلى .. انتهت كل الألغاز والرموز التي جاءت في الكتب المقدسة عن الظلمات وبحر الظلمات .. وما يكتبه يوحنا الدمسقى ..

وكان الفيلسوف أرسطو يعتقد : أن المسافة بين أسبانيا وبين الهند - أى الجانب الآخر من المحيط الأطلسي - قريبة جدا ..

وكان الفيلسوف سنيكا يقول : إذا كانت الرياح ملائمة أمكن عبور المحيط في أيام !

ولم يحدث في التاريخ أن استطاع إنسان بمعلومات خاطئة في الجغرافيا والفلك أن يكتشف عالما جديدا . فكولمبوس إنسان غير مثقف . وإنما عنده تجارب وعنده بعض القراءات وإيمان لا حد له .. فهو حتى الموت كان يحلم بلقاء الخالق الذي تحدث عنه ؟ ماركو بولو .. وتلك الكنوز من الذهب والماس . في بلاد الصين !

وبعد اكتشاف كوليبوس للأرض الجديدة ، أصبحت الأرض الجديدة  
في متناول كل بحار مغامر .. وتوالى اكتشافات الجزر الكثيرة . بل إن بعض  
بحارة كوليبوس اكتشفوا البرازيل .

أما أول أرض نزل بها كوليبوس فهي إحدى جزر بها ماس وقد أطلق  
عليها اسم : سان سلفادور ..

وكان سعيدا عندما رأى « الهنود » ووصفهم في مذكراته : أنهم أناس  
في غاية الرقة . عراة . وبلا سلاح .

وأول ما لفت نظر كوليبوس هو الذهب الذى فى صدور وآذان النساء .  
وحاول أن يعرف منهم أين يوجد هذا الذهب . فأشاروا إلى أنه فى الجنوب  
فى جزيرة كوليبا أى كوبا .

ورأى الأوروبيون لأول مرة أن الهنود يلفون أوراقا صغيرة ويشعلونها من  
حافتها ثم يضعونها فى أنوفهم ويدخنونها — إنها السجائر !

وبعد ذلك كل شئ مكرر . فكوليبوس أثبت أن هناك طريقا . وأن  
الطريق قد بلغ نهايته .. وبعد ذلك تسابقت كل الدول !

وعاد كوليبوس إلى أسبانيا ..

واستقبلوه استقبال الفاتحين . ارتدى ملابس الأميرال ونائب الملك .. كان  
يسوق أمامه عددا من الهنود الحمر .. والناس يتفرجون على الرجل الذى  
أنكره كل الناس وسخروا منه .. إنها إذن لحظة النصر العظيم على الشقاء والتعاسة  
والجوع والسخرية ..

وأجلسته الملكة إلى جوارها ..

ولكن الذين لا يتحمسون في بلاد الملوك وما أكثرهم . نظروا بنصف عين إلى هذه الثروات التي حملها معه . لم تكن شيئاً هاماً . أما الهنود الحمر فقد آمن كولبوس أنها فرصة لتجارة الرقيق وفي استطاعة أسبانيا أن تكسب من وراثتها الملايين .. ثم إنه أتى ببعض البيئات . وأتى ببعض الثمار والفلفل الأحمر واللبان وجوز الهند — إن الرحلة ليست كسباً كبيراً !

ولذلك قام كولبوس بثلاث رحلات أخرى . الثانية استغرقت ما بين ١٤٩٣ و ١٤٩٦ والرحلة الثالثة فيما بين ١٤٩٨ و ١٥٠٠ والرحلة الرابعة والأخيرة فيما بين ١٥٠٢ و ١٥٠٤ . وعين أخوه حاكماً على إحدى الجزر .

ولم يكن كولبوس خبيراً بفن الإدارة أو الحكم . وقد انشغل عنه الملك والمملكة تماماً . وهان أمر اكتشافه على أوروبا كلها . فقد تسابقت الدول إلى اكتشاف أراض جديدة .

وطالب كولبوس الملكة بأن تفي بما وعدت به . ولكنها اعتذرت لأنه ليس من المعقول أن يتقاضى كولبوس عشر ثروات أسبانيا !

ثم ان كولبوس نفسه شخص لا يطاق . فهو عصبي عنيف . وفي غاية القسوة والمرارة . فعندما قرر العودة إلى أسبانيا ترك وراءه أربعين من رجاله قتلهم الهنود .. وحدث وهو في الطريق أن قامت عاصفة . فجمع البحارة وقال لهم : من الذي اكتشف الهند ؟ قالوا له : أنت ..

— من هو أميرال المحيط وملك أسبانيا ؟

— أنت ..

— من هو الذي اختارته السماء ؟

— أنت !

وهنا أمسك كولبوس قطعة من الجلد وكتب عليها أنه هو وحده لا شريك

له قد اكتشف الهند والصين وأنه سيد البحار . ثم وضع قطعة في زجاجة وألقى بها في المحيط !

وعندما وصل البحارة مع كولبوس رورا للملكة ما حدث .. وهامس الناس في قصر الملكة عن الرحلة التي لم تسفر عن شيء ..

أما أخوه فقد كان هو أيضا عنيفا . أعدم عددا من الأسبان . وأقره كولبوس على ذلك . بل أن كولبوس قد صفع القاضي الذي بعثت به الملكة لإقرار النظام في الأرض الجديدة . فأصدر القاضي قرارا بإلقاء القبض على كولبوس . ووضعت السلاسل في يديه .. وعاد بنفس الطريق الذي اكتشفه إلى أسبانيا لمحاكمته .. وعندما علمت الملكة بما أصاب كولبوس انزعجت وطلبت فك السلاسل من يديه ولكنه أصر على أن يمشي في الشوارع ويراه الناس .. ويشهد الناس ما لقيه هذا المكتشف العظيم !

ولم يكذب الناس يرون كولبوس حتى بكوا من أجله .. وفكوا قيوده . وعاد كولبوس يطالب الملك بنصيبه من الثروات . ووعده الملك بأن يعطيه معاشا سنويا . وأن يحتفظ أبناؤه الشرعيون وغير الشرعيين بألقابه !

وماتت الملكة ولم يعد لكولبوس أحد يعطف عليه ..

وفي هذه الأثناء اكتشف رجل إيطالي آخر اسمه أمريكو فسبوتشي أمريكا الجنوبية وأعلن أنها ليست الهند كما قال كولبوس .. وإنما هي قارة جديدة تماما .. إنها ليست آسيا .. ولذلك سميت أمريكا باسم هذا البحار الإيطالي لأنه هو المكتشف الحقيقي .

أما السنوات التي جاءت بعد ذلك فهي مرض وعجز عن الحركة ، حتى مذكراته التي كان يسجلها يوما بيوم لم يكملها . وإنما استولى عليه القرف .. ووهم عجيب بأنه يجب أن يذهب ليحرر القدس . وآخر خطاب كتبه لإبنه

يطلب منه أن يرفع أمره للقضاء ضد الملك حتى يحصل على حقه كاملا من الأرض التي اكتشفها !

وظل الإبن يقاضى الدولة حتى سقط حقه بوفاته ..

ووفاة كولبوس نفسه عن ٥٥ عاما يوم ١٩ مايو سنة ١٥٠٦ - دون أن يدرى به أحد !

وفي ١٥٤٢ نقل رفات كولبوس إلى جزر سان سلفادور . ووضع في كاتدرائية سان دومنغو . وتحطمت هذه الكاتدرائية بعد ذلك بفعل الزلازل . ثم أقيم فنان ضخم عند مصب نهر أوزمان في جمهورية الدومينيكان يحمل اسم كريستوف كولبوس ..

وقد اختار كولبوس أن يموت في أحد أديرة الفرنسيسكان لأنه حاول أن يقنعهم بضرورة تحرير القدس . وفي إحدى المرات نهض من الفراش ولكن النقرس شل حركته تماما . فسقط على الأرض وهو يقول باللاتينية : بين يديك يا إلهي . سلمت روحي !

إنها أكبر وأشهر وأعجب غلطة في التاريخ كله : لقد ذهب لبيحث عن الهند والصين فاصطدم بأمريكا ، ومات دون أن يعرف ذلك !

نبوءة تقول  
تكتشف أرضا جديدة  
لا يحسبها أولادك!

عندما اقتربت السفينة من الشاطئ ، ركع سكان جزيرة هاواي ثم سجدوا وبعد ذلك تمرغوا على الرمل الناعم . وانتهز شيخ الجزيرة فذبح ثلاثة من الشبان والشابات .. وألقى بأجسادهم فى الماء .. واشتعلت النيران . وتعالى الدخان والطبول .. واقترب شيخ الجزيرة من السفينة وقد أخفى جسمه كله فى الماء ..

أما يده فقد رفعهما إلى أعلى .. أما رأسه المصبوغ بالأبيض فقد عمره فى الماء .. ويرفعه بين لحظة وأخرى ليقول : آو .. هو .. هو .. هو .. ي — ومعناها الإله الأعظم !

فأهل جزيرة هاواي قد رأوا سفينة ، فظنوا أنها الجزيرة العائمة التى تحدث عنها الأساطير .. ورأوا أشرعتها البيضاء والأسطورة تقول أن الجزيرة سوف تكون أشجارها بيضاء .. ولما رأوا قبطانها الأوروبى الأشقر أيقنوا أن هذا هو الإله !

ونزل الأوروبيون من السفينة ..

ولم تمض لحظات حتى كان القبطان قد أتى بواحد من الأوزوبيين ونزع ملابسه . وراح يضربه على ظهره أمام هؤلاء الملونين . فأصابهم الرعب ..

ومضت بعد ذلك أيام هائلة سعيدة .. فالجزيرة هادئة جميلة .. أرضها حمراء اللون وأشجارها خضراء زرقاء وأمواج المحيط الهادى ميتة .. كل شئ قد خلق ليكون متعة للعين .. ولكن هذا القبطان لا يريد أن يهدأ إنه يمسك قلما وورقة ويرسم .. فهو أبرع من رسم الخرائط البحرية ..

وعندما علم أن ثلاثة من رجاله اعتدوا على بنات هاواى راح يضربهم حتى سالت دماؤهم . وقد فعل ذلك من قبل — وكانت غلظة فقد أدرك المليونون أن هؤلاء البيض لهم دماء .. وأن الضرب يوجعهم . فهم يتوجعون ويبيكون ككل الناس ..

وعندما حاول واحد من أهل هاواى أن يطلق سهمه على واحد من البيض قتله القبطان .. ولم يعرف القبطان أنه قتل ابن شيخ القبيلة الوحيد .. وهنا تقدم شيخ القبيلة وقتل القبطان .. وكان ذلك يوم ١١ فبراير سنة ١٧٧٩ . ولم يعرف أهل هاواى من هذا الرجل الذى قتله إنه أعظم مكتشف فى كل العصور إنه استطاع فى سنوات قليلة أن يصحح أخطاء جغرافية قديمة .. إنه أول مستكشف اعتمد على العلم والملاحظة فى أعظم وأطول رحلات قام بها إنسان فى التاريخ .. إنه البحار والمكتشف الإنجليزى جيمس كوك . ( ١٧٢٨ — ١٧٧٩ ) .. ولم يعرفوا أن هذه الأوراق لم تكن سوى مذكرات وأن هذه الأنوبة التى خطفوها لم تكن سوى تلسكوب رأى به جزيرتهم لأول مرة ، ورأى به جزرا أخرى لم يعرفها رجل أبيض من قبل .. وارتاد به أيضا هذه القارة الخامسة فى جنوب الدنيا !

( تجربة شخصية : عندما كنت فى جزر هاواى اشتركت فى لعبة معروفة يسمونها لعبة القبطان . يقف فيها القبطان — أنا أو غيرى — ويلتف حوله عدد من الفتيات يرقصن ويقلن كلاما غير معروف .. ثم يدرن حول القبطان بعد أن يقدمن له الموز وجوز الهند والأناناس وشرابا غريبا .. ثم ينتظرن بضع لحظات .. حتى يترنح ، ويليقن به فى الماء — حدث لى هذا كله فيما عدا الإلقاء فى الماء فأنا لا أعرف السباحة — وهذه اللعبة هى تطوير لما حدث لجيمس كوك قبل ذلك بمائتى سنة ! )

ولم يعرف البحر رجلا نصفه إنسان ونصفه الآخر حوت مثل هذا الرجل كوك ، فهو فلاح ابن فلاح — انتقل من العمل فى الحقول إلى العمل

في دكان بقال . وبعد ذلك انتقل إلى السفن . ومنذ عرف السفن لم يخرج منها . بل إنه كان يهرب من السرير لينام في الزوارق . وانتشرت شائعة تقول إن أحد الزوارق به عفريت . وقرر أصحاب الزوارق أن يحرقوه في الليل . وفي إحدى الليالي بدأوا يلقون عليه بالمشاعل . وفوجئ الناس بأن طفلاً يهرب منه . وانطلقوا وراءه وكان جيمس كوك . فقد حاول أن يقنع الناس بأن الزورق « مسكون » لعلهم يتركونه ويسافر به إلى الجنوب .. ولما سأله : وأين هذا الجنوب ؟ كان يقول : إلى الأراضي الجنوبية – ومعناها أستراليا ! حاول أبوه أن يجعل منه شيئاً ولكن الإبن مصر على شيء في رأسه . انه يؤكد لوالده : إنني مختلف عن أخوتي التسعة فلا تحاول معي شيئاً . اتركني !

ذهب كوك إلى أحد رجال الدين يسأله : ما الذي ينقصني .. إنني قرأت كل كتب الجغرافيا التي وجدتتها .. قرأت كل الرحلات القديمة .. درست الرياضة .. أعرف أين موقع أي مكان في العالم .. وأستطيع أن أقول ما هو خط العرض وخط الطول .. ما الذي ينقصني ؟

سأله رجل الدين : كم عمرك يا ولدي .

فأجاب : أكثر من عشرين سنة الآن – وكان في السابعة عشرة من عمره !

وقال له رجل الدين – وكانت نبوءة – : لا شيء ينقصك : عشرون سنة

أخرى !

وبعد عشرين سنة تماماً وفي يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٧٦٨ كلفت الجمعية الملكية هذا الرجل كوك بأن يذهب إلى نصف الكرة الجنوبي في مهمة فلكية . فقد تأكدت الجمعية الملكية أن هذا الرجل هو الرجل المناسب .. فهو بحار ممتاز سافر إلى جزر بعيدة . واشترك في معارك بحرية . وفي غاية الدقة . وشخصية . وعلى دراية عميقة بالفلك ورسم الخرائط البحرية . وله خرائط دقيقة قد رسمها لشواطئ أمريكا الشمالية ..

ويقول كوك في مذكراته : « وكان اليوم الموعود .. أما السفينة فاخترت لها اسم « الأمل » وحمولتها ٣٧٠ طنا . وعلى ظهرها ٩٤ شخصا من العلماء والبحارة والأفندية - أو السادة الأكابر - ومعهم الخدم .. وعلى السفينة طعام يكفيننا لمدة سنة ونصف سنة ومعنا مدافع ثابتة ومدافع متحركة . أما العلماء فهم أناس مشغولون بالفلك . وآخرون مشغولون بالنبات . وفي ذلك اليوم تفاعلت فقد قفزت على رأسى قطة سوداء .. تمنيت أن آخذها معى .. لولا أننى خشيت أن تموت منى فأتشاءم .. .. »

وكان من مهام كوك أن يرصد كوكب الزهرة يوم ٣ يونيو سنة ١٧٦٩ من جزر تهايتى . ففي ذلك اليوم سيدخل هذا الكوكب في مدار قريب من الشمس والمطلوب رصد هذه الظاهرة لمعرفة المسافة بين الأرض والشمس بالضبط .. وبعد ذلك عليه مهمة أخرى . إنها ذلك الحلم العجيب الذى كان يهزه بالليل فيصرخ كأنه مجنون .. وكان يريد أن يتحقق بعينه إن كانت هناك أرض جنوبية متصلة بالقطب الجنوبي .. أو هل صحيح أن قارة أستراليا - ومعناها الأرض الجنوبية متصلة بالقطب الجنوبي كما قال كثير من البحارة والمكتشفين والأساطير القديمة .

ومن المعروف فى ذلك الوقت أن يصاب البحارة بمرض الاسقربوط دون أن يعرفوا السبب الذى نعرفه الآن وهو نقص فيتامين ج ولكن كوك استطاع - بذكائه وتجربته أن يتجنب الإصابة بهذا المرض عن طريق وجبات الطعام المتكاملة والتعرض لأشعة الشمس .

لم يحدث شئ غير عساذى فى الرحلة من إنجلترا إلى البرازيل .. ولا حول أمريكا الجنوبية .. ولا فى المحيط الهادى إلى أن رست السفينة عند شواطئ جزر تهايتى .. فقد اعتاد سكانها الأصليون أن يروا الرجل الأبيض .. واعتادوا على مقايضة الخرز والطعام .. وعلى أن يقدموا الطيور والخنازير مقابل المسامير التى يحتاجون إليها فى صناعة الزوارق .. وفى هذه الجزيرة سرق

أهل تهايتى بعض الأوروبيين .. واضطر كوك أن يقبض على عدد من أهل الجزيرة حتى يعيدوا المسروقات . وأعادوها . وعندما هرب اثنان من بحارته . ألقى القبض على بعض الملونين . وعلى الرغم من أنهم اعترفوا بأنهم أبرياء ، فقد وعدوا بمحاولة .. وأعادوا الهاربين .. وكان لابد من أن يضرهما كوك أمام الجميع .. وعندما شكوا أحد سكان الجزيرة من أن طبّاخ السفينة قد هدد زوجته بأن يقطع رقبتها ذهب يشكو إلى كوك . ودعاه هو وزوجته لرؤية الطباخ عاريا صارخا تحت ضربات كوك القاسية – كان قاسيا على غيره وعلى نفسه وكان حازما أيضا !

وأقام كوك مرصدا فلكيا وذهب إليه العلماء . وفى يوم ٣ و ٤ يونيو ارتفعت العبدسات إلى السماء تسجل مسار الزهرة . ولكن النتائج كانت هزيلة . ويمكن أن يقال أن الغرض الأساسى من هذه الرحلة فشل . فلم يكن من السهل رصد هذا الكوكب .. لأن طبيعته مختلفة عن الكواكب الأخرى . ولم تكن صورته واضحة تماما ..

واتجه العلماء الآخرون إلى البحر يجمعون العينات الغريبة من الأحياء المائية . ويضعونها فى زجاجات . وكوك يقول فى مذكراته : إننى لا أعرف الفشل ولا يمكن أن تكون هذه الأحلام الواضحة جدا التى أراها فى نومي ، وهما أو هلوسة .. إننى أرى بوضوح أرضا جديدة لم يرها أحد من قبل .. وإننى أرى الرجل الذى سوف يعثر عليها .. أنا وحدى !

ولذلك اتجه كوك إلى المهمة الأخرى من رحلته ..

اتجه بالسفينة إلى الجنوب .. ثم إلى الغرب .. أقصى الجنوب .. وأقصى الغرب .. وسارعت الزوارق الصغيرة التى امتلأت بأهل الجزيرة تطارده . وتريد أن تتابعه . وأن تلتحق به . وأن تسافر معه . بعضهم كان يبكى . ولكن كوك تأثر لمنظر رجل وابنه .. فقد حمل الأب ابنه على كتفه ووقف فى أحد الزوارق يشير إليه .. الأب فى الأربعين والإبن فى العشرين . وتوقف كوك

وامتدت الأبدى لمساعدة هذا الأب . واسمه : طوبيا . وركب معه . وكان دليhle في التفاهم مع سكان الجزر الكثيرة الصغيرة التي رآها بعد ذلك ..

وفي أحد الليالى أحس كوك بضوضاء في مكان مامن السفينة . واتجه إلى مصدر الصوت فوجد أن أحد العلماء قد أصيب بنوبة صرع . وراح يلتقي بالأدوات العلمية في الماء ففعله بالقوة .. قائلا : هذه الأجهزة لم تعد ملكا لك .. إنها الآن لنا جميعا !

وقال العالم : أنا حر ..

وقال كوك : أنت حر في أن تلتقي بنفسك في الماء فقط !

وألقى الرجل بنفسه في الماء .. وتركه حتى غرق . ومضت السفينة في طريقها !

وفي أكتوبر سنة ١٧٦٩ رأى أرضا . إنه يعرفها . هذه الأرض قد عرفها الهولنديون قبل ذلك بمائة سنة .. إنها التي تسمى الآن نيوزيلندا .. ولا بد أن يتجه كوك إلى جهة أخرى .. إنه يريد أن يعرف أين هذه الأرض الجنوبية .. أين استراليا .. وكان الجو عاصفا . والموج عاليا . ولكن كوك على ظهر السفينة لا يهتز .. وإنما هو مثل سارية السفينة . مشدود . مصلوب عنيد . وبعد أربعة أيام ظهرت أرض . إنها هذه الأرض . اقتربت السفينة . نزل منها . وصرخ : إذن كل ما قيل لنا وهم !

ويقول في مذكراته : صعدت الصخور . كل ما أتوقعه هو أن أجد أرضا ممتدة بغير نهاية . ولكن وجدت البحر من الناحيتين .. إذن هي جزيرة كبيرة . ولكن لا بد من دليل آخر !

أما الدليل الآخر فهو أن يدور حول هذه الأرض .. ليعرف إن كانت جزيرة كبرى أو قطعة أرض متصلة بالقطب الجنوبي . ولكنه قبل أن يدور حولها ينس أن يضع علم بلاده عليها معلنا ملكيتها للتاج البريطاني .

وقطع أكثر من ألفي ميل حولها . وأخيرا تبددت الأسطورة القديمة أن هذه الأرض الجنوبية لا نهاية لها إلا في الجليد .. إنها إذن قارة خامسة هذه حقيقة مؤكدة !

ولم ينس كوك أن يرسم شواطئ القارة الجديدة بدقة وبراعة فائقة .. أما علماء النبات والحيوان فقد أصيبوا بالجنون . فهم أمام فردوس النباتات وجنة الحيوانات .. كل شيء جديد تماما : ومختلف عن نباتات وحيوانات أمريكا وأوروبا . وأعجب ما رأوا حيران الكانجرو - كما يسميه سكان استراليا الأصليون - إنه في طول الإنسان . له رأس غزالة .. وله ذيل ويجلس على رجليه الخلفيتين - كالطيور - يقفز كالضفدعة . ويقول كوك إنه اضطر أن يقتل واحدا ليدرسه .. وعلى الرغم من أن كوك قوى الملاحظة فإنه لم يدرك أن هذا الحيوان ينحني صغاره في كيس في بطنه . وأن هذا الحيوان الضخم عندما يضع صغاره يكون الواحد منها في طول هذا السطر فقط ! ولم يعرف كوك طبعا أن هناك ٣٨ نوعا من الكانجرو و ١٢٨ فصيلة !

والسكان الأصليون سود في غاية الهلوء . وأقل شراسة من سكان نيوزيلندا .. ومن الغريب أن الخرز والألوان الزاهية لا تبههم . وإنما فقط يريدون الطعام وبلغ من ذكاء كوك أن أدرك شيئا عجيبا . فقد لاحظ أنهم يمشون في خطوط مستقيمة . وهي ملحوظة عبقرية . فقد سمعت أنا أيضا في مدينة دارون بشمال استراليا . أن سر تأخر هؤلاء السكان الأصليين أنهم لم يصنعوا حضارة واحدة .. أنهم بالفعل يمشون في خطوط مستقيمة حتى يموتوا من الشمس ومن الجوع ولذلك تحرص الدولة على إطعامهم وإيوائهم .. ولم تفلح في تطويرهم . وأكثرهم تطورا يعملون في كنس مطار مدينة دارون ! وهذه الظاهرة لم يهتد أحد من العلماء إلى تفسيرها !

وأمام إصرار البحارة والسادة الذين معه قرر العودة إلى إنجلترا . واستقبله

الشعب الإنجليزي كما لم يستقبل بطلا من قبل . وقرر العودة مرة ثانية ليتأكد بنفسه من القارة الجنوبية ..

وقطع أكثر من ٧٥ ألف ميل ليتأكد أنه لا توجد أية قارة جنوبية . وأعاد كوك رسم الخرائط البحرية . وانهالت عليه النياشين والميداليات الذهبية .. وأصبح أعظم بحار عرفته البحار !

ويقال أن كوك ليس أول من اكتشف أستراليا . فقد أعلن ماركو بولو من قبل أن الصينيين تحدثوا كثيرا عن أرض في الجنوب .. ولكن هناك جزرا كثيرة في الجنوب . ويقال إن الهولنديين وصلوا إلى هذه الأرض .. ويقال الفرنسيون .. ولكن من المؤكد أن كوك هو أول من اكتشفها ودار حولها . وقطع نهائيا بأنها قارة جديدة .. أو جزيرة كبرى ! وأنه لا توجد أرض متصلة مباشرة بالقطب الجنوبي !

أما الرحلة الثالثة فقد اكتشف فيها جزر هاواي . وقد أطلق عليها جزر ساندويتش . وساندويتش هو رجل قد تكفل بالإفناق على رحلته هذه .

ولم يبدأ كوك فقد أراد أن يعرف ما إذا كان هناك طريق في شمال أمريكا يمر بالمناطق الجليدية يربط بين المحيط الهادى والمحيط الأطلسي . ومنعه الجليد من التحقق من ذلك .. فعاد إلى جزر هاواي . وهناك قتل . وعاد رجاله إلى أوروبا ..

وعندما كلفته الجمعية الملكية بالدوران حول الأرض لأول مرة قال له أحد الأعضاء : « أنت تعرف أكثر من غيرك .. أن الذين يسألون هم الذين يعرفون .. وأن الذين يتطلعون هم الذين يكتشفون .. وأن الشجعان هم الذين اهتموا إلى الشواطئ الأخرى .. ولو لم ينتقل آدم من الجنة إلى الأرض ما كانت هذه الحضارة . وأنت يجب أن تعطى المثل الأعلى على فائدة العلم في البحث عن المجهول . والله يباركك ويبارك لك ! » ..

وكان يعلم أن هذا بالضبط هو ما يدور في خياله .. وقد شغله ذلك عن الدنيا كلها . لقد روى كوك في إحدى رحلاته لجماعة من البحارة وهو في وسط المحيط الهادى : لقد كنت أفكر فى أن أتزوج عند عودتى إلى إنجلترا .. ولكن المضحك لىنى متزوج بالفعل . وكنت نسيت ذلك !

لقد تزوج كوك سنة ١٧٦٢ وعاشت زوجته بعد وفاته خمسين عاما . وأنجبت له ستة من الأولاد . ثلاثة ماتوا وهم أطفال .. والثلاثة الآخرون ماتوا فى يوم واحد فى سنة ١٧٩١ . ولأسباب غير معروفة ! وكانت وفاة أبنائه تصديقا لنبوءة قيلت له .

يقول فى مذكراته : قال لى أحد العرافين : « ستضع رجلك على أرض لم يلمسها أحد من قبلك .. ولن يلمسها أحد من أولادك أو أحفادك ! »

وبعدھا اقسیم  
الاینام علی سریرہ!

يسمونه : السيد المحترم — بناء على طلبه ! .

ولكن من الناحية القانونية يجب أن يقولوا له : يا سيادة اللورد .  
واختلف الناس في أمره : هل هو مجنون ؟ . هل هو مجنون أحيانا ، ألكو  
هو عبقرى ! ..

مثلا : إذا انفتح الشباك فجأة وكانت رياح الشتاء تدفع الثلج إلى داخل  
البيت . فما الذى يفعله أى إنسان عاقل ؟ الجواب : أن يقفل النافذة بسرعة ،  
وقبل أن يقفل النافذة يغطى صدره ، وأن يضع على وجهه وكتفيه مزيدا من  
الملابس الثقيلة .. أو يهرب إلى غرفة أخرى .. أو ينادى لبعض الخدم ليقفلوا  
له النافذة .. كل هذا ممكن ، ويبدو معقولا ..

ولكن « السيد المحترم » يفعل شيئا آخر . أنه يخرج إلى الشارع ، وينظر  
إلى أعلى لإحدى الكنائس ويقول : مضبوط .. فعلا .. إتجاه الريح من الشمال  
الغربي إلى الجنوب الشرقي .. وسرعتها حوالى ثلاثين ميلا .. ودرجة الحرارة  
تحت الصفر بأربع درجات ! ..

هذا السيد المحترم اسمه تشارلز واترتون .. من أسرة إنجليزية عريقة  
أجداده قد جاءت أسماءهم فى مسرحية « ريتشارد الثانى » للشاعر الكبير  
شكسبير وهذا شرف عظيم ، وإن كان السيد المحترم لا يرى ذلك ، فقد جاءت  
فى مسرحيات شكسبير أسماء لصوص ومجانين أيضا !

ولكن كل من يعرف هذا الرجل الذى ولد سنة ١٧٨٢ يقول أنه على  
درجة غير عادية من الذكاء ، ودرجة جنونية من الشجاعة ، ولكن من

المستحيل أن يكون مجرما ، إنه فقط يريد أن يعرف ، ولا خوف عليه .  
إنه ينزل الماء في الظلام ليرى إن كانت هناك عفاريت حقا ، ويدخل البيوت  
المهجورة ويتمدد في أحد الأركان .. ثم يخرج ليقول لأهله : ولكن لم أجد  
أرواحا شريرة ! ويسألونه : أين ؟ ويكون جوابه : في البيت المهجور ..

ويغمى على الأب والأم معا !

ولأسباب غير واضحة رفضت الأسرة أن تتحول من الديانة الكاثوليكية  
إلى الديانة البروتستانتية ، وهذه مخاطرة لأن الذي يرفض هذا التحول الكبير  
يدفع ضرائب مضاعفة ، ويدفع تعويضا عن عدم ذهابه إلى الكنيسة ..  
ثم أنه ممنوع من دخول الجامعة ، وممنوع من دخول البرلمان .. ولا يكون  
قاضيا ولذلك قرر الأب أن يبعث بابنه إلى أمريكا .. هناك بعيدا في مستعمرة  
غيانا البريطانية ، فقد كانت الأب مزارع للبن وقصب السكر والقطن  
وبها ألف من العبيد ..

ويقول السيد المحترم في كتابه الذي عنوانه « جولات في كل مكان »  
إنني أفضل أن أدخل النار مع قديس كاثوليكي على أن أدخل اللجنة مع جلالة  
الملك البروتستانتي !

وقبل أن يسافر السيد المحترم إلى أمريكا قالت له أمه : طبعا أنت لست  
في حاجة إلى نصيحة . فقال : بل في حاجة إلى رضاك أكثر . قالت الأم :  
حاول أن تكون نافعا ولا تنس أن كل الناس خلقهم الله .. اللون لا يهم !

وقد كان السيد المحترم عند حسن ظن الأم . فقد كان مجبا لهؤلاء الهنود  
الحمرة .. ولهؤلاء السود . وفي كتابه يقول « إني أستطيع أن أنام عاريا تماما ،  
وأنا آمن على نفسي .. لن يقرب مني أحد .. فكل الناس هنا يعرفون أنني  
صديق الجميع » وأني في صلواتي تمنيت كثيرا أن أكون أسود .. فهذا اللون  
الأبيض يجعلني أخجل من نفسي كثيرا ، مع أنني لست مسئولاً عنه ..

لأنه يجعلني أحس بأنني كاذب .. فإذا قلت لفتاة سوداء إنني أحبك . فإنها تبالغ في قيمة هذه العبارة وفي نفس الوقت لا تصدقني .. وهذا يعذبني كثيرا .. والله وحده يعلم أنني حزنت على فتاة سمراء تمنيت أن أتزوجها ، ولكن الثعابين سبقتنى إليها .. إنني أطلب من الله أن يعطيني العمر لكي أعلم كل هذه الثعابين أن تندم على أنها قتلت الإنسانية الوحيدة التي أحببتها ! » .

ولم يحاول السيد المحترم أن يكون أوروبيا وسط السود أو الملونين ، وإنما قرر أن يكون مثلهم .. سار عارى الصدر حافى القدمين ، واقتحم الغابات على حدود غيانا ، أى على حدود البرازيل . وهي مناطق موبوءة بالملاريا ، وكان من عادته أن يتسلل إلى الغابات أثناء هطول الأمطار .. وكان الرجال وراءه يحملون الزوارق الصغيرة والحبال : وكان من الصعب عليه أن يفرق بين الأنهار والمستنقعات .

وكانت له عادة غريبة .. فإذا علم أن الحاكم البريطاني قد سجن بعض الهنود فإنه يتسلل في الليل إلى السجن ويطلق سراحهم .. بل إن أحد المجرمين قد شجعه على الهرب .. وعندما أعلن الحاكم البريطاني عن مكافأة مالية لمن يعثر على أحد المجرمين حيا أو ميتا ، ذهب السيد المحترم يطالب بنصيبه من المكافأة ..

ولما قال له الحاكم البريطاني : أين هو ؟ ..

قال : في بيتي ..

وسأله : لماذا لم تأت به ؟

أجاب : بل أريدك أن تذهب لتراه .. وتؤكد بنفسك ، قبل أن أشجعه على الهرب ! ..

وكان الحاكم البريطاني هو الآخر مجنوننا ، فما كان منه إلا أن قال :

أيها السيد المحترم إننى معجب بك .. فلنشرب في صحة إحتقارنا للقانون  
الإنجليزى ! ..

وذهب الإثنان ، وركب الحاكم البريطانى على حصان .. والمجرم على  
حصان آخر . وساعد المجرم على أن يركب أحد الزوارق . هربا من الحكم  
البريطانى - أى شجعه على أن يهرب منه !!! ..

أما السيد المحترم فيريد أن يخترق غابات البرازيل ليجمع عينات نادرة  
من الطيور ، ولذلك حمل معه عددا كبيرا من الشباك والأقفاص ، وكان  
يتسلق الأشجار عند الفجر أو عند الغروب ، وقد اختاره الهنود الحمر لها  
لأنه كان أبرع منهم في تسلق الأشجار .

وليست الطيور فقط هى التى دفعته إلى القيام برحلاته المجنونة عريا  
حافيا وإنما كان يبحث عن سم نباتى اسمه : كورارا ، هذا السم كان يستخدمه  
الهنود الحمر في السهام والنبال ، فهم يصنعون هذا السم في مقدمة السهام  
والنبال ، فإذا أطلقوا هذه الأسلحة على أعدائهم قتلتهم .. ولم يعرف السيد  
المحترم أن هذه المادة التى كان يبحث عنها قد أصبحت بعد ذلك من أهم  
عناصر التخدير في الطب ، فلا غنى عنها في كل العمليات الجراحية ، ولا في  
العلاج الكيمايى للمصابين بالهبوط النفسى وانفصام الشخصية وأهم أعراض  
الإصابة بهذا السم : الشلل الحركى .. والتراخى في العضلات .. والحيوان  
الذى يصاب بهذا السم النباتى ، لا يكون ساما !

وكان مما يشغل السيد المحترم أيضا أن يبحث عن « ترياق » أو عن  
شفاء لهذا السم ، وكان يعتقد أن هؤلاء البدائيين هم وحدهم الذين يملكون  
سر هذا السحر ! .

وما يزال عاريا حافيا ، وفي الليل ينام على سرير معلق بين الأشجار ..  
ويجعل فوقه ملاءة حمراء .. لوقايته من ماء المطر ، وفي الصباح يقفز كالقرود  
ويصرخ فينهض الزوج ويبدأ يومه الجديد حافيا عاريا ..

وأسوأ ما فى هذا السيد المحترم أنه كان يتولى علاج نفسه بنفسه ، إذا أصابه الصداع ابتلع بعض الأعشاب المائية . أو وضع أصبعه فى فمه وأفرغ ما فى جوفه ، وإذا أصابته الحمى ، أتى بسكين وأسأل دمه من يده ... منتهى القسوة على نفسه !

وبعد أن جمع عينات كثيرة من الطيور ، وأطلق عليها ما يشاء من الأسماء ، ووصفها بأسلوبه الأدبى الجميل ، قرر أن يبدأ الرحلة المحنونة وفى نفس اللحظة التى اتخذ فيها هذا القرار التاريخى كان نابليون فى أوروبا قد قرر غزو روسيا فى أبريل سنة ١٨١٢ .. أما السيد المحترم فقد خرج من مدينة « جورج تاون » واتجه إلى أعماق الغابات العذراء التى لم تعرف رجلا أبيض بعد ، والسيد المحترم يصف هذه الغابات بألوانها وعطورها وأصواتها ووصفها فى لوحات شاعرية فائقة فهو يسجل على الورق صيحات وبكاء وعويلا وهمسات وزغاريد وفحيحا ، وقطرات الماء وانسيابات المطر ، وأنين الطيور ، ونقيق الضفادع .. وصوت حيوانات تلد ، وحيوانات تنفس لآخر مرة .. انه الموت والحياة ، الرعب والغموض وملايين علامات الإستفهام بعدد الأشجار ، وإصرار إنسانى على أن يعرف مهما كان الثمن .

وفى الغابة اشترى من الهنود الحمر هذا السم .. وكان يضعه فى كرات من الشمع ، ولكى يتأكد من مفعول هذا السم ، اشترى كلبا ، وأصابه بسهم مسموم .. فسقط الكلب بعد لحظات على الأرض .. يعوى .. ثم ينام على جانب واحد .. ويضع رأسه بين رجليه .. ثم يستسلم بلا حركة ! .. ولم يكن الحصول على هذا السم سهلا ..

فالهنود ينظرون إلى السم على أنه أحد الطلاسم ، ولا بد من إقامة الصلوات والدعوات والرقص والطبل أثناء تحضير هذا السم ، والساحر الذى يتولى تحضير السم يجب ألا يقرب امرأة . ولا يأكل فى نفس اليوم ولا يكلمه أحد ، والإناء الذى يصنع فيه السم لا يستخدم بعد ذلك ..

وهذا السم يستحضرونه من نبات اسمه « ستريكيتوس توكسفيرا » ويضيفون إليه الفلفل الهندي وأنياب الثعابين ويسحقونها معا ، ثم يضعونها في ماء يغلي ولا يزال الماء يغلي ويتبخر حتى تنبقي في الإناء مادة كالعجينة .. والسيد المحترم لا يعرف كم أدى من خدمات جليلة إلى صناعة العقاقير عندما وصف استحضار هذه المادة السامة .. فقد استخدمتها أوروبا بعد ذلك وبنفس الطريقة ! .

ومن ملاحظات السيد المحترم أن بعض الذين يشتغلون بتحضير السموم يمرضون .. ويصابون بالنعافة حتى الموت ! ولذلك فالذى يقوم بتحضير السم رجل كبير في السن ، حتى إذا مات لم يكن خسارة كبيرة على القبيلة ! فإذا لم يكن في القبيلة رجل كبير في السن جاءوا برجل مريض ، وإذا لم يكن هناك رجل مريض هاجموا القبائل المعادية وأسروا واحدا وحكموا عليه أن يتولى إعداد السموم حتى الموت !

وعندما وصل السيد المحترم إلى حدود البرازيل ، قرر أن يدخلها نهارا وهنا استوقفه رجال الحدود وكانت التعليمات تمنع دخول الغرباء ولكن التعليمات لا تقول إن كانوا يمنعون الغرباء إذا كانوا مرضى ، وإذا كانوا من الإنجليز .. وكان السيد المحترم مريضا . ومرضه هو الملاريا لثالث مرة . وفي هذه المرة عاجله رجال الحدود وهم من البرتغاليين وكان العلاج مختلفا حديثا ، وشفى السيد المحترم وقرر العودة إلى المستعمرة البريطانية .

وفي طريق العودة رأى شيئا غريبا .. عصفورا صغيرا يعلو فوق الأشجار الصغيرة ، ثم يجتني تحت أوراقها .. ثم يبرز مرة أخرى .. وألقى عليه شبكة .. وفوجئ بأن هذا الشيء الصغير ليس إلا رأس ثعبان اسمه البرجرس ..

وكانت للسيد المحترم طريقة عجيبة في صيد الثعابين .. انه يقرب منها .. وبسرعة ينقض على عنقها .. أي تحت رأسها بقليل ثم يمسكها .. ويرفعها إلى أعلى ويضعها في صندوق .. وقد جمع عددا كبيرا منها ونقلها إلى بريطانيا . أما الثعابين الكبيرة فإنه يلتق بيده ورجله عليها في وقت واحد .. ( وفي هذه

اللحظة أحسست شيئاً ناعماً عند قدمي .. فقفزت .. ولم تكن سوى القطه الصغيرة )  
وفي إحدى المرات رأى ثعباناً من فصيلة البواء طوله ستة أمتار .. وأمسكه  
من عنقه والتف حوله الثعبان يحاول أن يعتصره .. ولكنه لم يستطع .. وسارع  
الرجال من حوله وأطاحوا برأس الثعبان !

ويقال أن أنثى الثعبان المسمى أناكوندا إذا قتل زوجها ، فإنها تظل تبحث  
عن القاتل حتى تنتقم منه .. ولم يصدق السيد المحترم ذلك . وفي إحدى الليالي  
بعد أن قتل ذكر أناكوندا ، أصيب رجاله بفزع ، فهم يعرفون ما سوف  
يحدث .. ومضت ليلة .. وعشر ليال ولم يحدث شيء ولكن الرعب ما يزال  
يسيطر على الرجال .. وبعد أسبوعين اعترف له أحد الرجال بأنه ما يزال  
يتوقع أنثى الأناكوندا بين لحظة وأخرى .. وليس أمامهم إلا أن يتجهوا  
إلى البحر ليركبوا الزوارق ، لأن هذه الحية لا تستطيع أن تسبح في ماء  
المحيط .. وشعر السيد المحترم بالحوث ، منذ رأى إيمان الرجال بذلك وخوفهم  
الواضح .. ولكنه فكر في حيلة .. فقد خلع ملابسه وألقى بها أثناء الليل على  
واحد من رجاله ، ونام عارياً تماماً على سريره المعلق .. وظل ساهراً طول الليل ..  
وعند الفجر أغفى قليلاً ليقفز من سريره على صراخ أحد الرجال .. لقد هجمت  
عليه أنثى الأناكوندا وعضته في ساقه .. وظلت واقفة إلى جواره .. وما هي  
إلا لحظات حتى مات الرجل .

ان هذه الحية قد سارت وراءهم أكثر من عشرين يوماً .. ولم تحاول أن  
تهرب بعد أن تأكدت من وفاته ، وإنما ظلت واقفة على بطنها حتى قتلوها  
كأنها أرادت أن تموت بعد أن انتقمت ، وبسهولة ماتت .. ولاحظوا أن هذه  
الحية بها جروح كثيرة وأنها فقدت عينيها !!

وعندما عاد السيد المحترم إلى أوروبا ، جعل طريقه إلى إيطاليا ، وفي  
روما وجدهم يركبون واجهة كنيسة القديس بطرس ، وأصيب الناس  
بذعر عندما وجدوه يخضع معظم ملابسه .. وحذاءه وجوربه .. ويتسلق واجهة

الكنيسة .. ثم يضع قبعته على علامة اتجاه الريح .. واندھش الناس . وقالوا :  
مخمور ، وصرخ فيهم : لم أذق الخمر في حياتي . قالوا : انزل ..

وبسرعة نزل . وقالوا : ليس من الأدب أن تضع قبعتك .. اصعد !

وصعد فوق الكنيسة كأنه قرد أو ثعبان ، وأتى بالقبعة وارمى ملبسه  
وتساءل الناس من يكون .. وفي الزحام اختفى . واتجه إلى الشاطئ وعاد إلى  
بريطانيا ..

وفجأة اتخذ قرارا : أن يتزوج . وكان في الأربعين من عمره ، تزوج  
فتاة في السابعة عشرة ، وعندما أنجبت له طفله الوحيد ماتت .. وعاش بعدها  
٤٣ عاما ..

وعند وفاة زوجته وقف إلى جوارها يقول : أعدك .. لا زواج بعدك ..  
ولانوم على السرير !

وظل ينام على الأرض ، ويضع رأسه على جذع شجرة مجوفة ، ويتغطى  
بالبطو زوجته . أما حياته فكانت نوعا عجيبا من الزهد : فهو يأكل النباتات  
والثمار ولا يذوق الخمر أو اللحوم ولا يدخن ولا يذهب إلى الكنيسة .

وقبل وفاته بأيام قال لخادمه : المكان الذي تجدني فيه ميتا أرجو أن أدفن  
فيه !

وذهب السيد المحترم يتمشى على شاطئ إحدى البحيرات التي تقع في  
أرضه الواسعة ، وفجأة رأى عصفوراً غريباً لم يره من قبل ، وتسلق إحدى  
الأشجار ، وكان قد اقترب من الثالثة والثمانين من عمره .. وسقط من فوق  
الشجرة .. وتدرج تحتها .. حتى وصل إلى شاطئ البحيرة .. وهناك أقيم  
قبره ، وتنفيذاً لوصيته نقشوا هذه العبارة :

« عشت وحيداً ، وميت أكثر وحدة ! »

الأفندية الأربعة  
والشيخ في باريس!

أستطيع أن أعرف بالضبط هذا الدهول الذى أصاب الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى عندما انتقل من الصعيد إلى باريس . ومن فضل الله عليه أنه رأى الإسكندرية . فقد قيل له أن الإسكندرية تشبه أوروبا : وفيها خواجات وأناس يتكلمون لغات أخرى غير العربية ..

فأنا أيضا انتقلت من المنصورة إلى باريس ولندن قبل أن أشاهد مدينة الإسكندرية .. ولكنى كنت أقل ذهولا من الشيخ الطهطاوى لأننى رأيت مدينة القاهرة وعشت فيها وأعرف عددا من اللغات ولكن الشيخ الطهطاوى أزهرى صعيدى شاءت الصدفة أن تجعله إماما لأربعين طالبا أرسلهم محمد على إلى باريس ، ولم يكن من المفروض أن يتعلم مثلهم ، إنه ذهب ليصلى بهم ويرشدهم إلى دينهم .

فعندما سمع محمد على أن سفينة حربية فرنسية قد رست فى ميناء الإسكندرية خطر له أن يبعث على ظهرها عدداً من الشبان الناهبين فى العلم وكان ذلك سنة ١٨٢٦ وكان رفاعه الطهطاوى فى الخامسة والعشرين من عمره لم تنته دهشته ، ولم يتوقف عن التفكير والتأمل والمقارنة بين ما رأى وبين ما قرأ لاحظ أن الفرنسيين على السفينة فى غاية النظافة . فاندھش ، لقد قرأ أن النظافة من الإيمان . وهؤلاء ليسوا مؤمنين ! ولاحظ أنهم يغسلون السفينة مرات عديدة ، ولاحظ أنهم يغيرون ملابسهم الداخلية مرتين فى الأسبوع ، وفسر ذلك بأن هذه هى الطريقة الوحيدة للقضاء على « الواغش » .

وكتب رفاعه الطهطاوى رحلته إلى فرنسا التى استغرقت خمس سنوات فى

كتاب اسمه « تلخيص الأبريز في تلخيص باريز » ، وفي الكتاب صفحات مسجوعة على طريقة الكتاب في ذلك العصر ، ولكن فيه كثيراً من النور والذكاء والوطنية يقول الطهطاوى بعد أن خرجت سفينته من الإسكندرية إلى عرض البحر : عصفت الرياح وتموج ماء البحر وتلاعبت بذات الألواح تلاعب الأشباح بالأرواح ، فلازم أكثرنا الأرض ، وتوسلنا بالشفيع يوم العرض » .

ومضت سفينة حتى اقتربت من الشواطئ الإيطالية .. وكان ممنوعاً عليهم أن ينزلوا ، فهناك قيود الحجر الصحي ، ولذلك كانوا إذا أرادوا شراء شيء أودعوا الفلوس في علب بها خل حتى لا تنتقل العدوى .  
ومن السفينة رأى فتيات إيطاليات جميلات . وفي ذلك يقول :

أصبو إلى كل ذى جمال      ولست من صبوتى أخاف  
وليس لى من الهوى ارتياب      وإنما شيمتى العفاف

وله شعر آخر متواضع :

قد قلت لما بدا الكاس فى يده      وجوهر الحمر فيها شبه خديه  
حسبى نزاهة طرفى فى محاسنه      ونشوتى من معانى سحر عينيه

وكتاب الشيخ رفاعه الطهطاوى مليء بالملاحظات الدقيقة عن المرأة والرجل وملابس المرأة وعاداتها وخلعتها ، وإعجابه بها ، واحتقاره لتساهل الرجال مع المرأة ، ولكنه لم يغمض عينه عنها .

وقطعت السفينة هذه الرحلة من الإسكندرية إلى مرسيليا فى ٣٣ يوماً

وفى ميناء مرسيليا كان لابد من الحجر الصحي ، ودارت مناقشة على السفينة : هل الحجر الصحي حرام أم حلال ؟

قال بعضهم : حرام .. لأن معناه أن يتدخل الإنسان في إرادة الله ..  
فإذا كان الله أراد أن يموتوا جميعا ، فلماذا يعطلون مشيئة الله .  
ومن رأى الشيخ الطهطاوى أنه ليس حراما !

وفى مرسليليا تلقى الشيخ رفاة الطهطاوى الحضارة الغربية دفعة واجدة  
فهو يروى أن البيوت لها جدران مغطاة بالورق ، وليست مبيضة بالجير .  
ورأى الناس لا يأكلون على الأرض ، وإنما يضعون أمامهم طبلية – أى تربيذة  
– عالية ويجلس كل واحد على مقعد .. وأعجب من ذلك أنهم يأتون بالطبخ  
فى إناء واحد كبير وأمام كل واحد طبق .. وأعجب من هذا كله أن كل واحد  
له شوكة وملعقة وسكينة .. وكل واحد له كوب خاص يشرب فيه ولا يصح  
أن يشرب الإنسان من كوب غيره .. ولا يمكس شيئا بيده وينقله إلى فمه ..  
وإنما بالشوكة والملعقة !

ولا يضعون حلل النحاس المبيضة على الطبلية ، وإنما الحلل يطبخون  
فيها فقط ..

وأعجب من ذلك أنهم ينامون على شئ مرتفع .. سرير أو أى شئ آخر  
ولا ينامون على الأرض !

أما القهاوى « فهى ليست للحرافيش » وإنما هى « لأرباب الحشمة »  
أما الفقراء فيدخلون « المقاهى الصغيرة والمحاشيش » ..

ويلاحظ الشيخ رفاة أن النساء يبعن فى الدكاكين ، أما الرجال فلهم  
أعمال أخرى أهم وأعنف « فالقهوجية إمراة جالسة ، وقدامها دواة وريشة  
وتكتب وتقطع ورقة صغيرة فيها الثمن وتبعثها مع الجرسون . والعادة أن الإنسان  
إذا شرب القهوة أحضروا له السكر » .

وفى اليوم الذى قرر أن يدخل فيه المقهى أحس كأنه فى ميدان واسع  
جداً والناس يذهبون ويحيثون .. واكتشف بعد ذلك أن هذا الذى يراه ليس

ميداناً ، وإنما هي المرايا في كل جوانب المقهى ، فالذى أدهش الشيخ أن  
المرايا الفرنسية تعكس صور الناس كما هي ، وليست كالمرايا في مصر فهي  
تجعل الإنسان بكرش ، أو تجعله أعوج !

أما الميادين في باريس فكثيرة ، وهي تشبه الميادين في القاهرة في الاتساع  
لا في القدارة ! .

شيء آخر ادهش له الشيخ رفاة عندما وجد أشجار النخيل ، فقد  
قرأ في كتاب القزويني المعروف باسم « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات »  
إن النخلة شجرة مباركة عجيبة ، ومن عجائبها أنها لا تنبت إلا في بلاد  
الإسلام ! ..

وكثير من الحقائق الثابتة بدأ الشيخ يشك فيها ، ويصحح معلوماته  
ويلفت الناس جميعاً إلى أن يغيروا من أفكارهم وآرائهم ، ففي فرنسا علوم  
وفنون وفلسفة ، صحيح أن بعض الفرنسيين يرون أن المفكرين أعظم من الأنبياء  
والعباد بالله - ولكن هذا لا يمنع أبداً أن عندهم مفكرين عظاماً من مثل :  
روسو ومونتسكيو . وغيرهما ..

وعندما ينظر إلى نهر السين . يجد أن نهر النيل أوسع ومياهه أعظم ويقول :  
« شتان بين هذا وبين النيل فنطقة الروضة والمقياس أجمل ، ونزهة في الروضة  
لا تقارن بشيء ! » .

والناس في باريس يقرأون الصحف والمجلات والكتب ، كل الناس ،  
ويناقشون في كثير من القضايا الفكرية والنساء أيضاً ، وهم مجاملون بالأقوال  
لا بالأفعال ، وهم بخلاء .

وهم أقل غيرة على نساءهم من العرب .. فالرجل يترك زوجته ترقص  
مع رجل آخر ، بل أنه يعلم أن زوجته قد ذهبت إلى إحدى الحدائق ، وتعرفت

على رجل آخر ، ولا يغضب .. بل إن الأجازات السنوية تسافر فيها الزوجة مع رجل آخر .. والرجل المسافر مع امرأة أخرى .. وكثيرا ما سافرت المرأة بعيدا في الريف بعض الوقت لأنها حامل ، وهناك تلد وتترك طفلها لأسرة أخرى تربيته .

ويذكر الشيخ رفاة أن بعض ملوك فرنسا وانجلترا لهم زوجات فاسدات وعلى الرغم من أنهم على يقين من انحلال الزوجات ، فإن القضاء لم يحكم ضدهم لعدم توافر الأدلة ، فيظل الملك وزوجته منفصلين مدى الحياة !

فالمرأة الفرنسية لا تنقصها الثقافة ولكن تنقصها الأخلاق ، والمثل الفرنسي يقول : إذا رفضتك المرأة ، فليس ذلك دليلا على أخلاقها، وإنما على تجارها .

والناس يعملون ليلا ونهارا ، الكل يعمل ، ولا بد أن الفرنسيين يؤمنون بالمثل القائل : الليل والنهار يعملان فيك ، فاعمل فيما !

ولكن الشيخ رفاة لا يرفع عينيه عن المرأة الفرنسية ، ولا يشجع من النظر إلى ملابسها ووجهها ، فالمرأة الفرنسية عرت صدرها وسترت ساقها ، والمرأة تضع عند صدرها عوداً من الحديد من الحصر إلى العنق ليشد قوامها ..

ومن الغريب أن الناس في باريس لا يخبزون في بيوتهم ، وإنما هناك مجاز . والحيوانات يذبونها بالسكين أو يكسرون رؤوسها أو يخنقونها ، يقول الشيخ رفاة أنه أرسل خادمه ليشتري لحما ، فلما رآهم يذبجون الثيران أصيب بالرعب ، « وجاء يستجير ويحمد الله تعالى حيث أنه لم يجعله ثوراً في بلاد الأفرنج ، وإلا لذاق العذاب كالثيران التي رآها » .

ويقول أنه كان يمشي في الشارع فطارده فرنسي مخمور وقال له : ياتركي أنت تركي ! وتوقف الشيخ رفاة ، ثم صحب الرجل إلى أحد البارات وقال لصاحب البار : بكم تشتري هذا الرجل ؟ ورد عليه صاحب البار : إننا

لا نبيع الناس ونشترها كما تفعلون في بلادكم . وكان رد الشيخ رفاعه : وهو سكران هكذا ليس من الناس !

ثم ترك الرجل وعاد إلى الطريق .. ورأى الناس يستخدمون الباروكة : الرجال والنساء ، ثم لاحظ أنهم في مصر يفعلون ذلك أيضا - ولم يعرف الشيخ رفاعه أن حثشبسوت كانت أول من وضع الباروكة على رأسها وأول من وضعت لحية رجل أيضا ومن ألوف السنين !

وانبره الشيخ رفاعه الطهطاوى لرؤية المسارح وظهور الناس وعرضهم للمواعظ الأخلاقية والأدبية وعندما ينزل الستار كان يقرأ عليه هذه العبارة : التمثيل يصلح أخلاق الناس ! .

وأعجبته الحمامات الشعبية في باريس . فكل إنسان له حمام خاص بينه وبين الحمام المجاور ستار ، فلا يسمح أن يرى الإنسان عورة أخيه ، كما في الحمامات العمومية في مصر .

وتمنى الشيخ رفاعه أن يجد في مصر هذا الاختراع اللطيف .. يقول : أنهم يضعون دناً عظيماً ذا عجالات ، وبمشون العجلة بالخليل ، ولهذا الدن بزاييز ، مصنوعة بالهندسة تدفع الماء بقوة عظيمة وعزم سريع ، فلا تزال العجلات ماشية مفتوحة حتى ترش قطعة عظيمة في نحو ربع ساعة ، لا يمكن رشها بجملة من رجال في أقل من ساعة ، ولهم غير ذلك من الحيل ، فصرنا أولى بهذا لغلبة حرها .

هل عرفت هذا الاختراع ؟ .. انه عربة الرش ! ..

ولما عاد الشيخ رفاعه طبع كتابه هذا مرة أخرى وأضاف إلى ما كتبه عبارة أخرى تقول : قد صار الآن جل ذلك بمصر ! - أى قد تحقق ذلك في مصر .

والتفت الشيخ إلى الشوارع ونظام رصفها . وإلى المزارع وتنسيق أشجارها  
وأزهارها .

وأعجبه الدستور الفرنسي الذى يقول فى أولى موادها : أن الناس جميعا  
متساوون أمام القانون . يقول : المادة الأولى : سائر الفرنسيات مستوون  
قدام الشريعة ، ومعناه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون  
فى إجراء الأحكام المذكورة فى القانون حتى أن الدعوة الشرعية تقام على الملك  
وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر إلى هذه المادة الأولى فإن لها قسطا عظيما  
على إقامة العدل وإسعاف المظلوم وإرضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظراً إلى  
إجراء الأحكام .»

وتحدث الشيخ رفاة عن اللغة الفرنسية ومبادئ النحو والصرف والبلاغة  
وعن الهندسة والجغرافيا .. ثم عرض أسماء الكتب التى درسها ، وما الذى  
استفاده منها .. وحاول - على عادة الأدباء فى ذلك الوقت - أن يتذكر أبيات  
الشعر التى تتناسب مع الموقف ، وهذه الأبيات عموماً لا تناسب الموقف ولا  
ضرورة لها ولكنه أسلوب العصر !

وكان يشرف على هذه البعثة المستشرق الفرنسي جومار ، وهو أحد  
علماء الحملة الفرنسية ، والمستول الأول عن إصدار ذلك الكتاب الموسوعى  
الرائع الذى عنوانه « وصف مصر » وفى هذا الكتاب مسح اجتماعى وإنسانى  
وجغرافى وتاريخى لكل مصر ، من جميع نواحيها وما فيها من إنسان  
وحيوان ونبات وجبال ووديان ومدن وقرى .

ولا ينسى الشيخ رفاة تلك اللوحات الفنية لأنها ( لا تمتاز عن الإنسان إلا  
بعدم النطق ) .

وكان من عادة محمد على أن يبعث إلى أعضاء البعثة برسائل يسألهم  
عن حالهم ، ويعلق على التقارير التى وصلت إليه ، ويبدو أن بعض هذه

التقارير لم تعجبه ، فأرسل إليهم يقول باللغة التركية وهذه هي ترجمة الشيخ  
رفاعة الطهطاوى :

« قدوة الأماثل الكرام ( الأفندية ) في باريس لتحصيل العلوم والفنون  
زيد قدرهم .

« ينهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية والجداول المكتوب فيها  
مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة  
لم يفهم منها ما حصلتموه في هذه المرة وما فهمنا منها شيئاً ، وأنتم في مدينة  
مثل مدينة باريس التي هي منبع العلوم والفنون ، ققياساً على شغلكم في هذه  
المدة عرفنا غيرتكم وتحصيلكم وهذا الأمر نعمنا كثيراً فيا أفندية ما هو مأمولنا  
منكم ، فكان ينبغي بهذا الوقت ، أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئاً من ثمار  
شغله وآثار مهارته فإذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة  
وجتئتم إلى مصر بعد قراءة بعض كتب فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون فإن  
ظنكم باطل فعندنا والله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون كمال العلوم والفنون  
فينبغى للإنسان أن يتبصر في عاقبة أمره ، وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة  
وأن يجنى ثمرة تبعه . فبناء على ذلك أنكم أغفلتم عن اغتنام الفرصة ، وتركتكم  
أنفسكم للسفاهة ، ولم تفكروا في المشقة والعذاب الذى يحصل لكم من ذلك ،  
ولم تجتهدوا في كسب نظرنا وتوجهنا إليكم ، تميزوا بين أمثالكم فإن أردتم  
أن تكتسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل  
للعلوم والفنون ، وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر .  
ويبين زيادة على ذلك درجته في الهندسة والحساب والرسم وما بقى عليه في  
خلاص هذه العلوم ، ويكتب في كل شهر ما تعلمه في هذا الشهر زيادة  
على الشهر السابق ، وإن قصرتم في الاجتهاد والغيرة فاكتبوا لنا سببه وما هو  
عدم إعتنائكم ، أو من تشويشكم وأى تشويش لكم هل هو طبعى أو عارض  
وحاصل الكلام أنكم تكتبون حالتكم كما هي عليه حتى نفهم ما عندكم ،

وهذا مطلوبنا منكم ، فاقرأوا هذا الأمر مجتمعين وافهموا مقصود هذه  
الإرادة ..

« قد كتب هذا الأمر في ديوان مصر في مجلسنا في اسكندرية بمنه تعالى :  
فتى وصلكم أمرنا فاعملوا بموجبه ، وتجنبوا وتحاشوا عن خلافه . انتهت صورة  
المكتوب » .

وأصبح من الواجب على كل طالب بعثة أن يرسل إلى الولى محمد على  
خطابا يشرح فيه العلوم التي حصلها .

ثم يجي المدرسون واحداً واحداً ويعلقون على ذلك ، ولما لاحظ المسيو  
جومار أن بعض المبعوثين قد تكاسل كتب يقول له :

« .. من المعلوم أن هذه الأوراق الشهرية لا تأخذ في كتابتها إلا نصف  
ساعة ، لأن الغرض منها مجرد ضبط عدد الدروس التي قرأتها ومعرفة نوعها  
ولايجب على اجتهادك ، ولا أجهل قدر ثمرة تحصيلك ، فاطلب منك أن تواظب  
على توفية الحقوق التي كلفت بها ، واعلم وتيقن بمحبتى لك .. » .

وفي آخر كتابه « تخلص الأبريز في تلخيص باريز » يقول رفاة الطهطاوى  
عن المرأة الفرنسية : إن وقوع المحبطة - الاختلاط - بالنسبة لعفة النساء  
لا يأتي من كشفهن ( سترهن ) ، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والحسياسة  
والتعود على محبة واحد دون غيره وعدم التشريك في المحبة والإلتئام بين الزوجين  
وقد جرب في بلاد فرنسا أن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات إلى  
المرتبة الوسطى من الناس ، دون نساء الأعيان والرعاع . ففساء هاتين المرتبتين  
عندهم الشبهة كثيراً ، ويتهمن في الغالب » .

وكان رفاة الطهطاوى أول مترجم مصرى .. أو رائد المترجمين ومديراً

لمدرسة الألسن . وقد ترجم موضوعات كثيرة علمية . وأشار إلى فرنسا وإلى الحضارة الغربية . ودعا لها وتحمس وكانت عينه على فرنسا ، وقلبه على مصر .

وإذا كان المؤرخ الإنجليزي الكبير توينبي قد اعتبر المؤرخ الجبرتي أعظم مؤرخ في كل العصور لأنه انبهر بحضارة فرنسا ولكنه لم يرض عن احتلال الفرنسيين لمصر . فإن رفاة الطهطاوى هو أكثر طلبه البعثات نبوغا ونبلا .. فقد بهرته فرنسا بناسها وشوارعها ودستورها وعلمها ولكنه كان يصرخ دائما : في استطاعتنا أن نكون كذلك ، لو تحركت أيدينا في نور عيوننا وعلى هدى عقولنا !

ثم حملوه ...  
على الأكتاف تسعة شهور

على قبره نقشت هذه العبارة التي تدل عليه :

« أمضى ثلاثين عاماً من حياته في تعب لا نهاية له ، لهداية هؤلاء البدائيين ، ولكشف أسرار هذه الغابات والبحيرات وللقضاء على تجارة الرقيق الرهيبة ، في قلب أفريقيا السوداء »

وإنما تدل عليه هذه الحادثة المخيفة . . فقد كان يمشى مهموماً مهدوداً محطماً مع عدد من أبناء أفريقيا الذين يحملون أمتعته عندما ظهر أسد من بعيد . وفكر في الأسد طويلاً . وهو يعرف أنه إذا استطاع أن يقتل ولو أسداً وحداً هربت بقية الأسود . . واقترب وأطلق رصاصتين في وقت واحد . . أصابتا الأسد ولكنه ظل واقفاً . اقترب أكثر . . ورجاله أيضاً . ورفع بندقيته يسدها إلى رأس الأسد وفجأة قفز الأسد عليه . وأسقطه على الأرض .

ويصف هذه اللحظة الطويلة في مذكراته فيقول : « أعرف كيف أسمى هذا الشعور . . هل هو نوع من الحذر . . هل هو نوع من الحلم . . كل ما أعرفه بوضوح . . هو أنني فقدت كل شعور بالألم أو بالخوف . وإن كنت أدري بوضوح جداً كل ما حولي . . فالأسد قد وضع قدمه اليسرى على كفتي . . ورفع رأسه إلى أعلى . . والتف حوله بقية الرجال . وانطلق عيار نارى آخر . . وطاشت سهام ورماح . والآآن أستطيع أن أقول أن الذى حدث لى يشبه ما يحدث للمرضى عندما يعطون المخدر - الكلورفورم - فهم يرون مشرط الطبيب ولكنهم لايشعرون بالعملية الجراحية . إنها إذن عناية الله التي شاءت أن تفقد الحيوانات المسكينة شعورها بأى شئ عندما تقع فريسة

لأسد أو نمر . . لأنها حالة غريبة خلقها الله حتى لا تشعر هذه الضحايا  
بلحظات الموت » .

وبعد لحظات سقط الأسد ميتاً . . أما ذراع هذا الرجل فقد ظلت  
مكسوزة . . وعندما حاول أن يضعها في مكانها بمساعدة هؤلاء الرجال  
لم يفلح فظلت مصدر تعاسته مدى الحياة !

هذا هو الرجل الذي جمع بين الطب والإيمان . وبين الشجاعة  
والاستسلام للتجربة لعله يقدر على كتابتها .

إنه هو الرحالة الإنجليزي دافيد لفنجستون ( ١٨١٣ - ١٨٧٣ ) .  
ولا شيء في بداية حياة هذا الرجل يدل على نهاية هذه الحياة . .  
فهو من أسرة فقيرة جداً . كان أبوه يعمل في أحد محالج القطن . . وهو  
يعمل في دكان بقال . وكان من الضروري أن يتعلم شيئاً ما ، ليصبح قادراً  
على كسب قوته . . لا بد أن يكون رجلاً بسرعة . فالطفولة عند الفقراء  
نوع من الترف . وهو لم يعرف هذا الترف .

وقد أحس في نفسه ميلاً شديداً إلى القراءة . فقرأ كل الكتب التي  
صادفته من كل لون وفي كل موضوع . وفي كثير من الأحيان كان يقرأ  
الكتابين والثلاثة في وقت واحد ، لأنه لا يطيق أن يرى كتاباً دون أن يعرف  
مابه في اللحظة التي يراه فيها .

وكانت أكثر الكتب التي تشغله هي كتب التاريخ والرحلات . وحياة  
الحيوان والنبات . . وعلى الرغم من ذلك اتجه إلى دراسة الدين . . فقد قابله  
أحد القساوسة الألمان وقال له : اسمع يا ولدي إذا أردت أن تسافر فلا بد  
أن تكون قسيساً تبشر بالدين . ومستقبلك في بلاد الصين !

فدرس الدين ليكون قسيساً .

وقابله أحد الأطباء وقال له : إن الفقراء يحتاجون إلى الرغيف والكتاب

المقدس والدواء . . وأنت لاتستطيع أن تطعم كل الناس . . فعالجهم !

ودرس الطب . وفي سنة ١٨٤٠ قرر أن يبدأ عمله ، يقول في مذكراته :  
« إننى أصلح لشيء واحد : أن أنشر الإيمان فى قلوب هؤلاء الوثنيين . .  
أما ماعدا ذلك فأمره سهل . . ولكن أمام هذا الهدف لقد نذرت حياتى » .

ولم يستطع أن يذهب إلى الصين ، فقد كانت حرب الأفيون على أشدها  
فاتجه إلى أفريقيا ، إلى قلبها . وقرر أن يقطع أفريقيا من الغرب إلى الشرق  
ووصل إلى زنبار واستأذن السلطان فى أن يجرب حظه فى وسط أفريقيا  
وأعطاه السلطان خطاب توصية . . واستطاع أول الأمر أن يقطع أفريقيا  
من ساحل إلى ساحل . واقترح بعض الناس عليه أن يعود إلى الدوران حول  
أفريقيا بالبحر ، بدلا من أن يعود فى نفس الطريق الشاق ، ولكنه رفض . .  
فقد وعد هؤلاء الشياليين الذين مشوا وراءه بأن يعيدهم إلى قراهم . وهو  
رجل يحترم كلمته ويرعى الله فى كل ما يفعله ويقوله .

وبعد هذه الرحلة الاستكشافية عاد إلى لندن . واستقبلته الصحف  
والهيئات العلمية بالاحترام وفى ذلك الوقت نشر أول كتبه بعنوان « رحلات  
تبشيرية واكتشافات فى جنوب أفريقيا » .

وكلفته الحكومة البريطانية باكتشاف نهر زامبيزى وأن يكتب لها  
تقريراً إن كان من الممكن استعمار هذه المنطقة . . واستغرقت هذه الرحلة  
خمس سنوات ( ١٨٥٨ - ١٨٦٣ ) . . واكتشف فيها بعض البحيرات الصغيرة  
ولكن هذه الرحلة ضاعفت من تعاسته وضيقه بالحياة . . فقد ماتت زوجته  
وكانت قد صممت على أن ترافقه : قتلها الملاريا . . وأسوأ من ذلك وأقسى  
تجارة الرقيق . وما الذى يلقاه هؤلاء البدائيون من عذاب وهوان . .  
وأقسم أمام الله أن يفضح هذه التجارة الوحشية أمام العالم كله . وعاد إلى  
إنجلترا بعد ذلك ينبه الرأى العالمى إلى هذه التجارة التى هى عار على الإنسان !

وعاد إلى أفريقيا . . ثم عاد إلى إنجلترا وفي آخر رحلاته ذهب إلى الهند . وحصل على عدد من الرجال المدربين وعلى ١٢ شاباً . . واتجه مرة أخرى إلى زنبار . وتحرك إلى أواسط أفريقيا . . وكانت قافلته تتكون من ٣٦ شخصاً وستة من الجمال وأربعة من الحمير وأربع جواميس . وبغلين . . واختار عيد ميلاده ١٩ مارس سنة ١٨٦٦ ليبدأ فيه آخر رحلة له . ويبدو أن حالته المعنوية كانت في قمها .

فكتب في مذكراته : إن الرحلات تجعل الإنسان واثقاً من نفسه . . وتنشط جسمه . . وتشد ساقيه . . وتذيب الشحم . . وتجعل وجهه مشرقاً وبشرته برونزية والذي يعرف الرحلات لا يعرف الإمساك أو سوء الهضم . والإنسان لا يعرف طعم الراحة إلا إذا عرف طعم التعب . .

واتجه إلى الغرب . . الغابات مخيفة موحشة . الأمطار لا تتوقف . . الوحوش لاتهدأ . ولكن أقسى من الوحوش : البعوض والفل وذباب تسي تسي . . وكان يشعل النيران طول الليل لتخويف الوحوش . .

ومضت القافلة بين قبائل لم تتوقف الحروب بينها من مئات السنين . ولكنه استطاع بحكمته وصبره أن يمرق بينها دون أن يصاب بشيء .

وبعد شهرين أضرب الشياولون عن السير معه . . لم يفلح في إقناعهم تركوه ومضى معه أربعة من الرجال فقط . وبدأت متاعبه . فالرجال في غاية القسوة على الحيوانات . والحيوانات تموت في الطريق . فالوحوش هاجمتها . . ولم يستطع حمايتها .

وجاء رأس السنة . . كتب في مذكراته يقول : « اليوم رأس السنة . . ليس عندي ملح ولا سكر . . إنني جائع دائماً . . وأحلم بالخبز . . ولأعرف كيف أنام . . وصور اللحم ورائحة الشواء والأكواب النظيفة أراها أمامي وأنا أمشي على قدمي . . كل شيء حولي له لون الطعام ورائحته . . إنها حالة من الهديان . . » .

وفي يوم ٣٠ يناير من العام الجديد حدثت كارثة . . هرب اثنان من رجاله . . وكان أحدهما يحمل صندوق الأدوية وخصوصاً مادة الكينين الضرورية للحمي . . وأحس لفنجستون أن حكماً بالإعدام قد صدر ضده !

لا طعام ولا دواء . . لراحة . . وإنما إصرار على أن يمضي في طريقه . . لقد قطع أكثر من ٨٠٠ ميل .

وكان إذا تعب من المشي يركب البغل . . وإذا تعب من الركوب حمله رجاله . . واحداً واحداً . واثنين اثنين . . ووصل إلى جنوب بحيرة تنجانيقا رآها . . وركب الجمل . . ونزل في زورق وراح يتحرك في داخل البحيرة . . ثم عاد إلى الشاطئ ، أكثر عجزاً . . وكانت الحمى قد عصرتة وحطمتة . . فظل نائماً في إحدى الخيام ثلاثة أسابيع .

وتحرك من جديد . . أنه يريد أن يعرف من أين ينبع نهر النيل . . لا بد أن يصل إلى ذلك . . وفي طريقه قابله بعض التجار العرب وأفهموه أن الحرب اشتعلت من جديد بين بعض القبائل . . ونصحوه بالتوقف شهراً أو شهرين حتى تجي الأمطار وتحمد نيران القبائل .

وفي بداية عام ١٨٦٩ رأى أحد الشياطين الذين استأجرهم أن أحد النمر يعلق ذيله الدامي . . فصرخ . . ولما سألوه : قال أن هذا يدل على أن أحدا سوف يموت .

ونشأ لفنجستون فقد تحول إلى حطام إنسان . والتهبت رئته اليمنى ثم انه سقط فوق ذراعه اليسرى التي مزقتها الأسد . . فانتعشت أوجاعها . . ولولا أن أحد التجار العرب قد عاجله وأعطاه بعض العقاقير والأعشاب الطيبة لمات في ساعات !

وخطرت له أن يتجه إلى الشمال ثم إلى الشرق بحثاً عن المدينة التي يقال إن موسى عليه السلام قد أقامها في الحبشة .

وأصيب الرحالة الإنجليزي بما يشبه الجنون . كأنه أحس بنهايته قبل أن يحقق المهمة التي جاء من أجلها . . فكان يسأل الناس : قل لي يا حضرة .. ألم تر بحيرة تخرج منها أربعة أنهار في وقت واحد !

وفي هذا الوقت كانت الدوستناريا قد أهلكتها أما قدماء فقد تورموا وأما رثته فإنها توجهه . . ولذلك يسعل دماً طول الوقت . . وعندما أركبوه على حمار سقط . . فحملوه أربعة . . من الرجال . .

ورغم هذا العجز الشديد فإنه كان يكتب مذكراته . . ومن العجب أنه كان يصف الأزهار النادرة وكان يطلب إلى المرافقين الجدد الذين استأجرهم أن يقطعوا الزهور ويقربوها من أنفه ليصف رائحتها ويقارن بين الروائح المختلفة . . وكذلك كان يصف الطيور وحيوانات الغابة .

ويقول في مذكراته : ليس أماًى إلا طريق واحد . . أن أمد يدي إلى هذه القبائل أطلب طعاماً لي ولغيري !

وفي هذه الاثناء جاء محمد حسان — أحد رجاله من العرب — ومن ورائه عبد الحميد . . وقال الأول : يا سيدى . . يا سيدى . . لقد عثرت على رجل أبيض . . إنه يسأل عنك . .

وسأله لفنجستون بالعربية : كيف حاله .

وقال حسان : حاله زين ( بالعربية )

قال لفنجستون بالعربية : أى والله . . أى والله . . كيف حاله يا حسان . . ويصف حسان عدد الرجال الذين معه . . وعدد البغال والحمير والمعونات والأدوات الغربية التي يحملها . . ومنظره وصحته وملابسه . .

وقال له حسان : إن هذا الرجل الأبيض يسأل عنك ويريد أن يراك . .

وفي الصباح التقى الرجلان . . ورأى لفنجستون بوضوح أن هذا الرجل

الأبيض الأمريكي . . فاعلم مرفوع في مقدمة القافلة . . واقرب الرجل  
الأمريكي ليقول :

أظن أنت الدكتور لفنجستون .

فقال : نعم أنا مرحباً بك .

وقال الأمريكي : أنا سعيد لرويتك . . وأرجو أن تتلقى هذه الأنباء  
بسرعة . . فلي الشرف العظيم أن أراك . . وما جئت إلا للبحث عنك .

— عني . .

— نعم . . فقد كلفني صاحب جريدة نيويورك هيرالد أن أعثر عليك  
بأى ثمن !

— آه . . انني أعرفه .

— لقد انشغل العالم كله عليك . . فقد انقطعت أخبارك منذ سبع سنوات

وانتهت الدهشة . . وقدم الرجل الأمريكي نفسه . . إنه من أصل  
إنجليزي ثم تحول إلى الجنسية الأمريكية . . وعمل صحفياً ومراسلاً عسكرياً  
في الشرق والغرب . . وقد كلفته صحيفته بأن يقدم المساعدات المادية والأدوية  
للرحالة الإنجليزي . . والرجلان مختلفان تماماً : لفنجستون رجل طيب  
عني . . والرجل الأمريكي مورتون ستانلي ( ١٨٤١ - ١٩٠٤ ) عنيف  
وفي غاية القسوة فحياته أيضاً قاسية . . فهو ابن غير شرعي . . وقد تركته  
أمه عند أقاربها . . وتكررت له وهرب إلى أمريكا وتبناه أحد الرجال . .  
ثم عاد إلى الجنسية البريطانية . . وأصبح عضواً في مجلس العموم . . ورفض  
الإنجليز أن يدفونوه في مقابر العظماء لأنه أسال الكثير من الدماء في أفريقيا . .  
وقد اشتهر هذا الرجل بلقائه العجيب مع لفنجستون . . ولكن أثره الحقيقي  
هو أنه اكتشف الكونغو . . ثم عمل في خدمة ملك بلجيكا !

ولم يكده لفنجنستون يراه حتى سأله : وما أخبار الدنيا .

فقال له ستانلى : أفضل أن أتركك بعض الوقت لتقرأ رسائل أولادك إليك .. تعلمت الصبر وأستطيع أن أترك هذه الرسائل ساعة أو ساعتين ..

هذه أخبار الدنيا .. إن قناة السويس فتحت .. واتصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر .. ( نحن الآن فى سنة ١٨٧١ ) . والخط الحديدى الأمريكى اكتمل . وجرانت أختير رئيساً لأمريكا .. وامتلاّت مصر بالعلماء والخبراء وانتهت ثورة كريت .. وثورة فى إسبانيا أسقطت الملكة إيزابيلا من عرشها .. وبروسيا قد أحتلت الدنمارك وتحاصر باريس الآن .. أنهت إمبراطورية نابليون تحت ضربات المستشار بسمارك والجنرال فون مولتكه .. وفرنسا الآن تعلق التراب !

وبعد لحظات صمت الرحالة الإنجليزى : عندما رأيت الشياطين يحملون البانيو والملابس النظيفة .. ظننت أول الأمر أنك رجل فرنسى غنى جداً .. وقررت ألا أتصل بك .. فلا شأن لى بك ..

وهنا نهض ستانلى بسرعة وراح ينادى : يا سليم .. يا عبد الرحمن .. هات الزجاجاة .. لقد أعددت شمبانيا لهذه المناسبة .. وأعددت كثوسا من الفضة ..

وشرب الرجلان .. وجاء الطعام الشهى .. والأدوية والملابس والفلوس .. وارتفعت روحه المعنوية ..

ويقول ستانلى فى مذكراته الجميلة الفاتنة : جئت أبحث عن « موضوع » عن سبق صفى .. ولكن وجدت الإنسان أنه ليس فى حاجة إلى أن يقول .. وجهه يقول .. شعره يصرخ .. شفتاه .. عيناه . هذا الهيكل العظمى معناه

الإصرار رغم المرض والجوع والعزلة في قلب القارة السوداء .. وقلب  
الأحراش والمستنقعات ..

حاول ستانلى أن يقنع الرحالة الإنجليزى بالعودة .. ولكنه قال له فى  
الحقيقة : أريد أن أبحث عن هذه الينابيع التى تحدث عنها المؤرخ هيرودوت ..  
لابد أن هذه الينابيع هى التى يخرج منها نهر النيل !

وترك له ستانلى كميات من الطعام تكفى لسنوات .. وأخذ مع مذكرات  
لفنجنستون خطابات إلى أولاده .. وعاد ليكتب قصة الرحالة الغريب الذى  
قابله فى أواسط أفريقيا .. وكانت مقالات ستانلى قنابل عالمية .. ولكن  
الإنجليز شعروا بالحجل من أن رجلا أمريكياً هو الذى أنقذ لفنجنستون ..  
أنقذه من الجوع والمرض والموت ..

وعجز لفنجنستون تماماً عن الحركة .. ولم يفلح العلاج والطعام . إنه  
أحس باقتراب النهاية . اتجه من جديد إلى بحيرة تنجانيقا . ثم اتجه شرقاً  
وشمالاً .. وفى الليل ينهض مفزوعاً إلى الغابة ويسأل الأشجار : ألا تعرفين  
بحيرة تخرج منها أربعة أنهار !  
وكان الرجال يبكون لحاله ..

وفى الليل ، كل ليلة ، يجلسونه راکعاً إلى جوار فراشه ويتحدث إلى الله  
وقد أضاء شمعة .. ويقتربون منه .. وعندما يسمعونه يهمهم يتركونه  
فى صمت .. وفى إحدى المرات وجلسوه راکعاً وقد أسند رأسه إلى  
الفراش ..

ولا ينطق .. ولا يتنفس .. وفى هذه اللحظة سمعوا صوت طائر متوحش  
هذا الطائر يشم رائحة الموتى .. لقد مات لفنجنستون قبل ذلك بساعة  
واحدة !

وبسرعة وقف رجاله صفين وراحوا يبيكون . . وبسرعة غريبة . .  
تقدم واحد منهم إلى ملابس لفنجستون وخلعها . وإلى بطنه وفتحها . وأخرج  
قلبه ودفنه تحت شجرة !

وتقدم رجل ثالث وقام بغسل الجثمان وتحنيطه ثم لفه بالقماش لفاً  
محكماً وأعلن الرجل أنه لا بد أن يعودوا به . . ووافقوا جميعاً . . لا بد أن  
يسلموه للقنصل البريطاني على مدى ١٥٠٠ ميل . . ونقلوا جثمانه على رؤوسهم  
عبر الغابات والمستنقعات والصحارى والقبائل التي تتشائم من جثث الموتى  
والقتلى . . والوحوش التي تشم رائحة الجثث . . حملوا جثمانه تسعة شهور  
حتى وصلوا إلى زنبار . . وقد حاول بعض البيض إقناعهم بدفنه في أي  
مكان . . ولكن الرجال رفضوا !

ونقل جثمانه بعد ذلك إلى لندن . .

. . وكانت أطول جنازة في التاريخ !

ودفن في مقابر العظماء يوم ١٨ أبريل سنة ١٨٧٤ . . وفي جنازته  
كان يمشى أربعة : عبد الحميد وسليم والطاهية حليلة وعبد الرحمن ابن  
غالب !

لقد مات هذا الرحالة ولم يكتشف منبع نهر النيل . . ولكنه كان أول  
من رسم أواسط أفريقيا . . ورسم أنهارها وبحيراتها . . وأقام مراكز  
للتبشير الديني . . وكان أعلى صوت استنكر تجارة الإنسان في الإنسان !

العروس  
التي أحببت القطار  
حتى الموت!

أنه في يوم الأربعاء ١٨ سبتمبر سنة ١٨٣٠ . .

الناس خرجوا من بيوتهم . معهم أطفالهم وطعامهم وشرابهم وأغطية  
كثيفة . وكلابهم وخبولهم وأغنامهم . ومعهم بعض الكتب . . وأكثرهم  
يحمل نسخة من الكتاب المقدس . أى يوم هذا ؟ رجال الدين يقولون :  
لأنه من المتوقع أن تقوم القيامة في الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق . .  
وقيل : وست دقائق . . أكثر الناس سعادة . . الأطفال والفتيات . .  
وأكثرهم تعاسة الأمهات ورجال الدين .

وقد تراحم بعضهم إلى جوار بعض . . إلى مدى ثمانية كيلو مترات  
من مدينة ليفربول ، وقفوا وجلسوا على جانبي الشريط الحديدى . .  
وتكدسوا عند النفق الذى يفضى إلى المدينة ، فهنا عند النفق سوف يرون  
معجزة العصر الحديث كله . . بل معجزة العصور كلها . . ومن حق كل  
إنجليزى أن يرفع رأسه إلى أى ارتفاع ، وإذا شك أحد في ذلك ، تكاثر  
عليه الناس واتهموه بأنه فرنسى أو أمريكى أو ألمانى على أسوأ الفروض !

الساعة السابعة . . الثامنة . . التاسعة والنصف . . لم يظهر شىء من بعيد ،  
وأخيراً ظهرت عربة . . لها عجلات من حديد . . يدفعها الناس أمامهم . .  
ومن الغريب أنها بسهولة تندفع على الشريط الحديدى . . هذا معروف ،  
قد رآه الناس كثيراً ، بل إنهم رأوا العربات تجرها الخيول فوق القضبان أيضاً

وفجأة صرخت الجماهير . . وارتعد الأطفال ، وتراجعت الأمهات . .  
لقد حدث انفجار وصفير وضجيج ودخان وضوضاء حديدية . . لقد  
تحركت « القاطرة » ، هذا هو اليوم الذى انتظره الجميع من سنوات ،  
قاطرة تجر وراءها عربات ، وفى العربات اناس وبضائع . . وفى الطريق  
من مدينة ليفربول إلى مانشستر ، اليوم افتتاح أول خط حديدى فى العالم . .

والموسيقى راحت تعزف نشيد « جاء البطل المنتصر جاء . . » أما البطل  
المنتصر فهو دوق ولنجتون الذى هزم نابليون فى معركة واترلو ، فقد كان  
موجودا فى ذلك الوقت باعتباره رئيسا للوزراء . . وإن كانت الجماهير  
تفضل أن تنظر إليه باعتباره بطلا من أبطال الحرب . .

وظهرت القاطرة الأولى على قضبان خاصة . . تجر وراءها ثلاث  
عربات . . العربة الأولى لها ثمانى عجلات ، وفيها فرقة الموسيقى العسكرية ،  
والثانية ركبها ولنجتون والوزراء وأعضاء مجلس العموم واللوردات والعربة  
الثالثة ركبها مدير السكك الحديدية الجديد وكبار المهندسين . . أما القاطرات  
الأخرى وعددهن ست ، وكل واحدة لها لون ولها اسم : الأولى اسمها  
العنقاء ولونها أخضر . . والثانية اسمها : نجمة الشمال ولونها أصفر . . الثالثة  
اسمها : القديفة ولونها أحمر . . والرابعة اسمها : الشهاب . . ولونها أزرق . .  
والخامسة اسمها : السهم ولونها وردي . . والسادسة اسمها : النيزك ولونها  
بنى . .

وقد أعلنت القاطرة الأولى قدومها بانفجارات عنيفة . . ودخان  
وغليان . . وكان الجو باردا ، ولكن الناس على الجانبين قد نسوا البرد  
والعواصف التى هبت على غير العادة فى هذا الوقت من العام .

وبلغ عدد الركاب فى هذا اليوم ٧٧٢ راكبا ، كلهم يحسدون أنفسهم  
على هذا الحظ السعيد . . تصوروا أنهم أول من ركب قطارا فى التاريخ  
وبسرعة « ضوئية . . أقرب إلى سرعة البرق الخاطف » . . لقد كانت

سرعة القاطرة حوالى ١٥ كيلو مترا فى الساعة . ( خمسة عشر كيلو مترا فى الساعة ) .

أما القاطرة التى ركبها ولنجتون فكانت لها مهمة خاصة .. لقد تجمع المهندسون يعرضون على البطل الكبير كيف أن القاطرة تتحرك وتقف .. وتسرع وتبطى\* .. وكيف استطاع الإنسان بعبقريته أن يتحكم فى الحديد والنار وكيف استطاع أن يحول البخار إلى حيوان ذليل ذلول .. يلمسه فيقف .. ويضغط عليه فينطلق .. إن الإنسان قد دخل عصرأ جديداً .

وترددت عبارات : إن الإنسان سيد هذا الكون .. قد لان الحديد .. واحتبس البخار .. والتقى الماء والنار من أجل خدمة الإنسان والإنسانية ! وكان صوت القاطرة أعلى من صراخ الناس .. ومضت القاطرة .. ووراءها قاطرة أخرى .. وخمس قاطرات أخريات وفجأة توقفت القاطرات وهبط المهندسون وأعلن واحد أن القاطرات فى حاجة إلى مزيد من الماء ، فالبخار يتعالى ، ودرجة الحرارة شديدة . والناس يتصبون عرقاً ، ثم إنهم إذا أخرجوا مناديلهم من جيوبهم ومسحوا وجوههم ، فهذا السواد الذى يرونه هو هباب الفحم طبعاً ، ويضحكون ولكن الحزن باد على وجه أحد المهندسين وهو يقول : أعرف ذلك .. ولكن سوف نجد طريقة للتخلص من هذا الفحم .. سوف نجد طريقة !

ومن الغريب أن أحداً لم يسجل هذه الرحلة الفريدة فى التاريخ لا أحد ! فكل دفاتر شركة السكك الحديدية تسجل أرقاماً ، وأسماء بعض المشاهير ولكن كيف حدث ما حدث ، ماذا قال الناس .. كيف هزمهم الحديد والنار .. لاشئ\* من ذلك فى كتب التاريخ .

ولكن فتاة فى العشرين من عمرها هى التى احتفظت لنا بوثيقة نادرة تصف فيها ذلك اليوم ، الفتاة اسمها نانى كبل ، كانت ضمن السعداء الذين ركبوا قطار دوق ولنجتون ، وأرسلت خطابات طويلة إلى إحدى صديقاتها .

تقول فى إحدى رسائلها : عزيزتى . . أنت تعرفين سعادتى وأنا أظهر على المسرح لأول مرة . . فى دور جوليت . . طبعاً تذكرين . . أن سعادتى هذه يمكن تسجيلها فى ورقة واحدة . . ولكن هذا الشئ ' المذهل الذى حدث لا يمكن وصفه فى مئات الأوراق . . شئ ' يحتاج إلى موسيقى . . وإلى شعر . . لقد فقدت إحساسى بكل شئ ' . . كنت فى نشوة . . لم أشعر بأن لى جسماً ولا وزناً . . اننى أطيّر . . ما هذا العصر الذى نحن فيه . . ما الذى يريد أن يصنعه الإنسان . . إن الإنسان استطاع أن ينطلق بهذه السرعة المخبونة . . بهذه السرعة يشق طريقه بين صواعق التصفيق والصرخ . .

وتقول فى كبل أيضاً : هذه المرة من أى شئ ' أحدثك . . أود أن أعيد ما قلته لك من قبل . . فإننى لا أتعب من تكراره . . إنه لا ينسى . . هل تعرفين كيف بدأت هذه المعجزة . . أن صاحبها رجل متواضع ، كان يعمل فى المناجم ، ولكن له قدرة نادرة على فك الساعة وتركيبها ، وفى وقت فراغه كان يصنع الأخذية لنفسه . . إن لديه هذه القدرة الخارقة على تركيب الأشياء وإبداعها . . هذا الرجل الذى اخترع القاطرة اسمه جورج ستيفنسون . أنه فى الخامسة والخمسين من عمره — لقد كانت سنة فى ذلك الوقت ٤٩ سنة . .

ومضت الفتاة تروى قصته . . وكيف أنه ذهب إلى مجلس العموم البريطانى وعرض عليهم اختراعه ، وكيف أنه سيصنع قاطرة تمشى على عجلات ، هذه القاطرة تنقل الناس والبضائع وكيف يأمل أن يجعلها « تطير » بسرعة عشرين كيلو متراً أو خمسة وعشرين كيلو متراً فى الساعة . . ولم ينظر هذا المهندس إلى وجوه أعضاء مجلس العموم ، فقد تغيرت ألوانها ، أما أعناقهم فدارت يمينا وشمالا ، وتهاوسوا وقال واحد : إنه مجنون ، وقال ثان : هذا هو السحر الأسود . . وقال أكثرهم طيبة ورقة : دعوا الرجل فى حاله إنه جنون الفقراء . .

ولكن هذا المهندس الواصل من نفسه اتجه إلى إحدى الشركات ، وعرض عليهم مشروعه . فكروا . دبروا . اتفقوا . أعطوه المال فاندفع أسرع من القاطرة يفكر ويصمم وينفذ ، ويضع القضبان الحديدية على الأرض . . استعدادا لهذا اليوم .

تقول الفتاة : لقد أحببت هذا الرجل إنه نحيف ، شاحب ، له طريقة غريبة في الكلام ، ولكنه مهذب ، وهو غارق في أفكاره ، مهموم كأنه يحمل القطارات والعربات والركاب كلهم فوق كتفيه ويريد أن يسبق القطار !

ونعود إلى ذلك اليوم ، تقول الفتاة العاشقة الولهانة : في ذلك اليوم وزعوا علينا بطاقات ، يقولون فيها : يجب ألا يبرح أى إنسان مقعده ، مهما كانت الأسباب حرصا على سلامة الجميع ، وكانت أمى فى قاطرة أخرى . وقررت أن أذهب إليها وآتى بها إلى جوارى لتشاركنى سعادتى . . وكانت صدمة عنيفة لقد كادت أمى تموت من الخوف ، وفى هذه الأثناء ظهر رجل يمسك بوقا فى فمه ويصرخ أوقفوا القاطرة . . أوقفوا القاطرة . . إن شخصا قد جرح ! . . :

والذى حدث أن القطار عندما توقف فى إحدى المحطات ليتزود بالماء ، نزل بعض الكبراء يتمشون قليلا . . أو يتحدثون عن هذه المعجزة ، ويبدو أن الحديث قد استغرقهم فلم يلاحظوا وسط هذه الضوضاء العنيفة . . أن قطارا آخر قد جاء وراءهم ، ولم يكن من السهل فرملة القطار ، فسقط واحد منهم تحت العجلات ، وانكسرت ساقه اليمنى ، وحاولوا إنقاذه ، وبصعوبة أنقذوه . . ووضعوا ساقه إلى جواره ، أما الرجل فهو واحد من رجال الاقتصاد الإنجليز وعضو مجلس العموم . وصاحب مشروعات تجارية وإنسانية كثيرة واسمه هسكنسون ، ومن المضحك أن هذا الرجل

لم يدخل التاريخ على أنه خديم بلاده ، ولكن على أنه أول ضحايا القطارات  
في التاريخ !

وحاول الجميع إنقاذ الرجل . . ولكنه كان يصرخ . . ويقول : لقد مت  
فليرحمني الله !

وصرخ الناس ، ونزلوا من القطار ولكن القطارات الأخرى مضت  
في طريقها فلا أحد قد أدرك ما حدث ، لا سمع ولا رأى . . إنه يوم من  
أيام القيامة . . أو هي القيامة نفسها . . كل إنسان مشغول بأفكاره ، وبما سوف  
يقوله لأهله وأصحابه كيف ركب ، وكيف اهتز ، وكيف أمسك قبعته حتى  
لا تطير من شدة الاندفاع !

وتوقف القطار نهائيا . .

ونودى على المخترع وعلى أصحاب الشركة وقيل لهم إن رئيس الوزراء  
يريدهم فوراً ، وانجهوا إلى البطل ولنجتون ، فقال لهم : هذه الرحلة يجب  
إلغاؤها فوراً ، ولا داعي لهذه الهيصمة !

ولأول مرة يجد ولنجتون معارضة حقيقية . . قال واحد منهم : ولكن  
هذا مستحيل لقد دفعنا ألوف الجنيهات من أجل هذا المشروع . . ثم إن هذا  
الحادث الأليم ليس سببا كافيا في القضاء على هذا المشروع الإنساني ؟

وقال ثان : إننا أخذنا أجور كل هؤلاء الركاب ، وليس من العدل  
أن نفسد عليهم هذه المتعة . .

وقال ثالث : إن هناك مئات من الناس على جانبي الطريق ينتظرون  
منذ يومين . . وليس من حقنا أن نخدعهم ، ولا من الواجب علينا أن  
نضلل الناس ؟

وكان على رئيس الوزراء أن يركب القطار أو ينزل ويكمل الطريق  
في عربة تجرها الخيول ؟

وتقدمت سيده عجزوز تقول لدوق ولنجتون : ولكن ياسيدى الدوق  
أن كثيرين ماتوا وهم يركبون العربات التى تجرها الخيول ، فلم يصدر قرار  
فى أى عصر من العصور بإلغاء العربات وقتل الخيول !

وتقدم رجل يقول لدوق ولنجتون : ياسيدى الدوق . . لم أكن أعرف  
أن مقتل إنسان يهز جنديا مثلك رأى الألو ف يموتون فى الحرب ضد الألمان !  
وانطلق القطار . . وتعال الصيحات من جديد عند مدخل مدينة  
مانشستر . . ألو ف الناس على الجانبين .

ولكن شيئاً من الوجوم والصمت يسود الجميع . . وتوقفت القاطرات . .  
ونفض الناس على الجانبين فى صمت . . وأفسحوا الطريق لعدد من العمال  
كبار السن . . إنهم يمسكون المغازل . . وشعرهم منكوش . . ووجوههم  
شاحبة . . وملابسهم ممزقة . . ويعترضون القاطرات . . ما الذى يريدون  
أن يقولوه ؟ . . إنها مظاهرة احتجاج على اختراع الآلة البخارية ، التى  
سوف تؤدى إلى تعطيل الأيدى العاملة . . وتجويج ألو ف العمال .

وإذا عدنا إلى سجلات الشركة نجد أن عدد الذين ركبوا هذه القاطرات  
فى الأسبوع الأول بلغ عددهم ستة آلاف نسمة . . أى بمعدل ٧٦٣ راكبا  
فى اليوم . . وتقاضت الشركة عن هؤلاء الركاب مبلغ ٢٠٤٣ جنيها و ١١  
شلنا !

وكانت هناك آراء غريبة ؟ !

كتب طيب فى ذلك الوقت أنه ينصح السيدات الحوامل فى الشهر  
الثانى والثالث ألا يركبن القطار !

ونشر أحد رجال الدين بحثا يقول فيه : إن هذا القطار ضد الدين . .  
الناس قد أصابهم الغرور . . لأن القطار لم يرد فى الكتاب المقدس ومعنى  
ذلك أن الإنسان يعرف أكثر مما يعرفه الأنبياء !

وطالب القس : بالقضاء على هذه الخرافة التي تحطم العلاقة الإنسانية  
والصلوات الروحية بين المؤمنين !

أما العاشقة بنت العشرين عاما فكتبت لصديقتها تقول : كل أملى في الدنيا  
أن أتزوج شابا أحبه . . وأن نركب معا القطار ، في أول يوم من أيام شهر  
العسل . . وأموت بعد ذلك !

وتحقت أمنيتها . . ركبت القطار هي وعريسها . . وكان مخمورا . .  
وكانت هي في غاية النشوة ، وسقط العريس تحت عجلات القطار . .  
فلما حاولت إنقاذه سقطت هي أيضا تحت القطار . . وكان الاثنان معا أول  
عروسين داسهما قطار في التاريخ !

يَكْسِبُ فِي النِّهَايَةِ  
مَهْرًا عِنْدَهُ أَوْ رَوْحًا!

فى يوم ١١ يناير سنة ١٩٠٧ نشرت صحيفة « الصباح » الفرنسية فى صفحتها الأولى هذه العناوين . . مادامت هناك سيارة فالإنسان قادر على كل شىء . . لم تعد الصعوبات الجغرافية مشكلة . . أنها فرصة نادرة أمام الجميع لإثبات عبقرية الإنسان !

إن عبقرية الإنسان هذه مطلوب تأكيدها فى سباق دولى للسيارات من مدينة باريس إلى مدينة بكين . والسباق مفتوح للجميع . وستتولى هذه الصحيفة الإشراف - والدعوة والدعاية لهذه الرحلة الرهيبية . .

وكان كل من يريد الاشتراك أن يدفع ٤٠٠ جنيه . . أما تكاليف الرحلة للسيارة الواحدة فتصل إلى عشرين ألفا من الجنيهات . وقد أعلنت شركات عالمية رغبتها فى الاشتراك . وكان أول المشتركين نبيل إيطالى اسمه الأمير بورجيزة . . وكانت سيارته قوتها أربعة سلندرات . أما الأمير فهو رجل شجاع . واستطاع عن طريق علاقاته الدبلوماسية الكثيرة أن يدير لنفسه كل وسائل الراحة والوقود على طول الطريق . . وقد رافقه فى هذه الرحلة ميكانيكى . وحمل الأمير عددا من قطع الغيار الضرورية .

ومن فرنسا اشترك المركز دى ديون ، وهو صاحب شركة لإنتاج السيارات وقد اشترك بسيارتين ولكل منهما سلندران . وكان يرافقه اثنان لإصلاح السيارتين إذا ما حدث أى خلل .

واشترك رجل ثالث اسمه كونتال بسيارة لها ثلاث عجلات . ورافقه سائق وميكانيكى . .

وأخيراً اشترك رجل مهرج خفيف الدم اسمه شارل جودار . وكان قبل ذلك يعمل فى سباق الخيل . وهو مغامر أفاق مفلس . وقد طلب من أحد أصحاب شركات السيارات الهولندية أن يعاونه على دخول السباق . وأعطوه سيارة هولندية . وملاًها بقطع الغيار والإطارات الجلدية . ورافقه ميكانيكى . .

أى أن هناك خمس سيارات على استعداد لأن تقطع المسافة من فرنسا إلى الصين — مهما طال الوقت . ومهما تكبدوا من متاعب أو خسائر .

وقبل أن يبدأ السباق اعترضت الحكومة الصينية على دخول هؤلاء « الشياطين الأجانب » الحدود الصينية . . ونشرت الصحيفة الفرنسية أن هؤلاء الشياطين مصرون على السباق ، مهما كلفهم ذلك . . ورغم أنف الامبراطور الصينى !

ووافقت الحكومة الصينية . .

وبسبب رداءة الجو ، تقرر أن تبدأ الرحلة من الصين فى اتجاه فرنسا . .  
وشحنت السيارات إلى الصين . .

وتحدد موعد السباق يوم ١٠ يونيو . . وكان على هذه السيارات أن تقطع ١٥ ألف كيلومتر ، أو هذه الكيلومترات هى التى تقطعها !

وأقيمت حفلة ضخمة لهؤلاء الشياطين الأجانب . ودار رجال الدين حولهم وحول سياراتهم . وتعلقت أغصان الأشجار والورود . فى السيارات وملاً كل واحد منهم جيوبه بجبات الأرز على سبيل البركة . ولكن أحد الدبلوماسيين همس فى أذن الأمير الايطالى وأعطاه تمثالاً « نادراً » لبوذا . وطلب إليه أن يضعه فى جيبه . وقيل له أن هذا وحده الذى سوف يساعده حتى النصر . .

أما المهرج جودار فقد ارتدى ملابس صينية كاملة . وحلق رأسه بالموسى — وارتدى قبقاباً خشبياً وجوربا أحمر . . واقتربت منه سيدة

وقطعت جزءا من ملابسه ثم أحرقته أمامه . . وقالت : لقد أحرقت الشياطين  
التي تعلقت بملابسك . اذهب . . على بركة الآلهة !

وبعد توديع الشياطين الأجانب ، أخذت السيارات تخوض طريقها  
وسط الناس في اتجاه أبواب مدينة بكين . ومن ورائهم الجماهير . وأمامهم  
عدد من الرسميين على ظهور الخيول . وقبل أن يبدأوا السباق اتفقوا على أن  
يتعاونوا في الطريق حتى لا يقتل أحد . أو لا يسقط سائق بسبب المرض . .  
وكان الأمير الإيطالي أسبقهم إلى خارج المدينة . وبعد ساعات تلفت وراءه  
فلم يجد زملاءه . وثار . ولكن المهرج جودار أصر على أن يعود إليهم .  
فقد خرجوا من أبواب أخرى وضلوا الطريق . ولحق بهم ثم أعادهم إلى  
الطريق الصحيح .

وكانت السيارة ذات الثلاث عجلات هي التي ضربت رقما قياسيا في عدم  
تحمل الطرق المتعرجة المليئة بالأحوال .. فانكسرت عجلتها الثالثة . وانتهى  
السباق بالنسبة لها ..

وكان على المتسابقين أن يمشوا في طريقهم . فقد سبقهم الأمير الذي  
أعلن : أن هناك حدودا للرحمة الإنسانية . وليس من المعقول أن يبكي الواحد  
منا لغيره .. انها معركة والطريق طويل والصعوبات لا حدود لها ..

وكان على الأمير أن يجتاز أول عقبة : كوبرى من الرخام .. الكوبرى  
أعلى من الطريق بنصف متر . وكان على الأمير أن يرفع سيارته إلى ارتفاع  
الكوبرى . ونزل واشترى كتلا خشبية . ووضعها تحت عجلات السيارة .  
وارتفعت فوقها . وسارت على الكوبرى . ثم عاد فنقل الأخشاب إلى الجانب  
الآخر . ونزلت السيارة واستأنفت سيرها ..

وقرر الأمير الإيطالي أن يتوقف في مدينة نانكوف على مسافة أربعين  
ميلا من بكين . أما السيارات الأخرى فقد توقفت في الطريق وقررت المبيت

على أن تستأنف رحلتها في اليوم التالي . ولم يعرفوا إلا في اليوم التالي أنهم توقفوا على مدى ميل واحد من مدينة نانكوف .

ومضى الأمير متجها نحو حدود منغوليا .. والطريق مليء بالجبال والوديان والطرق الضيقة التي تمشي فيها الجمال . واستعان الأمير بعدد من الشياطين يدفعون عربته إلى أعلى .. ويمسكونها بالجبال إذا نزلت أحد الطرق اللولبية الضيقة .. وفي كثير من الأحيان كانوا يتركون الأمير وحده ، ويجلسون يتعاطون الأفيون وكان على الأمير أن ينتظر .

وبعد أن عبرت السيارات بصعوبة لا حد لها بعض السلاسل الجبلية ، استراح الأمير في أحد الفنادق . الفندق بدأنى قذر . ولكن الناس مهذبون . وفي غاية الرقة والمرح . وعلى استعداد دائم لأن يساعدوا هؤلاء الشياطين الأجانب !

وعاود الأمير رحلته .. واقترب من حائط الصين العظيم .. ونفذ منه .. وانفتحت أمامه الأراضي الصينية الشاسعة والواسعة .. ملايين من حقول الأرز .. والمستنقعات والطرق الضيقة والأحوال والأمطار والرعد والبرق .. ولم تتوقف سيارته .. واستطاع أن يصل إلى حدود سيبيريا وهناك التقى بموظفي البنك الروسي الصيني . واحتفلوا به . وأمضى وقتا سعيدا . وفي الصباح المبكر انطلق بسيارته ودون حاجة إلى شياطين ..

لقد مضت على الرحلة سبعة أيام ، قطع فيها ٢٠٠ كيلو متر .. وما يزال أمامه ١٣٠٠ كيلو متر .. وعليه أن يجتاز منغوليا وصحراء جوبي . وهذا هو الجانب الخطير من الطريق .. فالنهار ملتهب والليل جليد . وعلى الرغم من وجود محطات تلغرافية في الطريق وهذه المحطات قد زودت بوقود للسيارات وطعام للمتسابقين ، فإن هناك مئات الكيلومترات من الطرق العارية التي خلت تماما من الإنسان والحيوان . فإذا توقفت السيارة ، توقفت الحياة أيضا . ولذلك فعلى السيارات جميعها أن تحمل وقودها وطعامها وقطع غيارها . وعلى السيارات أيضا أن تلقى بكل ما ليس ضروريا . وأن تكتفى بالقليل النافع من كل شيء ..

وراحت السيارات تلتق بأحماها من الطعام والمشروبات والملابس . بل إن المهرج جودار قد ألقى بصندوق من الشمبانيا .

وتعطلت السيارات كلها فى الطريق . فاستأجروا الخيول لجرها يومين . ثم راحوا يدفعون هم هذه السيارات يوما كاملا . ورفضت القبائل البدوية معاونتهم لأسباب غير معروفة . وعلى الرغم من أن المهرج جودار حاول أن يكون ظريفا مع طفلة صغيرة . وحاول أن يضعها على سيارته على سبيل المداعبة .. ولكن القبائل لم تهتز لما حدث ولا فرحوا بالمداعبة بل انزعجوا لأنه أخذ منهم الطفلة . بل تركوه يجرى وراءهم ليعطيهم طفلتهم ..

وأصلحت السيارات واستأنفت السباق ..

وكان الأمير الإيطالى فى المقدمة ..

وكان المهرج جودار وسائق السيارة الهولندية وراءه .. أما الفرنسيون فكانوا فى المؤخرة .

وعلى الرغم من أن المسافة التى تفصلهم عن حدود سيبيريا الجنوبية حوالى ٣٠٠ كيلو متر .. فإن السيارات بدأت تلهث .. ورغم البرودة الهائلة للجو فإن السيارات تغلى وتنفث وتهاك على جانبي الطريق ..

أما سيارة الأمير فقد غاصت فى الرمال الناعمة . واستأجر عددا من الخيول سحبت السيارة عبر الرمال والمستنقعات . ثم عادت فغاصت فى الرمال الناعمة . وراحت تدور حول نفسها ولا تتحرك . وجاء الفلاحون ومعهم الثيران . وسحبوا السيارة . وقرر الأمير أن يفك السيارة تماما . وأن يخلع عجلاتها . وأن يرفع موتورها وأن ينقلها إلى الأرض الجافة قطعة قطعة .. ثم يعيد تركيبها . ويعاود استكمال السباق ..

ووصل الأمير بورجيزة إلى مدينة على حدود الصين وروسيا القيصرية

وهناك استراح وأكل وشرب ونام . وحمل معه أكثر من خمسين لترا من الوقود .

ثم اتجه بسيارته إلى بحيرة بايكال ..

ووجد من المستحيل أن يعبر البحيرة بزورق يحمل هذه السيارة ولذلك قرر أن يدور حول البحيرة وكان عليه أن يعبر بسيارته أحد الجسور القائمة على نهر صغير ونزل من السيارة يختبر الجسر . وأدرك أن الجسر لن يقوى على حمل السيارة . وقيل له إنه في الإمكان إصلاح هذا الجسر بعد أسبوع .

وفكر الأمير . ثم بعث برسالة إلى الحاكم العام يستأذنه في أن يربط سيارته بأحد القطارات فوافق الحاكم العام . وارتبطت السيارة بالقطار الذي يمشى بسرعة عشرة كيلو مترات في الساعة . وكان الطريق صعبا . وكان القطار يهز السيارة ويحطم ويفكك كل مساميرها ثم قرر الأمير أن ينفصل عن القطار ليلحق به في مكان آخر .

وكان لابد أن يعبر جسرا على نهر . ونزل ليرى الجسر فوجد أنه ليس أحسن حالا من الجسور السابقة . واتجه بسيارته إلى الجسر . وعندما أصبح في منتصف الجسر تداعت أعمدته الخشبية . وسقطت السيارة في النهر . ولحسن الحظ سقطت على الإطارات الإحتياطية . فلم تهشم .. أما الميكانيكى فقد أصيب بكدمات . ولكن الأمير لم يصب بسوء . وسحبوا السيارة وأعادوا ربطها وضبطها . وبعد خمس ساعات استأنفوا الرحلة ..

أما الآخرون فقد واجهتهم نفس المصاعب . وإن كان الأمير قد ترك لهم رسالة ينصحهم أن يبحثوا عن وسيلة أخرى لعبور البحيرة . ولكنهم لم يجدوا زورقا أو سفينة تنقل سياراتهم . ولذلك سلكوا نفس الطريق .. وإن كانوا قد شحنوا سياراتهم في القطار . وعندما وصلوا إلى مدينة أركنسك يوم ٣ يوليو ، كان الأمير قد غادرها في صباح ذلك اليوم .

ولاحظ المهرج جودار أن الزيت يتسرب من سيارته . فشحنها في القطار إلى مدينة بعيدة وأصلحها هناك . وعاد بالقطار إلى نفس النقطة التي توقف عندها واستأنف الرحلة وسبقه الفرنسيون . وجاء مهندس ميكانيكى هولندى ومعه قطع غيار جديدة . فأصلح السيارة . وانطلق جودار من جديد . أما الفرنسيون فقد عبروا جبال الأورال واخترقوا المراعى المحترقة . وعلى الحدود الفاصلة بين أوروبا وآسيا توقفوا وشربوا الشمبانيا إبتهاجا بهذا النصر . وقررروا أن يناموا في أحد الفنادق حتى الصباح وفي ساعة مبكرة صحوا على ضوء غريبة .. فقفزوا من الفراش . وأطلوا من البلكونة .. لقد وجدوا المهرج جودار قد لحقهم .. لأنه كان يقود سيارته عشرين ساعة في اليوم ..

أما الأمير فقد وصل إلى هذه المنطقة منذ أسبوعين . وأتم الآن المئات الأخيرة من السباق . وكان الطريق أمامه واسعا مرصوفا .. وليس عليه إلا أن يحتاز ألمانيا بعد ذلك . وعندما وصل الأمير إلى موسكو أعلن أنه سوف يدخل باريس يوم ٥ أغسطس . أى بعد شهرين من بداية السباق .. واخترق الأمير ألمانيا ووصل إلى حدود فرنسا . ودخل باريس . واستقبلته الفرق الموسيقية .. وانتهى السباق بفوز الأمير الإيطالى الشجاع بورجيزه وانتصرت السيارة الإيطالية !

ولما سألوا الأمير عن سر تفوقه .

قال : إننى أصحو مبكرا ..

قيل له : نشاط وشباب ؟

فأجاب : أرق !

أما الآخرون فقد وصلوا إلى موسكو يوم ١٥ أغسطس واستقبلهم الروس بحمارة شديدة وأقاموا لهم الحفلات والمآدب . وهذه الحفاوة الشديدة قد أخرت السباق بضعة أيام ولكنهم فضلوا أن يكونوا معا !

وعبروا الأراضي الألمانية . وقبل أن يقتربوا من الحدود الفرنسية . نشرت صحيفة « الصباح » الفرنسية أن المهرج جودار قد نصب على عدد من الدبلوماسيين في الصين . وطلبت من البوليس أن يلقى القبض عليه . وبذلك يتأخر وصوله إلى فرنسا ويتقدم الفرنسيون إلى المركز الثاني في السباق الدولي . ولما علمت شركة السيارات الهولندية أرسلت من يحل محل المهرج جودار . ويكمل السباق وجاء البوليس ومنع المهرج من ركوب السيارة .

ولم يدخل المهرج جودار السجن وإنما دخل سباقا آخر بين نيويورك وباريس عن طريق اليابان . وقبل أن يصل المهرج جودار إلى الشاطئ الغربي لأمريكا ذابت السيارة وتفككت كلها .. أما هو فقد سقط على الأرض وتدحرج في إحدى القنوات .. وعندما خرج من الماء فوجئ الناس بأنه ارتدى الملابس الأوروبية فوق الملابس الصينية التي كان يتفائل بها .. وخلع الملابس الصينية وألقى بتمثال بوذا في الماء .. وراح يصلى على سيارته التي ماتت على حد قوله ثم تمدد إلى جوارها .. ونام .. وتركه الناس نائما .. ساعة .. ساعتين .. ثم حملوه وهو يحتضن بقايا سيارته ودفنوها معا .. فقد مات جودار .. انها نكتة مؤلمة لمهرج عالمي !

ذهبتم إلى الجنة  
وعادت تروى ما حدث !؟

كانوا سبعة يجلسون على مائدة الطعام . وقبل أن ينتهوا من شرب القهوة  
وقفت هي لتقول لهم جميعا : أريد أن أنتهز هذه الفرصة السعيدة لاستودعكم  
الله .

قالوا : إلى أين .. إلى فرنسا .. إلى إيطاليا .. إلى القطب الشمالى .

تركهم ينتقلون على خريطة أوروبا كلها .

وأخيرا قالت : إننى ذاهبة إلى الجنة .

قالت واحدة خبيثة : إذن أنت قررت الزواج ؟

قالت واحدة أخرى أكثر خبثا : لا بد أنه الإنتحار فى مكان جميل مع

شاب جميل ؟

وأمام هذا الضحك من الجميع كانت ملاحظها جادة على غير عاداتها .

وقالت : انها مغامرة !

وليس غريبا أن تعلن هذه الفتاة أنها ستقوم بمغامرة . فقد فعلت ذلك  
كثيرا .. خرجت فى الليل وحدها وعادت بذئب قتيل .. ثم ركبت زورقا  
وحطمت الزورق وعادت إلى الشاطئ بين الحياة والموت .. وصعدت برج  
إحدى الكنائس .. ثم تدلت بجبل حتى الأرض .

أما الأسباب فليست واضحة وإنما هى تقول عبارة واحدة : أريد شيئا  
يهزنى من أعماقى .. أريد شيئا يفزعنى حتى الموت ، يسعدنى حتى الموت ..

أما هذه المرة فقد جمعت ملابسها .. في حقيبتين ، ثم حملت معها سريراً صغيراً . وركبت السفينة إلى سوريا . ومن سوريا اتجهت إلى إيران . وفي إيران سألت عن منطقة معينة .. تعرفها على الخريطة ولكن لا تعرف الكثير عن تفاصيلها . وعلى الحدود سألوها : أيتها الفتاة الإنجليزية فرايا ستارك ماذا تريد من بلادنا .

قالت : إنى سائحة .

قالوا : وأى الأماكن تريد من ؟

قالت : أريد أن أرى اللجنة التي أقامها الحشاشون في القرن الحادى عشر في منطقة جبال البروز .. وعند صحرة الموت ..

وضحك رجال الحدود وقالوا لها : ولكننا الآن في مايو سنة ١٩٣٠

وعاد الإصرار على وجه الفتاة الإنجليزية . وأكدت أنها تعرف ذلك ولكنها تريد أن ترى ما تبقى من اللجنة التي أقامها بعض الناس على الأرض من أجل قتل أناس آخرين

وعلى الرغم من أن فرايا ستارك هذه كانت مغامرة فقط ، وأنها تريد أن ترى ، فقد أضافت إلى كل كتب الجغرافيا والتاريخ معلومات قيمة . عندما نشرت كتابها «رحلة في وادى الحشاشين» . ولذلك فقد عاونتها « الجمعية الجغرافيا الملكية » في تكاليف هذه الرحلة .

ولكن فرايا ستارك في خطاب لها إلى صديقة تقول : « إن الشيء الذي يبعث على السعادة حقاً ، أن في جيب جنينين .. ومعنى ذلك أنني لن أخاف من اللصوص .. في استطاعتهم أن يسرقوا منى شيئاً واحداً : النوم : ومع ذلك فأنا لا أنام إلا قليلاً !

وفي استطاعتك أن تتصور فتاة إنجليزية بمفردها في يدها خريطة .

وتركب حصانا ومن ورائها إثنان من الشياطين . وقد اتجهت إلى مناطق جبلية ..  
هذه المناطق لم ترفاة أوروبية من قبل . فالناس مهذبون . وهم يخفون دهشهم  
في أدب .

وكل ما تعرفه بوضوح هو : أن هناك جبلا اسمه جبل الموت . وقلعة  
الموت وصخرة الموت . وأن زعيم الحشاشين حسن الصباح كان يقيم في هذه  
المنطقة . وأنه مات سنة ١١٢٤ . وكان له قصر اسمه قصر خان .

واتجهت فرايا استارك إلى منطقة الجبال العالية الموحشة . والناس يعرضون  
طريقها . وكان الشياطين يتولون شرح أسباب هذه الرحلة . الشياطين هم  
عزيز وسليمان وحجة الله .. وكانت تدفع لكل واحد أربعة شلنات كل يومين .

كتبت فرايا استارك تقول :

« هنا العزلة .. والهدوء والأحلام ورائحة الزهور .. كأني في عالم آخر  
أو كأني أركب العربة الأخيرة في قطار الزمن .. وكأن هؤلاء الناس موجودون  
هنا من ملايين السنين .. لم يتغير شيء .. ويبدو أن شيئا ولن يتغير » .

سألت فرايا استارك أحد شياطينها : وأنت ماذا تريد ؟

فقال لا شيء !

قالت : لا أقصد ما الذى تريده منى ؟ ما الذى تريده من هذه الحياة

فأجاب : لا شيء .

— لا أملك فى شيء ؟

— لا أمل .

— ولا يأس من شيء ؟

— ولا يأس .

— سعيد أنت هكذا .

— هكذا سعيد ..

وتقول فرايا استارك أنها نظرت إلى ملبسه .. إلى وجهه .. إلى عينيه .. إلى شفتيه .. كل شيء هو الحد الأدنى من أى شيء .. فهل السعادة هى أن يكون للإنسان الحد الأدنى من كل شيء ..

نعم : السعادة أن يكون لدى الإنسان الحد الأدنى من أى شيء .. وهذا الحد الأقصى من القناعة !

واقتربت قافلة فرايا استارك الصغيرة من ممر شالا .. ممر ضيق .. ولكن على جانبه الزهور والورود .. وأحست أن العطر نفسه ثقيل كأنه ضباب يجذب عن الأنف أن يميز بين روائح الزهور، وفي هذا الممر تنطلق البغال تحمل الناس والبضائع .. منذ ألوف السنين .. فلم يتغير هذا الطريق بين الصين والهند وسوريا ومصر .. ولم تتوقف الأقدام والحوافر والعطور والصمت والشمس والجليد فى القمم .. كل ذلك كأنه صدى لما كان من عشرات القرون ..

وفتحت فرايا استارك الخريطة لترى أين هو عرش سليمان . فالخريطة تقول أنه عند قمم هذه الجبال فوق صحور عالية له شكل العرش . ويقال إنه عرش سليمان أو أطلق عليه بعض الناس هذا الاسم .

وفى كتيب صغير قرأت : : انه إذا كان عرش سليمان على اليسار .. فإنه بعد أميال إلى اليمين يوجد « وادى الحشاشين » . وعندما حاولت فرايا استارك أن تطوى خريطة ظهر لها أحد رجال البوليس : له لحية حمراء . وعينان سوداوان . وبسرعة امتدت يده إلى الخريطة .. وقلبا . ولم يفهم منها شيئا .. ثم عاد ونظر إلى سريرها وطلب منها أن تنشره على الأرض . تم طلب إلى الشياطين أن يضعوا الحقائق على الأرض وفتح الحقائق . وقتشها جيدا .

وقبل أن ينطق بكلمة واحدة أخرى كانت فرايا استارك قد خلعت البالطو والجاكتة والحذاء الغليظ والبنطلون .. وعلى الرغم من أنه أدرك أنها تسخر منه .. ولكن هذا اللمعان الغريب في عينيه يدل على أنه قد أعجب بساقها .. وكانت هي تعرف هذه الحقيقة !

ومضت القافلة في دهشة مما حدث . ولكن الحجل الواضح على وجوه الشبالين أفقدهم النطق طول الطريق . أما هي فلم تنطق ، لا خجلا فليست هي من هذا الطراز الذى يستحى ، وإنما لأن المنظر أمامها يصيب من يراه بنشوة غامرة .. وكتبت فرايا استارك تقول : «هؤلاء الحشاشون كانوا يدخنون مرتين .. مرة عندما يملأون عيونهم وأنوفهم بهذا الجمال ، ومرة عندما يتعاطون الحشيش .. إننى أفضل هذا الحشيش الطبيعى » .

هنا فى وادى الحشاشين .. كان حسن الصباح - زعيم الحشاشين والذى كانوا يلقبونه شيخ الجبل . يزرع الحدائق ويكثر من الزهور .. وكان يشق الصخور لكى يهبط الماء .. وكان يجعل الزهور الحمراء إلى اليسار والصفراء إلى اليمين .. وفوق الجبل توجد قلعة الموت .. ومن هذه القلعة كان يطل حسن الصباح على الوادى .. وعلى رجاله من المؤمنين به .. وكان يقول لهم : لا صلاة إلا من أجلى .. ولا صوم إلا بأمرى .. ولا معبود إلا أنا ..

وكان حسن الصباح عندما يهبط إلى الوادى ينظر إلى القلعة .. ويشير إلى أحد حراسه أن يهبط .. فيلقى بنفسه من أعلى القلعة .. ويهبط إلى الأرض ميتا - منتهى الطاعة العمياء ..

وهنا كان حسن الصباح يدعو صديقه الشاعر الصوفى الفلكى عمر الخيام . ويقال إن عمر الخيام كان يشرب النبيذ بطريقة جديدة .. كان حسن الصباح يصب النبيذ فى أحواض كبيرة .. ثم يأتى بالفتيات الجميلات يسبحن فى النبيذ . وكان يشرب النبيذ من فوق أجسام الفتيات .. وقد انتقلت موضحة استحمام الفتيات فى النبيذ إلى أوروبا أيام الحروب الصليبية .. وانتقلت إلى أغانى

شعراء الطروبادور في فرنسا وإسبانيا فكرة اللجنة على الأرض .. أو اللجنة التي استطاع إنسان أن يصنعها وأن يدخل إليها المؤمنين . ثم يطردهم منها .. ويرغبهم فيها إذا أطاعوا أوامرهم .. وكانت أوامره محددة : اقتلوا فلانا الوزير .. أو فلانا الملك ..

وكانوا يقتلون ..

واقربت فرايا استارك من القلعة التي كانت مصدر الرعب والفرع منذ أكثر من ثمانية قرون .. لم يبق من هذه القلعة شيء .. لقد ظلت هذه القلعة وخسون قلعة أخرى ، مهيبة قرنا ونصف قرن .. وكان من عادة حسن الصباح أن يدعو رجاله الفدائيين - إلى داخل القلعة ، وهناك يعطيهم الحشيش .. حتى ينتشوا تماما .. ثم تظهر أمامهم الفتيات الجميلات عاريات .. ثم يرون قنوات من لبن وخمر ومن عسل .. ويسمعون الموسيقى .. كأنهم في الجنة ..

ثم يلتقى بهم حسن الصباح إلى خارج القلعة .. ويعددهم أن قتلوا هذا أو ذاك أدخلهم الجنة مرة أخرى ..

واستمعت فرايا استارك إلى قصص وأناشيد وخرافات عجيبة عن سحر حسن الصباح وخلفائه من شيوخ الجبل وزعماء الحشاشين ..

فقد كان من عادة حسن الصباح أن ينشر رجاله في كل مكان ليرووا للناس ماذا رأوا وكيف رأوا؟ وكيف أن اللجنة قريبة .. هناك فوق الجبل .. وأن في استطاعة أى إنسان أن يدخل اللجنة .. لأن الطريق إلى اللجنة يقف على بابه رضوان ؟ ، ورضوان هذا هو حسن الصباح .. وفي استطاعة الناس أن يقتربوا إلى اللجنة بدماء الآخرين أعداء حسن الصباح .. وكان على باب اللجنة هذه ستة من الكلاب السود .. هذه الكلاب تصبح وحوشا أحيانا ، وتصبح في وداعة القطط أحيانا .. لقد كان شيخ الجبل يعطيها الحشيش هي أيضا ! ..

وينشر هؤلاء الفدائيين قصص الذهب والفضة والمرجان الذى رأوه فى أرض وسقف الجئنة .. وكيف أنهم جلسوا على الأرائك ينظرون .. وعن النعيم المقيم !

وكتبت فرايا استارك تقول فى كتابها : كنت أعمد على سربرى .. وفجأة رأيت طفلا صغيرا .. وجاء الطفل وقدم لى زهرة .. وكانت تحية رقيقة صادقة صافية لم أتوقعها .. فأنا ما أزال فى ذهول مما أرى .. ورأيت الطفل يمد يده إلى الزهرة ثم يقطف منها ورقة .. ويأكلها .. وكانت عيناه تطلبان منى أن أفعل مثله .. وأكلت ورقة .. ثم ورقة .. ورابعة .. وأكلت الزهرة كلها .. والآن أستأنف كتابة هذه المذكرات بعد ثلاث ساعات أمضيتها فى النوم .. فقد كانت هذه الزهرة الجبلية نباتا مخدرا .. وكنت فى حاجة إلى النوم حقا .. وبصراحة لا أعرف بالضبط .. إن كان هذا قد حدث .. أو أننى أحلم أو أن بعض الأطعمة المخدرة قد أكلتها دون أن أدرى .. أو أننى إنضمت دون علم منى إلى جماعة الحشاشين .. لو ظهر لى الآن حسن الصباح لطبقت عليه أحد مبادئه : وذلك بأن أقتله هو .. »

وإلى هذه المنطقة التى رسمتها رسما دقيقا ، جاء المغول بقيادة هولوكو سنة ١٢٥٦ وحاصروا هذه القلاع . ومن الغريب أن هذه القلاع ظلت صامدة عدة شهور ثم استسلمت .. وقتل هولوكو ١٢ ألفا من الحشاشين .. وكان فى جيش هولوكو عدد من المهندسين الفنيين .. وعدد من خبراء القلاع .. وقد دخل المهندسون الصينيون إلى داخل القلاع وفتشوا عن الذهب والماس الذى وضعه حسن الصباح فى كهوف عميقة .. وحمل هولوكو هذه الثروات الخيالية معه .. أما المكتبة التى كانت تضم كتبنا عن الإلحاد ، ألوف الكتب ، فقد أحرقها هولوكو . وقبل أن يحرقها سأل بعض الحشاشين من هو أعقلكم هنا ؟ فتقدم رجلان ..

فأمر هولاءكو بقتلها فوراً وقال : : لو كانا عاقلين ما تقدما ..

ثم نظر إلى سبعة آخرين وقال : إذن أنتم أعقل الموجودين هنا ..

وأمر بإحراقهم وعشرات الألوف من الكتب ..

وتحولت اللجنة الوهمية إلى نار حقيقية ..

وعادت فرايا استارك إلى انجلترا تحكى ما رأت ..

ويبدو أن شيئاً قد فاتها في وادى الحشاشين .. ولذلك رجعت مرة أخرى

إلى جبل البروز وإلى قرية الموت وصخرة الموت .

وقررت أن تفعل شيئاً غريباً جنونياً .. حملت سريرها .. ونامت في قلعة

حسن الصباح .. أوفى بقايا هذه القلعة .. ومن العجيب أنها رأت في نومها حسن

الصباح ورأت اللجنة .. ورأت أنهار اللبن والعسل والخمر والفتيات الجميلات

وشباباً في غاية الرجولة والجمال أيضاً .. والذي أنهضها من نومها الغريب أن

شاباً كانت تحبه قد رآته في اللجنة أيضاً .. ففزعت من نومها .. فهذا الشاب قد

قتل في حادث سيارة ..

وفي اليوم التالي قررت ألا تتناول أى طعام سوى الفاكهة .. فقد خافت

أن يكون في كل شئ حشيش : الهواء والماء والخبز والأرز .. وتمددت على

سريرها وحدها .. وصحت من النوم في ذهول أكثر : لقد أمضت ليلة طويلة

عروساً لحسن الصباح .. زفة عروس .. وعروس .. وغرفة من ذهب وفضة

وحرير .. تطير فوق السحاب .. ثم تهبط فوق الجليد .. ثم تنزل على عرش

سليمان .. وأنها بلقيس .. ثم أحست أنها كليوباترة .. وعندما التفت

حولها أفعى كليوباترة نهضت من نومها .. وجمعت حقائقها .. وتركت سريرها

وانجذبت إلى الشاطئ .. إلى البحر .. إلى انجلترا لتروى للناس كيف دخلت

وخرجت ودخلت اللجنة ! ..

تسعون يوما..  
على ألواح فئسبية  
بحنا عه إله أبيض!

رجل وزوجته أقاما في إحدى جزر المحيط الهادى بضع سنوات .. كل سكان الجزيرة عمارة بدائيون ، ولكن الذى يبعث على الدهشة أن لهم ابتسامة دائمة .. وأن لهم شعرا أصفر وعيونا زرقاء .. وهذا عجيب . فكل سكان الجزيرة من الصفر أو السممر ، ولكن هؤلاء البيض بدائيون أيضا .. فن أين جاءوا ؟

ظل هذا الرجل يفكر كل سنوات الحرب العالمية الثانية . كانت عنده عدة فروص . ولا يوجد أى دليل علمى . ولذلك أخذ يجمع الأساطير القديمة والأغاني الشعبية . وراح يصور النقوش والتماثيل التى تتجه إلى الغرب وكلها تتجه إلى ناحية واحدة .

وفى إحدى الليالى كان هو وزوجته يتطلعان إلى القمر . والمحيط الهادى هادئ فعلا . لا موج . لا شئ يعلو من الماء . والنسيم عليل يسحب نفسه سحباً على السطح .. وفجأة هبت الريح . وعلت الأمواج .

ولاحظت زوجته شيئاً عادياً . وعندما فكر فيه زوجها ظهرت أمامه رؤية جديدة .. لاحظت الزوجة أن الأمواج كلها تنكسر على شاطئ واحد .. أما بقية شواطئ الجزيرة فلا تنكسر عليها الأمواج . أو بعبارة أخرى أن الموج أو التيار يجرى من ناحية واحدة .. فلماذا لا يجرى أناس آخرون أيضا من هذه الناحية . أما هذه الناحية فهى أمريكا والمسافة بين هذه الجزيرة وأمريكا حوالى ٤٣٠٠ ميل ؟

لماذا ؟ ليس أسهل من الأسئلة وليس أصعب من الإجابة عليها .

وبهذه الملاحظة اكتملت النظرية في رأس زوجها الرحالة الشاب تور هايردال وكان عليه أن يدرس أكثر ويتصفح خرائط أكثر . وأن يتصل بعدد من العلماء . وانتهت الحرب . وذهب إلى نيويورك . وقلب عشرات المئات من الكتب . وسجل ملاحظاته كلها في بحث . وعرض البحث على أساتذة الجامعات الأمريكية . هزوا رؤوسهم وقالوا : مجهود عظيم ولكن نظرية خاطئة .

وكان رد هايردال : مجهود عظيم هذا صحيح .. والنظرية صحيحة حقا !

وآمن بنظريته . وصمم على أن يثبت صحتها . وهو في حاجة إلى مال . وإلى عدد من الشبان المغامرين الذين يؤمنون بوجهة نظره هو أيضا . ويقامرون بحياتهم معه !

أما النظرية فهي : أن هؤلاء البيض الذين تناثروا في جزر المحيط الهادى لا بد أن يكونوا قد جاءوا من أمريكا الجنوبية . ولكن سكان أمريكا الجنوبية من ألوف السنين كانوا من الهنود الحمر . وليس معروفا عن الهنود الحمر أنهم كانوا يصنعون السفن ويرتادون المحيط . إذن من أين جاء هؤلاء البيض . لا بد أن تكون هناك جماعة أخرى من البيض كانوا يسكنون أمريكا الجنوبية قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون . أما الأساطير فتقول إن هناك جماعة من البيض جاءوا من بعيد . وأساطير أمريكا الجنوبية تقول إن جماعة من البيض دارت بينهم وبين السكان الأصليين مذابح . هذه المذابح جعلت البيض يهجرون أمريكا ويتجهون إلى هذه الجزر . وكان يتزعم هؤلاء البيض الزعيم الإله « تيكى » .. وكانوا يطلقون عليه كلمة « إله » العربية هذه— وهذا غريب !

ولاحظ تور هايردال أن هناك تماثيل عجبية الشكل والحجم . وأن بعضها في غاية الدقة . وأن هذه التماثيل شبيهة بالتماثيل الموجودة في بيرو في أمريكا الجنوبية . مع أن المسافة بينهما أكثر من أربعة آلاف ميل .. ولاحظ أن لغة جزر هاواي تشبه لغة جزر تاهيتي مع أن المسافة بين هذه الجزر تعد بألوف الأميال .

إذن لابد أن تكون الشعوب التي عاشت في هذه الجزر واحدة أو أنه شعب واحد يختلف عن كل الشعوب الآسيوية ..

ثم اكتشف هايردال أنه إذا كان هؤلاء البيض الذين سكنوا أمريكا الجنوبية وهاجروا إلى هذه الجزر لم يتركوا سفنا كبيرة فإلّا المانع أن يعبروا المحيط الهادى في زوارق صغيرة ؟

وكل المعلومات القديمة تؤكد أن أبناء الشواطئ الغربية لأمريكا كانوا يستخدمون خشب البالسا في صنع الزوارق . إذن لابد من القيام بالتجربة وأعلن عن رحلته .. وتحديث الصحف وأجهزة الإعلام الأخرى . وتقدم هايردال إلى وزارة الطيران الأمريكى فساعدته وأعطته زوارق لم تجربها بعد . ووزارة التموين البريطانية أعطته أنواعا من الحبوب تريد أن تجربها .. ثم تقدم خمسة رجال آخرون يريدون أن يساهموا في هذه الرحلة .. أصبحوا ستة الآن . خمسة من الترويج وواحد سويدي .

واعترض هايردال على تزويد زورقه بالحديد بجهاز لاسلكى لأنه أراد أن يعيش في نفس الظروف التي عاشها المهاجرون البيض من ألوف السنين . ولكن زملاءه نبهوه إلى أن هذا الجهاز لا يفيد في أى شئ . لأنهم إذا غرقوا فلن يستطيع أحد إنقاذهم . ولكنه ضرورى لكى ينقلوا إلى العالم أحوال الطقس . أو ليصححوا مسارهم .. وأخيرا وافق ..

إذن لا يستبعد أن يكون المهاجرون الأمريكان البيض قد استخدموا زوارق صغيرة . وعاشوا على صيد السمك وشرب ماء المطر . وقطعوا كل هذه المسافة . ممكن .

وظهرت مشكلة جديدة : من أين يأتى بخشب البالسا ؟ فهذا الخشب لا يوجد في بيرو التي تقع على الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية . وإنما يوجد في الداخل في دولة إكوادور . وعليه أن يذهب إلى إكوادور ويقطع أشجار البالسا ثم يقوم بتعويمها في النهر إلى الشاطئ .. وعلى الشاطئ يجب أن يصنع هذا الزورق مستخدما الفأس والسكين . وفي ميناء « كالا » بدولة بيرو ، جلس

السته يصنعون زورقهم من ألواح خشبية متراصة . لا مسامير ولا أسلاك . وإنما من الجبال وصنعوا أيضا شراعا مثلثا . وآخر مربعا . واستخدموا المجاديف . وكانت الدفة مجدافا أيضا . وجعلوا فوق الألواح الخشبية غرفة ينامون فيها . وكان العالم كله يتابع أخبار هؤلاء المغامرين الذين وصفهم الأديب الإنجليزي سومرست موم : بأنهم أنعشوا الروح الأوروبية التي انهارت بعد الحرب العالمية الثانية . وأن الذين عندهم بلادة ذهنية فقط هم الذين يستطيعون تجاهل مثل هذا العمل العظيم ..

وفي أحد الأيام جاء وزير بحرية بيرو . ونظر إلى الميناء وإلى أرصفة السفن . وسأل عن الزورق الذى سوف يعبر المحيط . ولكنه لم يستطع أن يراه وأخيرا دلوه على كومة من الخشب البنى اللون متراصة بعضها إلى جوار بعض . فضحك ثم طلب إلى هؤلاء الستة أن يوقعوا على وثيقة تقول إن هذه الرحلة على مسئوليتهم وحدهم !

وجاء يوم السفر . وكان ذلك يوم ٢٨ أبريل سنة ١٩٤٧ .

وتطلع الناس إلى الزورق الصغير الذى اختار له هايردال اسم « كون تيكى » أى إله الشمس .. ثم صعدت ثلاث فتيات جميلات إلى ظهر الزورق الصغير .. وجاء لنش وسحبه إلى خارج الميناء .. وبعد ذلك نزلت الفتيات الثلاث .. وركب البحارة الستة .. وتعال الصيحات والموسيقى تمنى للمغامرين النجاح فى هذه الرحلة المجهولة وتطلع هؤلاء الشبان إلى الجبال العالية . إنها ما تزال راسخة وظلت راسخة أمامهم ساعات طويلة .. والزورق لا يتحرك من مكانه . حتى هبت نسمة .. وامتأل الشراع . وراحوا يلقون قطع الورق ليروا حركة الزورق .. وكان يتحرك .. وجاء الليل واختفى كل شئ بعيدا . وقد اقترح عليهم بعض الأصدقاء أن يستخدموا المصابيح الكهربائية ليلا . لأنهم يمشون فى طريق ملاحى . فقد تغرقهم السفن الكبرى دون أن تراهم أو تدرى بهم . وقد عارضوا أول الأمر . ثم وافقوا .. وبقياس سرعة الزورق

لاحظوا أنه سار في الأربع والعشرين ساعة مسافة ٥٥ ميلا أى بمعدل ميلين في الساعة .. وجلس البحارة على صناديق الطعام . وقد ارتبط كل واحد منهم بجبل حتى لا يسقط في الماء .. وناموا مهمومين جميعا .. إلا واحداً . هذا الواحد هو ببغاء في قفص كان يتناول الأسماك التى تتناثر من الماء وتسقط على الزورق . وأحس البحارة الستة أن العزلة تامة ! . لا أحد . لا شئ . البحر حولهم . لا نهاية لأى شئ . وقد قدروا هذه الرحلة بحوالى سبعة وتسعين يوماً إذا لم يحدث شئ غير عادى ..

وتوالت الليالى ..

وفى إحدى الليالى صحا واحد منهم على شئ بارد يلعب فى قفاه . وكان الليل أسود . وصرخ . وأشعل عود كبريت . فوجد ثعبانا طويلا . وفى فم الثعبان سمكة . سقطت السمكة . ثم خرجت من فم سمكة أخرى . وتعاونوا على قتله . وكان من الثعابين النادرة . أما هذا الصوت الغريب الذى يسمعه ليلاً إلى جوار الزورق فهو : سمك القرش .. لم يفارقهم ليلاً أو نهاراً .. أما هذه الجزر الصغيرة التى تعلو وتهبط فهى عشرات الحيتان ..

وبعد ذلك لم يعرفوا للنوم العميق طعماً . فهم يتوقعون زيارات مفاجئة شاذة كل ليلة : صوت سمك قرش .. ثعابين .. أخطبوط – وفى هذه المناطق أنواع من هذا الأخطبوط قادرة على أن تحطم عنق أى إنسان بذراعين من أذرعها فقط !

وحاول هايردال أن يختبر أخشاب الزورق . وكان يخشى أن تتمزق الحبال .. وفى هذه الحالة يصبح الزورق مجموعة من الحبال والألواح .. ولكنه لاحظ أن الحبال قد التصقت بالأخشاب تماماً . وأنه لحسن الحظ قد اختار نوعاً من الأخشاب الخضراء . ولو كانت هذه الأخشاب جافة لشربت الماء .. ولكن هذه الأخشاب الخضراء قد وقفت فى وجه الماء ولم تغص بالزورق إلا مليمترات قليلة .. مجرد صدفة سعيدة !

أما حياتهم اليومية فهي صيد السمك .. والسباحة إلى جوار الزورق أحيانا وتناوب الدقة ساعة أو ساعتين وبعد ذلك يستريحون .. وفي أثناء العواصف يرتبك النظام ويصحون جميعا ويهاسكون . وفي إحدى المرات سقط واحد منهم في الماء . وكان الموج عاليا . ولم يفلحوا في إنقاذه . فهبط واحد منهم وقد لف حبلا حول وسطه .. وسحبه .. وحاول الجميع سحب الاثنين وفي مرة ثانية سقطت أغطية واحد منهم فال يلتقطها من الماء . وأنقذوه بصعوبة وكان وراءه سمك القرش .. وفي آخر لحظة قفز إلى الزورق !

وعندما يصفو الجو ، يضحكون ، ويلعبون . ويستمعون إلى الموسيقى ويتصلون بهواة اللاسلكى . وكان واحد في العالم كله هو الذى يعرف مكانهم وأخبارهم أولا بأول وقد لاحظ هايردال أن الصور التى يلتقطها عندما يقوم بتحميضها تكون باهتة .. فما السبب ؟ واتصل باللاسلكى . وعرف عن طريق أحد الخبراء أن جهاز التحميض ساخن . ولذلك يجب تبريده . و اخترعوا طريقة للتبريد للحصول على ثلج أيضا !

وكانت معهم أدوية من كل نوع .. ولكن فى إحدى الليالى شكا واحد منهم من مغص شديد . فاتصل باللاسلكى بأحد المستشفيات فى أمريكا وردت عليه إحدى الطبيبات بأن هذه هى أعراض مصران أعور . وجاء رد البحار بأنه تخلص من المصران الأعور منذ سنوات .. فقالت الطبيبة : لا بد أن لديك أعور آخر .

وعاد البحار يقول إننا فى المحيط وأن الأمر خطير . وأنه لا توجد أية وسيلة للنجاة .. فاعتذرت الطبيبة عن هذه المداعبة . وأيقظت طبيبا عالميا فى مستشفى « مايو » الشهير . وطلب إليه الطبيب أن يكف عن التدخين ..

وتوقف عن التدخين فى ذلك اليوم وذهب المغص !

ومضت أيام تحول فيها الزورق إلى حديقة نباتات . فالبنور التى حملوها

معهم قد نمت . والبصيلات قد طالت .. حتى البيغاء هو الآخر قد ازداد  
مرحا وسعادة ..

وجاءت موجة عالية فأطاحت به هو والقفص في الماء . وكانوا يحملون  
له بعروس في إحدى الجزر !

وبين الحين والحين يأتي هايردال بسكين ويدقها في خشب الزورق  
ليعرف مدى تشبعه بالماء . وكان يلاحظ أن قلب الخشب جاف أصم تماما !  
وفي إحدى الليالي القمرية وراح واحد منهم يردد أغنية شعبية نرويجية  
تقول : كان ذلك دون علمي ..

ثم توقف فجأة وسأل : من هذا المجنون الذي أقنعنا بأن نجئ إلى هذه  
المناطق الموحشة وبهذه الصورة ؟ !

وضحك الجميع .

وحاولوا تضييع الوقت . فتساءل واحد منهم : ما هي أمنتك . فأجاب :  
أن أصل إلى أية جزيرة ؟

وقال الثاني : أن أنام وأصحو على نهاية هذا الجنون ؟

وقال الثالث : أن يجئ حوت ويحمل سفينتنا على ظهره بقية الطريق .

وقال الرابع : أن أتمدد على الشاطئ !

وقال الخامس : أن أتزوج .

وقال السادس : أن يكون كل ما أراه حلما !

وعاد الأول يقول : أما أنا فأمنتني ألا أرى وجوهكم !

وتلفت واحد يصرخ ويقول : انظروا .. انظروا كيف تحول الحلم إلى

حقيقة !

ونظروا .. وكانت مجموعة من الطيور .. إذن هم قرييون من أرض ..  
من جزيرة . وكان ذلك في نهاية يوليو .. أى بعد حوالى تسعين يوما من الرحلة ..  
وصرخوا من الفرحة والسعادة . وعادوا إلى خرائطهم . وقالوا لابد أنها جزر  
يوكايوكا . : وتغربوا منها . ومروا بها . ولم يتمكنوا من الاقتراب لوجود صخور  
ناثة وشعاب مرجانية حادة . ودفعتهم الرياح بعيدا عنها ..

وفي اليوم السابع والتسعين اقتربوا من جزيرة أناجاتو .. ولاحظوا أن رجلا  
كبيرا جاء في زورق صغير واقرب منهم . وقال لهم : مساء الخير .. قالها  
باللغة الإنجليزية واندھشوا وتحذثوا إليه بالإنجليزية . ولكنهم اكتشفوا أنه لا يعرف  
إلا هاتين الكلمتين . وعرفوا أن هذه جزر أناجاتو .. ولم يتمكنوا من الاقتراب  
منها .

وحاولوا الدوران ..

ولكن الموج كان عاتيا . وتمزقت الحبال .. كأنها أحست أنها قد أدت  
واجبها وأكثر . وأطلقت للألواح الخشبية حرية الحركة . وتحطم الزورق  
وانتهت الرحلة ولكن البحارة قد وضعوا الأجهزة في علب لا ينفذ إليها الماء  
وألقوا بها في الماء .. في المحيط .. ثم جاء رجال الجزر وجمعوا الألواح .  
وجاءت سفينة ونقلت الحطام إلى جزر تاهيتي وبعد ذلك حملوها إلى  
أوروبا .. ووضعت هذه السفينة التاريخية في متحف في مدينة أوصلو عاصمة  
النرويج ..

أما الرحلة فقد نجحت . وأما النظرية فلا تزال حائرة بين الذين يؤيدونها وبين  
الذين يرفضونها .. ولكن بقيت مشكلة الإله الأبيض الذى أقيمت له التماثيل  
الغريبة .

لقد كان لغزا .. هل هو رجل أبيض هل هو واحد من الذين هبطوا من السماء؟  
وفي آخر ليلة لهم .. تلقوا رسالة من أحد هواة اللاسلكى يقول : أنا أعرف

مكانكم الآن تماما .. الصوت واضح .. فقالوا له : انتهت رحلتنا .. فقال لهم :  
مبروك .. هل تسمحون لجيني أن تبعث لكم بقبلة ؟ .. فتزاحموا على  
الجهاز وقالوا : دعها تقبلنا جميعا في وقت واحد .

وسمع الجميع صوت قبلة ..

ثم سأله : كم يبلغ عمر جيني ؟

فقال : إنها ليست كبيرة .. إنها جدتي عمرها تسعون عاما !

فضحكوا قائلين : شكرا لك يا جيني .. نحن نتفاعل بهذا الرقم أيضا !

الطبيب الذي قرر  
أنه يعبر المحيط غريقًا!

بالصدفة قرأ صحيفة تقول إن رجلا استطاع أن يمتنع عن الطعام أربعين يوما ولم يمِت . كان يشرب الماء فقط . وعند نهاية هذه المدة سأله : ماذا تريد قال : أن أقتل زوج أختي ! ولما سئل عن السبب . قال : لأنه هو صاحب فكرة أن يضرب الإنسان عن الطعام مقابل مبلغ تافه من المال !

ومعنى ذلك أن هذه الأيام الأربعين لم تكن مجرد جوع مستمر . وإنما كانت جوعا وعذابا وانتظارا للانتقام !

وفي نفس اليوم تسلم مستشفى (بولوني - على - البحر) في فرنسا جث ٤٣ غريقا .. وكان ذلك في أحد أيام سنة ١٩٥١ . وتشاء الصدفة مرة أخرى أن يكون في استقبال هذه الجث طيب شاب اسمه : آلان بومبار . وعلى الرغم من أنه طيب ، وأنه ككل الأطباء ، قد اعتاد على الدم والصرخات والآهات فإنه أصيب بحالة من الفزع .. لقد رأى على وجه الغرقى أشكالا وألوانا من الخوف والصراخ المكثوم . فليس أشبع من أن يموت الإنسان غريقا : أى بعد صراع يائس مع البحر والشمس والعطش .. إنها العزلة الموحشة التي تقتل أى إنسان !

وكان هذا الطيب مشغولا في ذلك الوقت يبحث عن الجوع والتضور . ماذا يحدث للإنسان الجائع ؟ وكم يوما يحتمل الجوع والعطش . فهو يعلم أن أعمال إنقاذ الغريق تتوقف بعد عشرة أيام . وبعدها يستحيل على الجسم الإنساني أن يقاوم .

وخطرت له فكرة : ولكن لماذا لا يقاوم الإنسان ويلات المحيط . ان

المحيط ليس عميقا . ففيه أسماك من الممكن أن يأكلها . وهناك ماء المطر من الممكن أن يشربه .

وقرر الطبيب بومبار أن يدرس السمك . ومن دراسة السمك عرف أن السوائل الموجودة في داخل السمك تحتوى على نسبة قليلة من الملح . ومعنى ذلك أن هذا السائل يمكن للغريق أن يمتصه . ففي استطاعة الغريق أن يعيش على « عصير » السمك .

ودارت في رأسه فكرة أخرى : لماذا لا أجرب حياة الغرق . لماذا لا أعيش كغريق وأكتشف بنفسى ماذا يحدث لأى إنسان لو غرق . ان كل ما سوف أكتشفه سيؤدى إلى إنقاذ ألوف الناس !

ومن المؤكد - من وجهة نظره - أن أى غريق ليس غريقا تماما .. فأمامه فرص للنجاة لا شك فيها ؟

وأعلن عن فكرته ..

ونشرتها الصحف . واتصل به أحد الأثرياء الهولنديين . وطلب إليه أن يجرب أنواعا جديدة من زوارق النجاة المصنوعة من المطاط . أما الزورق فهو عبارة عن « طوف » له موتور . ركبته في بحر عاصف . ونجحت التجربة . وأعلن عن حاجته لزورق أكبر يستطيع أن يواجه ويقاوم ويطفو على أمواج المحيط . وكما هي العادة تقدم له أناس كثيرون متحمسون ..

وسافر الطبيب إلى مدينة موناكو . وفي هذه المدينة أقام معملا صغيرا في متحف الأحياء المائية . وهناك أجرى تجارب جديدة على الأسماك . واكتشف أن السمك غنى بالبروتينات الضرورية . ووجد فيه كمية كبيرة من الدهون وكذلك فيتامينات ا و ب و ب ٢ و د . أما فيتامين ج فوجوده في الأعشاب البحرية . واكتشف أن السمك به من ٥٠٪ إلى ٨٠٪ من السوائل . ومعنى

هذا أن سبعة أرتال من السمك التى يصيدها أى غريق فى اليرم تكفيه للشرب  
٢٤ ساعة .

ولكن ماذا حدث إذا مضت أيام دون أن يصيد الغريق سمكة واحدة ؟  
فى هذه الحالة يجب أن يشرب من ماء البحر . ولذلك يجب أن يدرس كمية  
ماء البحر التى يتحملها الغريق . ومن المعروف أن الامتلاء بماء البحر يؤدى  
إلى الالتهاب الكلوى والموت الأكيد . غير أن تحليله لماء البحر قد هداه  
إلى أن كوبا ونصفا من ماء البحر يوميا ولمدة خمسة أيام لا تهدد الكليتين !  
وانتهى الطبيب بومبار إلى أن وجبة متوازنة من الطعام سوف تمكنه من الحياة !

أما القرار النهائى الذى اتخذه فهو : سوف أعبّر المحيط غريقا وفى نفس  
الطريق الذى سار فيه خريستوف كولبوس عندما اكتشف امريكا سنة ١٤٩٢ .

وعاد الطبيب بومبار يراجع معلوماته كلها .. فوجد أنه قد درس الأسماك  
دراسة وافية ودرس الأمواج واتجاه الريح . والتيارات المائية . واستطاع بعد  
ذلك أن يقول لبعض أصدقائه : ان معلوماتى عن الملاحة أوسع وأعمق من  
معلومات كولبوس !

وكان خاطئا فى هذا الوهم !

ولم يتردد كثير من أصدقائه فى أن يصارحه بأنه شاب مجنون . وهو على  
يقين من أن أصحاب الأفكار المجنونة هم الذين أنقذوا البشرية مئات المرات .

أما الزورق الذى اختاره فكان من المطاط على شكل حدوة الحصان .  
وله سارية وشراع ومزود بعوامات من المطاط . أما هو فقد لف حول جسمه  
أطواق النجاة . واختار لهذا الزورق الصغير اسم « الفاجر » و « الفاجرة » ..  
ومن المضحك أن أحد الذين أعجبوا بهذه المغامرة قد عرض نفسه لأن يكون طعاما  
للسمك ثم يحدث العالم بعد ذلك .. عما يشعر به أى إنسان وهو يموت قطعة  
قطعة !

وقام الطبيب بومبار برحلته العذراء من ميناء موناكو يوم ٢٤ مايو سنة ١٩٥٢ . . إلى البحر الأبيض متجها إلى جبل طارق . ومعه صديق إنجليزي . استغرقت الرحلة ١٢ يوما ، أكلا فيها الأسماك وشربا ماء المطر وكانت الأعشاب البحرية لها طعم الجمبرى أو الكابوريا المسلوقة . وقد أصيب الاثنان بالتهابات شديدة في اللثة . وعندما وصل الاثنان إلى جزيرة مايوركا الأسبانية كانا قد ضربا رقما قياسيا في البقاء في الماء والحياة على حيوانات البحر .

ومن جزيرة مايوركا جاءت سفينة وحملت الزورق الفاجر إلى جزر الكنارى ، ومن هذه الجزر خرج كولبوس في رحلته المشهورة . وهرب الصديق الإنجليزي . وقرر الطبيب أن يمضى وحده . غريفاً . أما الأشياء التي حملها معه فهي الضروريات فقط . فعه صندوقان : امتلا بالأطعمة المحفوظة وقد كتب بها قائمة . وطلب إلى الجهات المستولة أن توقع عليها . فقد وعد الطبيب ألا يلجأ إلى هذه الأطعمة إلا إذا كان مهددا بالموت وصندوق آخر به بعض العقاقير الطبية . ثم حمل معه لفتين من الجبال وخرطوشة كبريت وإبرة وبكرة خيط وراديو بطارية . ومعه ورق . وبعض الكتب .

وفي يوم الأحد ٩ أكتوبر سنة ١٩٥٢ خرج الزورق الفاجر مسحوبا إلى خارج جزر الكنارى . والناس يهتفون ويصرخون ويلقون عليه الورود .. أما كل السفن الكبرى عابرات المحيط فقد أطلقت صفاراتها تحية للمغامر الشاب . ووقف رجال الدين يتطلعون إلى أسماء يدعون الله أن يوفقه في هذه الرحلة الإنسانية !

وعاد اللش الذي سمجه إلى خارج الميناء . وبعد ذلك أصبح الطبيب وحده تماما . وكان الجو جميلا هادئا . وأوقد فانوسا صغيراً حتى لاتصطدم به السفن الكبرى . ووضع رأسه على طوق نجاة . وترك الزورق للموج والتيارات البحرية . وفي هذه اللحظة فكر في زوجته . وقال : مسكينة أن تزوجى

طيبيا مجنوننا مثلى . . ألم أقل لك أن ابن عمك كان أفضل . . أنه قروى صاحب  
دواجن وأبقار وحدائق . وسوف يعيش ويموت إلى جوارك . . ولكنك  
أنت التي رفضت . إذن . . هو قدرك أن تزوجى طيبيا لا يجترّف الطب وإنما  
يهوى الملاحة ويجترّف الجنون ! مسكينة !

ثم اكتشف أنه هو المسكين حقيقة . فلن يرى فى هذا المحيط سفينة  
ولا طائفة — كما اعتاد أن يرى فى البحر الأبيض . وإنما هنا صمت ولا نهاية  
لأى شىء . . لا نهاية للبحر ولا للسماء ولا للهواء . ولا للفرع . وحده تماما .

وطلع الصباح ولم تتحرك الرياح . . ولكنه لاحظ أن الزورق (الفاجر )  
قد اتجه إلى الجنوب أكثر مما يجب . وجاء اليوم الثالث . ولا ربح . كل شىء  
ساكن جامد ميت كأن الكون كله يتفرج عليه . . ولم يتمكن من صيد سمكة  
واحدة . وشرب نصيبه من ماء البحر . وفى الليل هبت الرياح التجارية  
واشتدت . وظل طول الليل ساهرا . والحقيقة أنه أوقف بعنف من نومه . .  
فقد غطت الأمواج ظهر الزورق . ومزقت الرياح شرع الزورق أيضا .  
وراح يلقي بالماء من فوق ظهر الزورق إلى المحيط . وكان الجو بارداً .  
وقد لسعه البرد . وبعد أن تأكدت الرياح من أنه أصبح يتلوى كالسمك ،  
هدأت حتى الموت . وفى النهار تحول الزورق إلى ملاحه . . كل شىء يغطى  
بالمح . وهو أيضا قد غطاه الملح . ولا أمل فى إرادته .

وعندما طلع النهار أصبح واضحا أن الرياح قد مزقت الشراع . واضطر  
الطيب إلى إلقاء المرساة فى الماء ، ليتوقف الزورق حتى يتمكن من إصلاح  
الشراع ، وراح يخيط هذه الثقوب ولكنه لا يدري ما الذى سوف تفعله  
الرياح مرة أخرى بالشراع .

وفى صباح اليوم التالى لاحظ بقعا زرقاء . تتحرك تحت الماء . . فأدرك  
أن طابورا من الأسماك فى الطريق إليه . ووراء هذه الأسماك جاءت الدرافيل .

وربط سكيناً في مجداف . ثم أصاب بالسكين درفيلاً . وقتله . . وسحبه إلى ظهر الزورق . . أخيراً وجد طعاماً . وجبة واحدة على الأقل !

وكان الطبيب يظن أن الوحدة لا تخيف . وكان هذا رأيه وهو على مرأى من الشاطئ ، والسفن والطائرات . أما الآن . . فلا شيء . . أنه شيء تافه بين عالم رهيب لا يمكن أن يوصف !

وظلت الدرافيل تتابع الزورق الفاجر ولكن بحرص على مسافة منه . أما الأسماك الطائرة فقد كانت ترتاد الزورق ذهاباً وإياباً . وتعلوه وتتساقط عليه ثم ترتد على الماء ولها طعم الفسيخ ورائحة الكلاب الميتة !

وفي يوم ٢٧ أكتوبر كان عيد ميلاده فقد بلغ الثامنة والعشرين في هذه اللحظة وأقام لنفسه ونيمة . فاصطاد طائراً بحرياً . وأكل نصفه في العشاء . وترك النصف الآخر للغداء . . ولاحظ وهو يتقلب في الليل أن هناك أشباحاً على ظهر الزورق تروح وتجي . . هل من المعقول أنها عفاريت البحر ؟ هل صحيح ما يرى ؟ أم أن الذي يراه خداع بصرى فقط . فأشعل عوداً من الكبريت . . ووجد أن هذا الضوء الفسفورى ينبعث من النصف الآخر للطائر ؟

ونظر في ساعته الاوتوماتيكية فوجدها قد توقفت تماماً . وهذه كارثة لم تكن في حسابه . فنذ الآن لن يعرف الوقت . ولن يعرف سرعة الزورق « الفاجر » . .

وفرض على نفسه نظاماً قاسياً : أن ينهض مع شروق الشمس . ويصيد السمك الطائر ويشرب أكبر كمية من ماء المطر . ويستريح ساعة . ثم ينهض بعد ذلك ويحدد المسار الصحيح لهذا الزورق الذى يبلغ طوله ٢٨ قدماً . ويبدو في بعض الأحيان أنه قدم واحدة ! وعليه بعد ذلك أن يقرأ في أحد الكتب . ثم يسجل ملاحظاته . فقد وعد بتأليف كتاب عن هذه المغامرة .

وفجأة ألقى الكتاب من يده . . فقد لاحظ أن سمكة قرش تحاول أن تمزق المطاط . ولكن لحسن الحظ كان المطاط أكبر من فمها . فتركت السمكة ومن ملاحظاته أيضا أن سمك القرش جبان . يكفي أن تدق رأسه وبعد ذلك يتحول إلى قطعة من اللحم الطافية .

أما الذى حدث له بعد هذه الوجبات البحرية فواضح تماما : فأظافره تكسرت . وفقد ثلاثة أطراف والتهبت موخترته وظهرت عليها الدمايل . وكان من الصعب عليه أن يجلس . وحتى لا يسقط من الازهاق فإنه قد ربط نفسه بسارية الزورق بجبل متين . .

ورغم ذلك كان شديد التفاؤل . .

وهبت الرياح التجارية . وتحرك الزورق الفاجر بسرعة أكبر . وكان الطيب على يقين من أنه سوف يرى الأرض بعد ثلاثة أسابيع على الأكثر . ولا بد أنه اقتنع فى هذه اللحظة أن الملاحة ليست سهلة . ولا أن معلوماته أكثر من معلومات كولمبوس .

وفى يوم الأحد ٧ نوفمبر كان من الممكن أن تنتهى المرحلة تماما . نهاية مفاجئة . فقد سقط طوق النجاة الذى كان يلفه دائما حول جسمه . وألقى بنفسه فى المحيط ليأتى به . وهنا ابتعد الزورق قليلا . . قليلا . . ان المسافة التى يراها الآن بينه وبين الزورق يمكن اعتبارها ألف متر . . مليون متر . . كأن الزورق قرر أن يعبر المحيط وحده . . حاول الطيب أن يدرك الزورق فلم يستطع . . وهنا فقط تنطلق القوة الكامنة الاحتياطية الموجودة فى جسم الانسان . والتى لاتظهر إلا فى مواجهة الموت المحقق . ضرب بزراعيه ورجليه . . ولكن الزورق بعيد . . هنا حدثت المعجزة لقد انقطع الحبل الذى يمسك المرساة . . سقطت المرساة فى المحيط أما الحبل فقد طفا على الماء . . وامتدت يد الطيب وأمسك الحبل . وتوقف الزورق تماما . واقترب الطيب وصعد إلى الزورق . . واستأنف الرحلة الجنونية !

وفي صباح اليوم التالي رأى سفينة من بعيد . . حلول بكل الحيل أن يلفت النظر إليه . . ولكن السفينة مضت ولم يلاحظ أحد هذه البقعة السوداء فقال بومبار لنفسه : مسكين يا أى غريق !

ورأى أسراب الطيور . أدرك أن الأرض قريبة . . ربما على مدى أسبوعين أو ثلاثة . وأصيب بالتهاب شديد في أذنه – التهاب في الغدة النكفية . وكان يأمل أن يصل إلى جزر الهند الغربية أى على مقربة من الساحل الأمريكى فيما بين ٢٣ و ٣٠ نوفمبر . ولم يخطر على باله أنه سوف يظل في المحيط حتى نهاية ديسمبر !

وظلت الدرافيل تتابع الفاجر . . وفي يوم ٨ نوفمبر لاحظ أن الراديو الذى أخذ صوته يخفت ، قد فقد النطق تماما . وهذه كارثة أخرى !

. أما في يوم ١١ نوفمبر فقد هدأ البحر . وسكت الريح . وتحول الماء إلى لون الزيت ونعومته . وعرف بومبار أن هذا هو الهدوء الذى يسبق المطر ، فخلع ملابسه تماما . ووقف عاريا ونزل المطر . واستحم بالماء العذب . وراح يغسل الملح الذى التصق بجسمه وأشعل فيه النار . وراح يملأ يديه ويشرب . . وملاً لإطارا من المطاط بالماء العذب . . وتكاثرت الأمطار وغطت الزورق وكاد يغرق في الماء الحلو ! وراح يضحك في جنون وهو يقول : لئنى أكاد أغرق مرتين ثم يقول : أنا الرجل الوحيد الذى يلقى بالماء الحلو في الماء المالح !

أما هذا الصوت الغريب الذى سمعه . . وهز الزورق بعنف . فليس المطر طبعاً . ولا الريح . فلا ريح . ولا هى درافيل لأنها بعيدة . ولكن هناك أسماك كبيرة اسمها أبو سيف قد حطمت الدفة . وبعد ذلك اتجهت إلى الزورق نفسه . وهى تحاول شينا آخر . ولكنها لم تفلح فاتجهت بعيدا عن الزورق !

وتوقف المطر بعد يومين وبدأ يشعر بآلام شديدة في كل مكان . فجسمه

قد تغطى بالدمامل . . وأظافره تساقطت وتورمت أصابعه كلها . وجلد قدميه بدأ يتساقط . . وأحس كأن أعصابه كلها عارية ملتهبة . . والملح يشويها .

وظهرت الشمس فكانت أقسى من الملح . وراح يتوارى منها بكل مالمديه ولكن لأمل . . انه قطعة من النار تهرب من الماء إلى النار . . وأحس أنه فقد الاتجاه تماما . فهو لايعرف أين هو . . ولا أين تقع الأرض القريبة . ووقف الفاجر تماما . لايتقدم . .

وفي يوم ٢٣ نوفمبر لم تظهر الأرض كما كان يتوقع . وفجأة في ذلك اليوم تحول النهار إلى ليل . والبحر إلى محيط من الحبر الأسود . وهبت عاصفة مخيفة وإحتمى بومبار بالشراع . ولف جزءا منه حول ذراعيه التي تسيل منهما اندماء . وتحرك الفاجر بسرعة . . وسكنت العاصفة وذهب الشر !

ولم يكن يتصور أن الأسوأ مايزال في الطريق إليه . . فقد رأى طيوراً كثيرة . بل ورأى مخلفات من الخشب والورق . . ورأى فراشا ولاحظ أن هناك نسيج عنكبوت على سطح الماء . وفتح كتابا عن المحيط والرحلات . والكتاب يقول إن هذه العلامات تدل على أن الشاطئ لايبعد عن مائة ميل وجاء يوم ٤ ديسمبر وهو يعاني من الإسهال الشديد . . وكان يحلم بكوب من اللبن البارد . . ويحلم بدش من الماء البارد . . والنوم على فراش لين دافئ . . وطرد هذه الأحلام التي تعذبه . واكتفى بأن تصور أن زوجته تستمتع بهذه الأشياء مهما كانت حزينة عليه . على كل حال إذا كان عاجزا عن أن يمسك القلم ويكتب حرفا واحدا . فغدا تطلع الشمس أو بعد غد . . أو بعد بعد غد ، إنه لم يفقد الأمل . ولن يفقده !

وفي الساعة العاشرة صباحا يوم ١٠ ديسمبر رأى سفينة . واقترب منها وراح يصرخ . والقبطان يصرخ في الميكروفون : هل أنت في حاجة إلى مساعدة ؟ وكان رد الطبيب الفرنسي بومبار : أريد أن أعرف خط الطول والعرض !

وكان رد القبطان : أنه ٤٩ تقريبا !

وأدرك بومبار أنه أخطأ الحساب عشرة خطوط على الأقل . وعلى ذلك فالمسافة التي بينه وبين الشاطىء لا تقل عن ٦٠٠ ميل .

ودعا القبطان إلى ظهر السفينة . وقبل الدعوة . ورأى صورته المفزعة في المرآة وأخذ دشا باردا . ثم استأذن القبطان في أن يرى نفسه في المرآة مرة أخرى : الوجه شاحب . العينان غائرتان . اللدامل قد غطت كل جسمه . على كل حال أنه ما يزال حيا . . وفي استطاعة القبطان أن يبرق إلى زوجته أنه ما يزال حيا . وأنه في طريقه إلى الشاطىء !

وعرض عليه القبطان أن يحمله إلى الشاطىء ولكن بومبار ، أصر على اكمال الرحلة ثم أدخله القبطان في قاعة الخرائط . وعرف بومبار لماذا أخطأ في حساب خطوط الطول والعرض . وأيقن أن المعلومات البحرية التي عنده قليلة جداً . وأن المعلومات القليلة أكثر خطورة من البحر !

وفي ليلة الكريسماس وصل الفاجر إلى جزر بارابادوس . . وكادت الصخور البارزة أن تحطمه . ولكنه رغم ذلك نجا تماما . لقد نقص وزنه ٥٥ رطلا . وأصيب بفقر دم حاد وانخفض ضغط الدم . وضعف بصره ولكنه رغم كل شيء قد ظل حيا ٦٥ يوما في البحر ، وجاءت هذه المغامرة دليلا على أن الغريق يجب ألا يفقد الأمل . . وأن الموت أبعد بكثير جداً مما نتصور !

من هنا...  
إلى ألفي مليون سنة!!

يقال أن النبي عليه السلام يوم موقعة حنين أعطى أبا سفيان بن حرب مائة من الإبل ، وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ، وأعطى العباس ابن مرداس أقل من مائة . فغضب ابن مرداس ووقف بين يدي رسول الله يقول متحدثا عن مزاياه وعيوب الآخرين :

وما كان بدر ولاحابس

يفوقان مرداس في مجمع

وما كنت دون أمرى\* منهما

ومن تضع اليوم لا يرفع

فضحك النبي وجعل الإبل لهذا الشاعر مائة !

أهم ما في هذه الرواية التي جاءت في كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة هو اسم : مرداس . .

وكلمة « مرداس » هذه معناها : قطعة الحجر التي كان يلقيها العرب في البئر ليعرفوا إن كان فيها ماء . وكانت هذه صناعة ابن الشاعر .

ومن الغريب أن كلمة « مرداس » هذه قد جاءت في قصة عجيبة عن الإسكندر الأكبر . فقد كان الإسكندر يجلس على شاطئ البحر الأبيض وألقى حجرا . . ثم طلب أن يركب زورقا . . وألقى حجرا . ولم يكن من عادة الناس حوله أن يسأله عما يفعل . وفي إحدى المرات أراد أن يعرف عمق

الماء عند الشاطئ فآلتى حجراً وراء حجر . ولاحظ أن بعض الأحجار تختفي بسرعة وبعضها يختفي ببطء . . ولم يستطع الاسكندر أن يستنتج أن جاذبية الأرض هي المسئولة عن السرعة . . ولكن رجلا قال له مرداس . . أو مدرياس استطاع أن يربط الحجر في حبل . . وأن يعرف عن طريق طول الحبل عمق البحر . وكانت هذه أول محاولة في التاريخ لمعرفة أعماق البحار . . فقط أعماق البحار . .

وإذا كنا في العشرين عاما الماضية استطعنا أن نطلق سفن الفضاء إلى ما حول الأرض وإلى الكواكب الأخرى ، فإن دولتين فقط في العالم هما القادرتان على ذلك . . فالأموال باهظة . والفوائد العلمية لا يمكن أن نقدرها . ولكن من المؤكد أن الذى نفقه على رواد الفضاء سوف يعود على دافعي الضرائب بالخير العام بعد عشرات السنين . .

وإذا كنا استطعنا أن نرسم الهيئة الفلكية : النجوم والكواكب القريبة والبعيدة ونرسم الأرض بوديانها وجبالها وغاباتها وأنهارها ، فإن البحر ما يزال سراً غامضاً . . اننا فقط نتمدد على شواطئه ونعبره وأمامه نشعر بالجمال والجلال . بالمتعة والرهبة معا . . ونرى في أمواجه التى تضرب الشاطئ محاولة أبدية يائسة : فلا البحر زحزح الشاطئ ، ولا الشاطئ قد أسكت البحر . .

وقديما جداً حار الملك سليمان وهو ينظر إلى الأنهار وهى تصب في البحار وكان يقول : لا الأنهار جفت ولا البحار امتلأت . ولم يكن الملك سليمان يعرف قانون تبخر المياه من البحار وسقوطها مرة أخرى على أعالي الجبال إلى الأنهار إلى البحار مرة أخرى !

ولكن محاولة معرفة أعماق البحار ترجع إلى مائة سنة تقريبا . وقد بدأت بمحاولة جريئة سنة ١٨٧٢ . . عندما حاول عدد من العلماء يرأسهم الأستاذ ويفيل توماس أن يدوروا حول الأرض . وجمعوا ألوف العينات من

النباتات والحيوانات البحرية في أماكن مختلفة وفي درجات حرارة متباينة . وظلت هذه الرحلة أكثر من ثلاث سنوات . وأتوا ببعض هذه الحيوانات البحرية من أعماق المحيط على انخفاض ما يقرب من ثلاثة آلاف قامة – القامة ستة أقدام .

وقد استخدم ويفيل توماس : نظرية الصوت والصدى ليعرف أعماق المحيط واكتشف لأول مرة وبصورة عملية أن قاع البحر يشبه وجه الأرض : مليّ بالجبال والوديان !

ولكن الإنسان لا بد أن يهبط بنفسه ليرى ماذا يجري هناك . تماما كما ذهب الإنسان بنفسه إلى القمر ليرى بعينه ماذا هناك . ولذلك يجب أن يبحث عن وسيلة يهبط بها وفيها دون أن يموت . . ففي أعماق المحيط يصل ضغط الماء على البوصة المربعة إلى تسعة أطنان ! وفي هذه الحالة لا يمكن أن تنفع بدلة الغواصين . . تماما كما لم تنفع بدلة رائد الفضاء . . فرائد الفضاء ينطلق في سفينة محكمة جداً . . فإذا هبط إلى القمر فهو يرتدى بدلة أكثر احكاما من الكبسولة .

وقد حاول الهبوط إلى قاع البحر كثيرون . ومات كثيرون دون أن يدري بهم أحد . فمثلا حاول المغامر الأسباني ثرفو في سنة ١٨٣٨ فقد ابتكر لنفسه جهازا أو أنبوبة من الخشب . وعلق فيها أثقالا من الحديد والرصاص وهبط بها إلى أعماق المحيط . وحدث ما كان متوقعا . فقد سحقها ضغط الماء . . وبعد لحظات . . طفت على الماء ألواح خشبية أما الرجل نفسه فلم يعد ! .

وفي سنة ١٩٣٠ حاول الأستاذ الأمريكي وليام بيب ومعه مهندس أوتيس بارتون أن يصمما معا جهازا للهبوط إلى أعماق البحر . وجاء الجهاز على شكل اسطوانة من الصلب الذي سمكه بوصة ونصف بوصة . وجعلها لها فتحة من الكريستال . وكان لهذا الجهاز شكل الضفدعة .

ونزلت الضفدعة إلى البحر مربوطة في حبل من الصلب سمكه بوصة \*  
أيضا . واستطاع الرجلان أن يهبطا إلى عمق ١٥٠ قامة . .

وبعد ذلك بستين استطاع الرجلان أن يهبطا إلى ١٨٠ قامة . . ولم يتمكننا  
من الهبوط إلى مادون ذلك .

وكتب الأستاذ بيب في مذكراته التي نشرت بعنوان ( نصف ميل  
تحت الماء » يقول : « من هنا إلى تحت ومنذ ألفي مليون سنة ، لم يكن ليل  
ولا نهار ، ولا صيف ولا شتاء ، ولا زمن . . حتى جئنا وسجلنا ذلك » .

وعلى الرغم من عدم وصول أشعة الشمس إلى هذه الأعماق ، فإنه  
استطاع أن يرى من الفتحة الصغيرة كائنات مضيئة تروح وتجي . . فبعض  
هذه الأسماك تشبه السيارات في الشوارع ليلا عندما تنظر إليها من طائرة .  
ومن الكائنات الغريبة أسماك زرقاء الزعانف حمراء العيون وبعضها طوله  
أكثر من مترين . ان هذه الأسماك تشبه زوارق الأعماق التي يستحيل على أى  
إنسان أن يلمسها !

وفي سنة ١٩٣٤ قام الرجلان بتحسين هذا الجهاز الذي يغوصان به  
وأطلقا عليه اسم « زورق الأعماق » . واستطاعا أن يهبطا إلى ٥١٠ قامات  
( ٣٠٦٠ قدما ) إلى آخر الحبل الصلب الذي تدلى منه الزورق . وفجأة  
أحس الاثنان بصدمة . . بصوت عنيف يهزها تماما . وأدرك الاثنان أن  
الحبل الذي يربطهما إلى منصة عائمة قد انقطع ، إن هلاكهما لا محالة .  
فالمسافة بينهما وبين قاع المحيط أكثر من ميل !

ولكنهما اكتشفا أن الزورق قد اصطدم بأحد التلال الموجودة في قاع  
المحيط وقد أدى بهما الفزع إلى أن يوقفا الهبوط وأن يصعدا بسرعة !

وكان لا بد من تعديل هذه الطريقة البدائية في الغوص إلى الأعماق . .  
فالذى يحدث هو أن زورقا عاتما أو منصة يتدلى منها حبل من الصلب ومن

هذا الحبل يتدلى أو يربط زورق الأعماق . وعند الاحساس بالخطر يقوم الزورق العائم بسحب الزورق الغاطس . فالحبل يقوم بدور « الحبل السرى » الذى يتغذى منه الجنين فى بطن أمه !

وهذا ما فعله الأستاذ البلجيكي أوجيست بيكار . وهو رجل مغامر وقد عرفه العالم . بمحاولاته الجريئة : فقد حاول أن يطير فى بالونات هوائية إلى طبقات الجو العليا .. ونجح فى أن يرتفع وهو فى داخل بالون إلى ٥٥,٥٥٧ قدما ..

وعندما حاول الأستاذ أوجيست بيكار أن يساهم فى مغامرات الغوص تحت الماء استخدم نفس الأسلوب . فإذا كان فى حالة البالونات يستخدم الغاز الأخف من الهواء . فإنه فى حالة الغوص استخدم البترول الأخف من الماء أيضا .. فالغاز الخفيف يدفع البالون . والبترول الخفيف يتعلق فيه زورق الأعماق ولا يغوص معه .. وبذلك يمكنه أن يهبط ويعلو كيف يريد .. وصنع الأستاذ بيكار زورقا له جذران قوية جدا . ثم ربط الزورق بعوامة على شكل سيارة مليئة بالبترول . ثم ان هذا البترول له أهمية أخرى هو أن يحمى الزورق من ضغط الماء الشديد عليه .. ثم وضع فى زورق الأعماق كتلا ضخمة من الرصاص تساعد على الغوص . فإذا أراد الصعود ألقى بهذه الأوزان فيخف الزورق ويرتفع .. وهذا ما يحدث تماما عندما يريد البالون أن يرتفع فهو يسقط منه أكياس الرمل فيخف وزنه فيعلو ..

وتحدد اليوم الموعد فى سنة ١٩٤٨ .. عندما ذهب الأستاذ بيكار إلى ساحل غرب أفريقيا .. وهبط بزورق الأعماق إلى ما يقرب من ١٤٥٠ قامة ! ولم يكن بهذا الزورق أحد . لقد كانت محاول تجريبية . واعتبرت هذه التجربة ناجحة . ولكن عوامة البترول قد انفجرت قبل أن تصعد إلى السطح لأسباب فنية يمكن إصلاحها .

وانضم إلى الأستاذ بيكار مهندس فرنسى اسمه كوستوتوتولت الحكومتان البلجيكية والفرنسية الإنفاق على هذا المشروع . ولكن المشروع ضاع بين

اللجان الفرعية . والميزانيات والاعتمادات الإضافية وضرورة مناقشة هذين الرجلين قبل اعطائهما مليا واحدا !

وهرب الأستاذ بيكار يطلب معونة الحكومة السويسرية . فوافقت على إعانتة مناصفة مع الحكومة الإيطالية . وشعرت الحكومة الفرنسية بأنها أهينت . ولذلك عجلت بمشروعها . ونشر الأستاذ بيكار في الصحف أن زورق الأعماق الفرنسي مليء .. بالعيوب الفنية وانه مقبرة لكل من يحاول أن يهبط به . وأجريت الفحوص الإشعاعية على الزورق الفرنسي . وظهرت له عيوب طفيفة أمكن إخفاؤها بسرعة ..

وفي يوم السبت ١٣ فبراير سنة ١٩٥٤ وصل إثنان من الفرنسيين أحدهما غواص والآخر مهندس إلى الساحل الغربي لأفريقيا . وقررا أن ينزلا في البحر . فن أجل فرنسا وكرامتها وشرفها العلمي تهون الحياة . ورافق الاثنان عدد كبير من رجال الأعلام . وكانت هناك إذاعة متابعة تذيع على الهواء كل ما يحدث . أما الرجلان فهما : هو .. وفيلم .. وقد صدر للاثنين كتاب جميل ممتع اسمه « إلى ما تحت ألفي قامة » وفي اللحظة المحددة تماما . نزل الاثنان إلى « زورق الأعماق » وأقفلا الباب . . وكان يصلهما بالمنصة العائمة سلك تليفوني .. وكان على اتصال مستمر ..

وأصبحت الصيحات التليفونية مسموعة في كل أنحاء العالم : الآن أقفلنا الباب تماما .. كل شيء على ما يرام .. الرؤية واضحة ..

وتجئ أصوات أخرى من فوق المنصة العائمة : على بركة الله .. ومع السلامة .. النزول يبدأ ..

وبدأت « غواصة الأعماق » في الهبوط .. رجلان وحدهما تماما .. يربطهما خط تليفوني سرى يفصل تلقائيا بعد لحظات . وكانت الساعة العاشرة صباحا ..

ليس في استطاعة أحد ابتداء من هذه اللحظة أن يساعدهما ، وقد أمسك واحد منهما التليفون يقول : عندنا شعور بالنشوة .. كأننا نشرب شيئا معتقا ممتعا .. ولكن الآن حياتنا بأيدينا .. اننا نحاول نفس الشيء الذى حاوله أبطال مجهولون من ألوف السنين أن يرتادوا البحر والقارات وحدهم وبلا علم حديث .. اننا ..

وهنا انقطع الخط التليفونى ..

ونظر أحدهما إلى الآخر يكمل جملته : إننا نسينا السندوتشات .. فليس أمامنا إلا أن نموت . أو نموت من الجوع .. وفى كلتا الحالتين نحن وجبة دسمة للسماك .. وخصوصا أنت !

وقال له الآخر : كيف عرفت ما كانت تقوله أى دائما .. وأنا أحاول السباحة .. انها كانت تقول يجب أن تتعلم بسرعة حتى لا تكون طعاما شهيا للسماك ..

ورد الآخر : بل هذا ما تقوله أى أيضا .. فلغة الأمهات واحدة وخوفهن واحد .. !

وهبطت غواصة الأعماق إلى ما دون ذلك وبيطء .. ومن فتحة الغواصة لاحظ الإثنان أن لون الماء أخضر .. أو أن هذه المنطقة من المحيط خضراء .. وكان عليهما أن يبعثا بإشارة صوتية تقول كل شئ تم كما تحبون ..

وفى العاشرة والنصف أرسلت الغواصة إشارة تقول : هبطنا إلى عمق مائتى متر .. الماء لونه أسود تماما .

ثم أرسلت الغواصة إشارة تقول : إننا ندور حول أنفسنا ونحن نهبط .. ولو كنا نرى شيئا من الفتحة الكريستالية لدخنا .. ولكننا لا نرى أى شئ ومن هنا وما زلنا نحفظ بشئ من العقل ..

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف أرسلت الغواصة إشارة صوتية تقول وصلنا الآن إلى عمق ألفي متر !

وفي الساعة الثانية عشرة أرسلت الغواصة إشارة أخرى تقول: وصلنا إلى عمق ثلاثة آلاف متر ..

وكان من الضروري الإبطاء في الهبوط . ولذلك أطلق الرجلان سراح طن من الرصاص الملتصق بالغواصة .. فخف وزنها . فأصبحت حركة الهبوط أبطأ .

وتوقفت الغواصة تماما ..

وبدأ الرجلان يفحصان الغواصة من الداخل . فلم يجدا أى تسرب للماء وفي هذا الوقت كان ضغط الماء يعادل ٥٩٠ طنا على البوصة المربعة . وكانت درجة حرارة الماء خارج الغواصة تصل إلى خمس درجات مئوية .. أما درجة حرارة البترول في العوامة التي هي غطاء للغواصة فتصل إلى ١٣ درجة مئوية ولذلك كان لا بد من الانتظار بعض الوقت حتى تنخفض درجة حرارة البترول ..

وهبطت الغواصة إلى عمق ٣٣٠٠ متر .. ومن الفتحة الكريستالية لاحظ الرجلان أن هناك كائنات غريبة وعجيبة .. أنواعا وأحجاما من الجمبري والكائنات الدقيقة الطويلة المضيفة .. وأحيانا يكون الضوء متصلا . وأحيانا يكون نوعا من البرق الباهر ..

وعندما وصلت الغواصة إلى انخفاض ٣٥٠٠ متر لاحظ الرجلان أنها تهبط بسرعة أكبر مما يجب . ولذلك أطلقا بعض كتل الرصاص المعلقة من الغواصة . وبسرعة توقفت الغواصة عن الهبوط ..

وفي الساعة الواحدة انطلقت إشارة صوتية من الغواصة تعلن لرجال

الصحافة والإذاعة أنها وصلت إلى عمق ٤٠٠٠ متر . وهذا أبعد ما وصل إليه أى إنسان !

وكانت للغواصة مصابيح قوتها ١١٠٠ وات . وانفتحت المصابيح كأنها عيون شيطانية .. وانكشف ماء المحيط .. وصرخ الرجلان الواحد بعد الآخر :  
إننا نكاد نرى قاع المحيط ..

وتدلت من الغواصة سلسلة كما فعل الإسكندر الأكبر ليعرف بها عمق المحيط .. وعرف الرجلان من طول السلسلة أن القاع على مدى ستة أمتار فقط !

وفى هذه اللحظة كان ضغط الماء على الغواصة قد وصل إلى تسعين ألف طن !

ومن الفتحة الكريستالية سجلت العدسات صوراً وأفلاماً للحياة عند قاع المحيط .. فهناك أسماك من أنواع نادرة غريبة اللون والشكل والحركة .. لم يرها أحد من قبل وكانت هذه الأسماك تتحرك برشاقة راقصات الباليه .. وأكثر هذه الأسماك لها عيون جاحظة – أى خارج الرأس . وهذه العيون تتحرك فى كل الاتجاهات ..

وكان من المقرر أن تظل الغواصة فى أعماق المحيط ثلاث ساعات على الأقل ترتاد هذا العالم المجهول . وبينما يتبادل الرجلان النظر من الفتحة الكريستالية سمعا صوتاً عنيفاً غريباً .. وتحول ماء المحيط إلى لون البحر .. وداخ الرجلان .. وتساند أحدهما على الآخر .. إنها إذن النهاية .. النهاية العميقة لهذه المغامرة الشجاعة من أجل العلم .

وبعد لحظات أفاق الرجلان .. فقد انفلتت البطاريات الجافة التى تمد المصابيح بالضوء .. هذه البطاريات كانت موضوعة فى أعلى الغواصة وزنتها ١٣٠٠ رطل ..

أما أحد الرجلين فقد جلس منهاراً ويقول لزميله : أنا رجل مغامر ..  
وأنت مهندس .. أنقذنا من هذه الكارثة .

وقال المهندس ضاحكا : أما أنا فسوف أنقذ نفسي . وعليك أنت أن  
تبحث لك عن طريقة للنجاة !

وفي مواجهة الموت والخطر يشعر الإنسان بشئ من اليأس . ومن هذا  
اليأس تنبع روح المرح كتعويض سريع عن خسارته الفادحة ..

ولذلك قال أحدهما للآخر : هل تعرف ماذا أعد لنا الطاهى اليوم من  
أنواع الشواء ..

وصرخ الثانى : فعلا .. عندى دجاجة مشوية .. إنها هدية من زوجتى ..  
لم يتسع وقتى لكى أشكرها على ذلك .

واقسم الرجلان الدجاجة ..

وأرسلت الغواصة إشارة تقول : نحن صاعدان . ونرجو أن يكتب الله  
لنا السلامة !

وأذيع النبأ فى العالم كله ..

وبعد لحظات توالى الإشارات بالصعود . وسرعة الغواصة ..

وبعد خمس ساعات و ١٤ دقيقة ظهرت الغواصة على سطح الماء .  
وانفتح الباب وخرج الرجلان . وتعانق الجميع .. وفرقت زجاجات  
الشمبانيا .. وامتلأت المنصة العائمة بالأطعمة الشبيهة .. وهنا الفرنسيون  
أنفسهم على هذا النصر العلمى فى كل مكان ..

وجلس الرجلان يقبلان فى برقيات التهئة ..

وفجأة وقف واحد منهم وهو المغامر « فيلم » وصرخ : اقرأ ماذا تقول

زوجتي .. إنها تقول : كان ولدنا جاك يتمنى أن يقبلك ويهنتك عند عودتك  
ما معنى « كان يتمنى » .

واتصل بزوجته تليفونيا وعرف الرجل أن ابنه الصغير أيضا حاول أن  
يقلده .. ففرق !

امسكوا قدامته ...  
لقد سرور الذهب وهرب

لو كانت في رأس واحد من الحاضرين شعرة واحدة لوقفت ثم سقطت في الحال فقد كانت لحظة رهيبه لم يسبق لها نظير في التاريخ !

فقد جلس ألف واحد خاشعين تماما . فالوقوف في غاية القداسة . الرؤوس انحنت . العيون أقفلت . الأعناق تدلت . الأيدي تشابكت . الألسن ابتلعت . الآذان انفتحت وتردد في هذا الصمت سؤال يقول : وقبل أن يخلق الله السماء كيف كانت هذه الدنيا ؟

وكان السؤال موجها في خشوع شديد إلى طالب غير عادى .. فقال الطالب : لا يمكن أن تكون هناك سماء قبل الله . فالله هو السماء !

واقنعت لجنة الامتحانات . أما المستمعون فقد سرت فيهم كهرباء من السعادة وعادت اللجنة توجه إلى الطالب سوؤالا آخر : وأنت بالذات قبل أن تولد أين كنت ؟

وأحنى الطالب رأسه ليقول : بل كنت في السماء .

وكانت السعادة واضحة على اللجنة وعلى الحاضرين . ولكي تنهى اللجنة امتحان هذا الطالب وتمنحه درجة الماجستير في اللاهوت قالوا له : اننا لا نريد أن نسألك شيئا أو في شيء . وإنما نتوسل إليك وحياة أملك المقدسة وقدميك الطاهرتين . وروحك التي ترفرف على أرضنا وقلبك الذي اتسع للملايين البشر . وابتسامتك التي ولدت منها الشمس أن تتفضل وتتكرم وتتواضع وتمنحنا البركة يا من أنت البركة !

ورفع الطالب يديه ليمنح الحاضرين بركته . ونهض الحاضرون جميعا ،

ورؤوسهم كلها قد حلقت بالموسى .. اللجنة بأعضائها ذوى الهى البيضاء وألف طالب خروا ساجدين وهنا فقط .. دخل اثنان من الضباط متلاصقين كأنهما مربوطان بسلك من حديد .. الوجه الصارم . العيون حمراء . الأرض تنكسر تحت خطواتهما . ولا بد أن يكون التاريخ قد سجل أنه فى يوم أول مارس سنة ١٩٥٩ وفى مدينة لهاسا عاصمة التبت اقتحم اثنان من ضباط الحامية الصينية قدس الأقداس لصاحب القداسة الدلاى لاما . فقد دخلا بغير إذن . ودخلا دون انحاء . وأعجب من ذلك أنهما يطلبان مقابلته مباشرة تصوروا مباشرة ، أى دون وساطة من كبير الكهنة ورئيس الديوان وقبل رئيس الديوان ، كبير الحرس . ثم كيف يدخل اثنان من الضباط على صاحب القداسة الدلاى لاما . الإله والرب الروحى للتبت ولم يخلق واحد منهما شعره .. إن هذا لشيء رهيب .. شئ فظيع ..

ولكن الضابطين لم يشعرا بشئ من ذلك . أو كانت التعليقات لديهما أن يتجاهلا أى شئ .. وبسرعة التف الرهبان حول الدلاى لاما . كما يلتف النحل الشغال حول ملكة الخلية لحمايتها من الدبابير .. ولكن الضابطين كانت لديهما تعليمات صريحة صارمة : نحن نريد تحديد موعد مع الدلاى لاما فوراً !

ومن المفروض ألا يسمع الدلاى لاما كلمة واحدة .. فهناك أناس معدودون فقط هم القادرون على أن يهمسوا فى أذن قداسته مباشرة . وكان هذان الضابطان يعلمان هذه الحقيقة فصرخا لكى يسمع الدلاى لاما .. إنهما إذن اخترقا المجال الجوى لصاحب القداسة . إنهما عدوان ولا شك . وفى اليوم الذى يحتفل فيه الدلاى لاما بنيل أعلى الدرجات العلمية فى فقه الدين البوذى !

أما تفاصيل هذا الحادث المروع فقد هز كيان العاصمة . وخرج الضابطان طبعاً ولكن المدينة لم تم .. وتهامس الناس . وقالوا : عدوان .. وقالوا ..

زندقة .. وتساءلوا عن صحة صاحب القداسة بعد كل الذى حدث .. وقالوا :  
إنه أغمى عليه .. وقالوا : صعد إلى السماء .. وأقسم أناس أنهم رأوه فعلا وهو  
يركب سحابة بيضاء . ومعنى ذلك أن السماء تدخلت فى الوقت المناسب .

وقبل أن تطلع شمس اليوم التالى كان الضابطان الصينيان فى طريقهما  
إلى قصر صاحب القداسة يلحان فى مقابلته لأمر هام محدد .

ولكن الضابطين فى هذه المرة سارا فى الطريق الشرعى . ذهبا إلى كبير  
الحرس . وقالوا نفس العبارة : نريد مقابلة صاحب القداسة الدلاى لاما لأمر  
هام .

واستطاع كبير الحراس أن يسأل : هل من الممكن أن أعرف السبب ؟

وكان الرد : أن قائد الحامية الصينية قد أقام حفلة استعراضية فى قلب  
الثكنات ويريد أن يتفرج عليها قداسة الدلاى لاما ..

واستطاع كبير الحراس أن يقول : سوف نعرض عليه الأمر .

وكان رد الضابطين : ومتى نعرف موافقته التامة على ذلك ؟

موافقته التامة !؟ – إذن ليست دعوة إليه إنها استدعاء ! المسألة خطيرة .

واجتمع الدلاى لاما بمجلس الوزراء وكبار رجال الدين .. وقال لهم :

– ما رأى .

تخبطت الآراء . العقلاء قالوا : يجب أن نفكر ؟

المتزمتون قالوا : بل يجب أن نرفض هذه الإهانة !

والدلاى لاما : لا رأى له عادة .

واحتشد الناس حول قصر الدلاى لاما . وجاء اليوم التالى والناس فى غاية  
القلق على ما حدث وما سوف يحدث . ولكن ثورتهم خرساء . إنهم يهزون  
رؤوسهم . ولا يجدون فيها شعراً كافياً ليشدوه أو يقطعوه ويتطلعون إلى

الشرفات المقدسة .. يرون بعض الملابس والوجوه والروؤوس تروح  
وتجى ..

وجاء الضابطان يلحان في أن تكون زيارة الدلاى لاما يوم ١٠ مارس  
على الأكثر . بشرط ألا يرافقه حراس . وإنما فقط خادم خاص وثلاثة من  
الوزراء . وأعلن هذان الضابطان أنهما سوف يأتيان ببطاقات الدعوة وبعد  
يومين ..

ولم يكن من الصعب على الناس جميعا في مدينة لاسا المقدسة أن  
يشموا رائحة الخطر وأن يدركوا أن صاحب القداسة في خطر . وأن قداسته  
لن تتمكن من حمايته من القوات الصينية .. وقد ترددت شائعات كثيرة  
بأن قوات صينية قد حملتها الطائرات ليلا ونهارا . وهذا طبعي . فإن رجلا له  
هذه القداسة لن يقوى عليه إلا ملايين الرجال . وقد لا يقدرّون أيضا .  
وهذا الخطر الصيني يخيف أبناء التبت وفي نفس الوقت ينفخ في كبرياتهم  
لأن الدلاى لاما من القوة بحيث لا يقدر عليه إلا جيش ! وأى جيش ؟  
جيش محمول على الطائرات !

وعادت الروؤوس التي خلت من الشعر تماما تتقارب وتتلصق ..  
الروؤوس والخلدود والأيدى والأنفاس وفي صمت يريدون أن يبحثوا عن  
إجابة واحدة لهذا السؤال : هل يذهب الدلاى لاما إلى الثكنات الصينية وحده؟

وكان الجواب : بل يهرب من البلاد كلها !

وأعلن في المدينة كلها عن طريق الأبواق التي يمسكها رهبان يقفون  
فوق الأسطح : يا أهل البلد .. يا أهل البلد .. إن صاحب القداسة تفضل مشكورا  
بزيارة الثكنات الصينية .. قفوا على جانبي الشارع في خشوع . ضعوا  
أيديكم وراء ظهوركم . لا تمسكوا عصا واحدة .. ولا طوبة .. ولا تقولوا  
شيئا .. الصمت عبادة .. !

وتزاحم الناس على جانبي الشارع العموى منذ المساء . حملوا طعامهم وفراشهم وأطفالهم . وبعضهم اصطحب الدواب والدواجن .. يريدون أن يذبحوها تحت قدمى الدلاى لاما .. أو يريدون أن تتبرك هذه الحيوانات بتنسم الهواء الذى يشمه . فتبيض الدجاج وتحمل الماعز وتلد الأم .. إنه يوم البركات .

وفى الليل انفتح الباب الخلفى من القصر وخرج عدد من الجنود يركبون البغال وكان بينهم ، أى بين الجنود، واحد لا يكاد يرى أى شئ أمامه فقد خلخع منظاره ووضع فى جيبه ولم يدر بوضوح كل ما يدور حوله .. هذا الرجل الذى ارتدى ملابس الجنود هو الدلاى لاما نفسه !

إنه قرر أن يهرب إلى الهند . وعليه أن يجتاز طريقا صعبا جدا فى بلاده الواسعة وأن يعبر الجبال المغطاة بالجليد دون أن يتنبه الصينيون إلى ذلك . . وأخطر من ذلك دون أن يتنبه أبناء التبت أيضا . وإلا امتلأت الشوارع بالدماء . . وهو يريد لشعبه السلام . وهو يعرف أن هذه الساعة كان من المؤكد أنها سوف تدق بعنف . . تدق رأسه وعرشه الدينى . . وأن عقارب هذه الساعة لا بد أن تطبق على عنقه . . فبلاد التبت واسعة وسكانها لا يتجاوزون عشرة ملايين بينما الصين تضيق بمئات الملايين من أبنائها . . سبعمائة مليون نسمة وأكثر . وأهل التبت زاهدون فى قيم الدنيا وزينتها – ومن الأفضل أن نقول إنهم جهلاء وكسالى . وهم أناس مسالمون لأنهم وثنيون بلهاء . لا بد أن هذه المعانى دارت فى رأس هذا الجندى فى ملابسه التنكرية .

خرج الدلاى لاما ورجاله من القصر . . واجتازوا الشوارع وهو يسمع الصرخات والهمهمات ولا يستطيع أن يرى الوجوه . . فقد أخفى منظاره وهم يقودونه هو وبغله وسط الزحام الهائل . وانتهى شارع . . ومن بعده شارع . . واتسعت أمامه الأرض العارية . . وجاء نهر صغير . . عبرت البغال . . وانضم إليه عدد من الجنود . . مائة . . وراء مائة . . ولكن أحدا

لا يدري ما سوف يحدث . . وبين لحظة وأخرى يتوقف أحد الجنود أيضا ويتحسس صندوقا فوق أحد البغال . . ويتأكد من أن أقفاله سليمة . . الصندوق مليء بالذهب . . وعندما عبر البغال أول نهر سقط كتاب الصلوات لبوذا . . وتشاءم الجميع . . ولكنهم تطلّعوا إلى وجه الدلاى لاما الذى لا يرى تماما ووجدوا ابتسامته العريضة واستمدوا منها الراحة التامة وواصلوا السير .

وعندما اقترب أحد رجال الدين من الدلاى لاما وهمس في أذنه قال : نعم يا صاحب القداسة . . إنها بخير لقد سافرت والدتك المقدسة وأختك المقدسة وأخوك المقدس في الصباح دون أن تدري أنت . . حرصا على صحتك !

إذن لقد هرب إخوته قبله . وكان من الممكن أن يقعوا في أيدي القوات الصينية . وكان من الطبيعى أن يسأل صاحب القداسة : ولكن كيف ؟

قال له أحد الحراس : انهم جميعا قد ارتدوا ملابس الرجال والنساء . . أخوك لبس كفتاة وأمك وأختك رجلا !

ومضت القافلة . .

وجاء الليل . وصعدت البغال أحد الجبال . الطريق ضيق صاعد . البرد شديد . الجليد يغطى كل شئ . طلب قداسته أن يضع المنظار على عينيه . . ولكن هذه الرغبة لم تتحقق بسرعة . فقد ذهب أحد الحراس يسأل رئيس الوزراء إن كان هذا ممكنا . وعاد الجندى يقول لصاحب القداسة إن هذا غير ممكن . ولكن يبدو أن صاحب القداسة أصر . . وعاد الجندى ينقل أوامر قداسته إلى رئيس الوزراء . وهنا تشاور رئيس الوزراء والوزراء . . وتقاربت البغال في الطريق الضيق . واستقر رأيهم على أنه لا داعى لهذا المنظار . وجاء الجندى يحمل قرار مجلس الوزراء بأن المنظار غير ممكن — وهنا هدد صاحب القداسة بأن يلتقى بنفسه من فوق الجبل . . وعاد الجندى ينقل هذه الكارثة إلى رئيس الوزراء في نهاية القافلة . وتقارب الوزراء . . وأخيرا قرروا

أن يسمحوا لقداسته بوضع المنظار على عينيه . . وبدلا من أن يذهب واحد ذهب اثنان معا ، واحد يمسك المنظار والآخر يرافقه . وفي اللحظة التي قدم فيها المنظار إلى صاحب القداسة جاء الجندي الآخر ودفع زميله فهوى على مرأى من صاحب القداسة إلى سفح الجبل . . تكسر المنظار والجندي معا . . وبذلك يكون قرار مجلس الوزراء بالألا يضع صاحب القداسة هذا المنظار قراراً نافذاً . وفي نفس الوقت حاول الوزراء أن يخبر صاحب القداسة أنه في الطريق إلى أن يكون مواطنا عاديا أو لاجئا سياسيا في الهند . . أى أنه ليس مقدسا . وإنما كان في يوم من الأيام مقدسا !

وفي الليل أوى الجميع إلى كوخ . ولم يدرك صاحب الكوخ من هذا الجندي الذي يحملونه فوق الأكتاف ولما رأوا في عينيه نوعا ساذجا من التساؤل قالوا له : إنه مريض .

ويقول الدلاى لاما في مذكراته التي عنوانها « مذكرات صاحب القداسة الدلاى لاما - شعبي وبلدى » : إنه عندما رأى هذا الرجل البسيط يكاد يعرفه استراحت نفسه فلم يعتد أن يكون مجهولا كل هذه الأيام الطويلة . واسترد قداسته أنفاسه عندما أضيئت الشموع ورأى الذين حولته ورأوه . .

وفي الصباح عبروا أحد الأنهار وسقطت مسبحة كانت تلتف حول عتق الدلاى لاما . وحاول بعض الرهبان أن يستردها من النهر . ولكنه أشار برجله أنه لا داعي لذلك . وأطاعوا - ومن حق الدلاى لاما أن يشير بأى شئ ليكون أمرا !

وبسرعة مرت من فوقهم طائرة صينية . وأصيب الجميع برعب مؤكد ولكن الطائرة لم تر شيئا هاما فهم قافلة تتحرك . وما أكثر القوافل .

ولكن الشئ الذي أفرع الجميع ، أنهم استمعوا في راديو صغير أن إذاعة صوت أمريكا تقول أن اضطرابات شديدة قد وقعت في عاصمة التبت .

وإن الأنهار قد زادت نهريْن آخرين : من الدم والدموع . . وأن الجميع قد عرفوا أن صاحب القداسة قد هرب : أى أن البلاد بلا رب . . فالشعب أصبح يتيماً . . لا أب له . . عارياً لا سماء له . . ملعوناً لا بركة فيه !  
وبكى صاحب القداسة . . وكاد يقرر العودة إلى بلاده لولا أن رئيس الوزراء والوزراء قالوا له ما معناه : اعقل أيها الشاب . . !  
ومضت القافلة ووصلت إلى الحدود الهندية . .

وكان الدلاى لاما قد تعب من ركوب البغال واحداً بعد واحد . ولا بد أن الذى أصابه هو نوع من الإمساك الشديد بسبب الإرهاق . . أو بسبب تناول أنواع من الأطعمة الباردة . أو لأى سبب آخر . . وابتهاجا بالوصول إلى الحدود الهندية قرر قداسته أن يذهب إلى دورة المياه – والحقيقة أنه لم تكن هناك دورة مياه ولكنى لا أجد التعبير المناسب لهذا المعنى !  
وكاد ينكشف للجميع . .

فقداسته له طريقة خاصة فى قضاء حاجته . وقد اعتاد عليها منذ الطفولة . وأنا مضطر أن أروى هذه الحادثة رغم أن المعانى التى تتبادر إلى الذهن ليست شيئاً مشجعاً أو مشيماً . جلس قداسته والتف حوله الكهنة ورفع ملابسه . ولكنه ما يزال يعانى من الإمساك الشديد . . وصرخ فيهم صرخة مقدسة . فبدأوا يقرأون التراتيل ولكنه ما يزال يعانى وأمر بأن يقرأوا بعض التراتيل التى تساعد على الإسهال . وقرأوا . وهم يتلفتون حولهم وفجأة ظهر جندى صينى وهربوا جميعاً . وتركوا قداسته يحاول .

وحاول ونجح . كاد الإله ينكشف عندما حاول أن يكون إنساناً ! ويبدو أن المنظر لم يعجب الجندى الصينى . وأدرك أنها لعبة مخيفة وأن هذا الشاب يلهو ويلعب . لوى شفثيه وبصق على الأرض . وأحس الجميع أن هذه البصقة هى نعمة من السماء . . فقد أنقذت الجميع . .

ودخل الحدود الهندية . . وعلى حدود الهند كان ينتظره ألوف من

المؤمنين به . . . وعبر الهملايا . . . واتجه إلى ولاية ميسور . . . ونزل في أحد القصور هناك . . . ومعه مجلس الوزراء وعدد من الرهبان . . . أقاموا حوله ونشروا ملابسهم البنية الداكنة وأقامت الحكومة الهندية سياجا من حوله . . . وحرسا لحمايته . . . وغسل الدلاى لاما وجهه لأول مرة واستحم وأصيب بزكام شديد . . .

واستمع إلى راديو بكين يقول : الدلاى لاما هرب إلى الهند بعد أن سرق كل التحف الذهبية . . . امسكوه حيا أو ميتا . . .

وفي أحد الأيام التي قرر أن يطل فيها بطلعته البهية على شعبه . . . استمع إلى ضوضاء شديدة . . . وصراخ . . . وتهديدات بلغة غير معروفة تتخللها كلمات إنجليزية وعربية . . . ويبدو أنه أشار بيده ولكن القوات الهندية اعترضت وتحدث رئيس الوزراء باللغة الفرنسية وجاء الرد باللغة الفرنسية أيضا بالامتنان . . . ولكن الحوار بين رئيس الوزراء وبين شخص ملفوف في بطانية ومحمول على محفة . . . ورأت الجماهير مريضا أبيض اللون جاء يتبرك بصاحب القداسة . . . فكان ذلك أعظم تحية لهم . . . فقد ظنوا أن قداسته وبركاته لا تتعدى حدود التبت . . . فإذا هي تغمر الجبال والوديان . . . الصفرة والبيض معا . . .

وحملوا المريض الذي يقول إنه جاء بالنيابة عن كل المرضى واليتامى والمساكين في العالم العربي وفي مصر بصفة خاصة وسكان عشش الترحمان بالذات - حيث توجد مؤسسة أخبار اليوم - وأنه قطع هذه الألوف من الأميال ليخطف منه بصيصا من البركة .

وأمام الدلاى لاما حلت البركة في المريض . . . ورفع الغطاء عنه . . . ونهض وأحنى رأسه ومد يده مسلما والتقط للدلاى لاما أول صورة له ولأمه ولوزرائه وأخته وأخيه في العالم كله ولم يكن مريضا . . . إنما هو صحفى تمارض لبروى قصته للعالم كله . . . هذا الصحفى اسمه : أنيس منصور . . .

عنى لا تكتب مذكراتك  
هذه هى الطريقة

في مثل هذا الشهر من ٢٧٠ عاما سافر أحد رجال الدين والعلم والأدب من دمشق إلى بيروت فألف في ذلك كتابا . وعشرات الألوف من الناس الآن يفعلون ذلك دون أن يولفوا كتباً أو يقولوا أنهم سافروا من دولة إلى دولة . لأن المسافة قصيرة . ولا تستغرق من المسافر أكثر من علبة سجائر يدخل نصفها والباقي يوزعه على غيره من المرافقين .

ولكن السيد عبد الغنى بن اسماعيل النابلسي قد ألف كتابا اسمه « التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية » . والكتاب نشره المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت . وقد حققه المستشرق الألماني هربيرت بوسه وفي مقدمة هذا الكتاب تقدم بالشكر للذين نبهوه إلى هذه المخطوطة النادرة .. ويشكر الدكتور صلاح المنجد الذي « حرضه » على البحث عنها وتحقيقها - هو الذي قال حرضه على ارتكاب عملية النشر . والمقصود « شجعه » على النشر !

أما الكتاب نفسه فأسلوبه عربي قديم مسجوع . والسجع في كثير من الأحيان متكلف . وبه مائة قصيدة نصفها من تأليف عبد الغنى النابلسي . والمستشرق الألماني يرى لهذا الكتاب أهمية خاصة في معرفة أحوال الإسلام والمسلمين في ذلك الوقت . ويقارن بين هذا الرحالة العربي ورحالة تركي اسمه أولياء شلبي .. ورحالة إنجليزي جاء إلى لبنان في نفس الوقت . ولكن كلا منهم عاش منعزلا عن الآخر .. النابلسي غارق في الصلوات والحمامات مع رجال الدين والفقهاء والرحالة الإنجليزي هنري موندرل مع الأوروبيين وأبناء البندقية . ولو التقي الرجلان لروى كل منهما قصة مختلفة عن نفس البلاد .

وكان النابلسي في الأربعين من عمره عندما بدأ رحلته .. يقول النابلسي في أول سطور الكتاب متحدثا عن نفسه طبعاً : « يقول روضة الآداب الندية والجامع من الفنون العلمية والأدبية ، سليل العلماء الأعلام ، الشيخ اسماعيل الشبير نسبة إلى الكريم ابن النابلسي . القادري مشرباً ، والحنفي مذهباً ، والمدمشقي موطناً ، والحاتمي تحقفاً ومعدناً .. » وهذا يكفي !

ولكني أرى لهذا الكتاب أهمية أخرى ..

فولفه يفعل بالضبط ما يجب ألا يفعله أي رحالة ، إنه لا يتحدث عما رأى من الأشياء أو من الناس . إنه يقول سافرت من مدينة كذا إلى مدينة كذا . ونمت حتى الصباح . بعد أن تعشيت وصليت وحمدت الله . ولكن كيف سافر ؟

كيف كانت وسيلة السفر ؟ كيف حاله ؟ كيف حال الناس ؟

ماذا رأى من الناس ؟ ماذا رأوا منه .. ما الذي أغضبه ؟

إنه لا يقول شيئاً .

إنه مثلاً عندما ذهب إلى المدينة المنورة في إحدى رحلاته اهتم بعدد النخيل وأنواعها . وكتب أن أنواعها ١٩٣ نوعاً .. وعندما ذهب إلى ميناء طرابلس وهي خاتمة هذه الرحلة اهتم جداً بأنواع الزوارق والسفن .. وعرف أن أنواعها عشرون نوعاً : الماعونة والغليون . والزربونة والغلياطة .. والقياسه . والشخوره .. والفلوكة .. والقارب والبرمه وغيرها ..

والكنن النابلسي صاحب الفكرة .. أو له غاية محددة .. وضعها أمامه : وهو أن يلتقي بالناس الطيبين يتناقشون في أمور الدين ، ويستمع إلى قضاياهم وفتاواهم . ويقول وينقل وهو في كثير من الأحيان صاحب الرأي السديد .. هذا رأيه ..

سافر إلى دمشق . وبات ليلة .. وبعد يومين سافر إلى جبل لبنان ..  
وكانت الطرق وعرة – لم يصفها لنا كيف كانت وعرة . وفي صيدا أقام  
أسبوعا وسافر إلى جبيل . ثم إلى طرابلس وأقام فيها أسبوعين ..

وصعد الجبال . وهبط الوديان . وكانت وسيلته هي البغلة . وقد تعبت  
البغلة من الصعود والهبوط وقال فيها شعراً .

ولكنه يبدو أنه رجل ظريف . وأنه يخفى وراء هذا الإطار الديني رجلاً  
رقيقاً ذواقاً . ولكنه يستحى أن يفضح نفسه . فقال : والآن في الغزل :

حواجب الغيد جل الله باريها والعشق أحلامنا بالشوق باريها  
ياجاذب القوس إنمكنك باريها خل التعب عنك واعط القوس باريها  
ويقول أيضا :

إن المحب إذا بكأ فاعذروه زاد ولوعه  
كالشمع يبكي في الهوى حتى تسيل دموعه

ويقول :

إيان هاج الهوى بين المنازل والربوع  
الناس تضحك فرحه والشمع يبكي بالدموع

ربما كان هذا اللطف ما في الرحلة كلها من شعر . وبعد ذلك ينتقل من  
مدينة إلى مدينة . وهو في الحقيقة ينتقل من مناقشة إلى مناقشة . أو من مشكلة  
إلى مشكلة . مثلا : مشكلة هل الصلاة في الصحراء ثوابها أكبر من الصلاة  
في البيت ؟

هل الصلاة في الحديقة أكثر ثوابا من الصلاة في البيت ؟ مناقشات  
وأحاديث نبوية صحيحة أو مكنوبة .. والنايلسي عادة هو صاحب الرأي  
الذي له معنى في النهاية .

وفي ذلك الوقت قرأ كتابا اسمه « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » من تأليف شمس الدين الدمشقي . والكتاب يتحدث عن أشياء غريبة وعجيبة ينقلها كما هي - والله أعلم - فنلا من أين جاءت الجبال والرمال . جاءت من الرياح « المحقونة » في الأرض المتموجة تحتها . فالرياح ترفع أرضا وتخفض أرضا . بل حدث أن زلزالا وقع فنقل أكثر من ٣٠٠ شجرة زيتون كانت في أعلى الجبل إلى بطن الوادي وكأنها غرست في هذا المكان . لا في مكان آخر ، فلا الأشجار تغيرت ولا الأرض تكسرت ، بل أن الرياح التي تخرج من بطن الأرض حملت أحد الأديرة كاملا بما فيه من رهبان وحيوانات وأدوات . « وتحرر بذلك محضر شرعى بإمضاء السلطان الملك الناصر » . بل أكثر من ذلك أن قرية كاملة بكل بيوتها وأهلها ونباتها وحيواناتها انتقلت من أعلى الجبل إلى بطن الوادي . فلم يشعر بذلك أحد من الناس .

وعندما أقام النابلسي في دمشق لاحظ أن العناكب لا تبني بيوتها في أركان المساجد أبدا .. ولا المصافير تعشش في المساجد مطلقا .. حتى الحيات لا تلدغ الإنسان ما دام في مدينة دمشق .

وقرأ النابلسي في كتاب « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » أن في البحر الأبيض أسماكا لها رأس أصلع ولها لحية وأنها حمراء اللون . وأن هناك أسماكا تمسك سيفا قصيرا في يدها .

ويتساءل النابلسي عن أصل كلمة ( كردى ) ومن أين جاءت فيقال له أن ملكا كان له في كتفه دملان .. أو عرقان نافرين . وكانا على شكل ثعبان . ولا يشفيهما إلا دم الإنسان . ولذلك كان هذا الملك يذبح كل يوم رجلا . فلما عرف الناس ذلك « كردوا » من الجبال - أى هربوا من الجبال . ومن هنا جاءت كلمة « الكردى » .. وهذا هو أصل الأكراد !

وإذا استطرد النابلسي ، وكثيرا ما يفعل ذلك ، يقول : لم نرجع إلى ما نحن فيه ..

ويبدو أن محاولات كثيرة بذلت لإقناعه بأن يركب البحر . ولكنه رفض . خاف . وفي ذلك يقول :

لن تركب البحر الخضم مهابة      بجلال خالقه فنه نفرق  
نخشى به غرقا ونخشى أسره      بركوبنا فهو العاد الأزرق

ولكنهم بعد ذلك أقنعوه فركب البحر في ميناء طرابلس وشارك في صيد الأسماك . وأعجب بها . وهو معجب عموما بكل طعام لذيقه . ويكفي أنه يصلى العشاء ، ويتناول العشاء وينام نوما هينئا حتى طلوع الشمس كل ليلة وكل صباح - منتهى الراحة .

ولكن يبدو أن هذه الراحة كانت في بعض القصور التي نزل بها . أما البيوت الأخرى التي يملكها الناس الطيبون من المريدين والحميين فكانت نوعا من العذاب . ولكن النابلسي احتمله .. مثلا :

براغيث كأفئال قصار      راعتنا بالخراطيم الطوال  
لنا أكلت جميعا من رؤوس      إلى الأقدام حتى للنعال  
وحتى نومنا أكلته أيضا      فأصبحنا كأمثال الخيال

ويعود يتوجع من البراغيث فيقول :

براغيث كأمثال الهنود      بأجسام صغار القد سود  
وقعنا في مخالها فعاتت      بنا وتواثبت مثل الأسود !

وبعد ذلك ذهب إلى بيروت . وبات في بيروت حتى الصباح . وبعد صلاة الظهر راح يتفرج على ما فيها من مساجد وحمامات . ففيها مسجد اسمه ابن الحمراء وفي هذا المسجد يقام الذكر والناس يتلون الأوراد ويحفظون القرآن .. ويقول إن الجامع الكبير في بيروت كان أصله كنيسة .

ومن بيروت يتجه إلى طرابلس وهي الغاية من هذه الرحلة كلها .  
فالطريق به بساتين . والبساتين بها رياحين . والصدر منشرح . والقلب  
متفتح . والشيخ في غاية السرور . وهناك نهر اسمه نهر الكلب . ويقال إن  
هناك تمثالا لكلب . وكان الكلب إذا رأى سفينة قادمة للعدو عوى مرة  
واحدة .. وإذا رأى اثنتين عوى مرتين . وهكذا يتنبه الناس لملاقاة العدو ..  
انه صفارة إنذار أو شبكة رادار ومن هنا كان اسم النهر .

ويعلق على ذلك بقوله : وهذا من العجائب والله أعلم بالصواب .

وفي طرابلس لقيه الحاكم والناس جميعا بالترحاب . وكشفوا له عن  
نفوسهم : قضاياهم وألغازهم الشرعية والفقهية . وهو يعرضها في رحلته .  
ولا أعرف كيف استطاع أن يحلها . مثلا إذا كان هناك رجل قد تزوج ثلاثا  
فقال لكلب واحدة منهن على حدة . إذا طلقتك فالأخريان طالقتان ؟ ثم طلق  
الأولى مرة واحدة ، فما حكم الشرع في الزوجتين الأخريين ؟ إنها فزورة  
صعبة جدا ولكنه استطاع أن يحلها وأن يستحق التكريم من كل الناس .  
ولكنني أعتزف بأنني لم أفهم الحل !

معضلة أخرى من طرابلس أيضا :

قال رجل لزوجته وهو على فراش الموت : إن دخلتما هذه الدار فأنتما  
طالقان فدخلت الإثنتان معا . ومات الزوج فما حكم الشرع في الميراث وفي  
الطلاق بعد موت الرجل ؟

واستطاع النابلسي أن يجد الحل .

ولا أجد حرجا في أن أقول إنني لم أفهمه أيضا . ولكن الناس في مدينة  
طرابلس في شهر سبتمبر سنة ١٧٠١ ( ١١١٣ هجرية ) قد أعجبوا به  
وحمدوا الله أن جعل من بين عباده أناسا قادرين على معرفة الحق من الباطل  
مهما التوى الباطل وتحول إلى عقده في خيط حرير لا يمكن أن تراها العين

المجردة .. ولكن النابلسى استطاع أن يرى العقدة وأن يحلها وأن يريح الناس ،  
وبعد ذلك تناول طعامه الشهى والفاكهة ونام حتى الصباح ..

ومن القضايا الصعبة التى أفتى فيها أكبر علماء ذلك العصر : هل التدخين  
حرام أم حلال ؟

وكان جواب الرجل : إذا كان الذى يدخن يشعر منه بتعب فى صدره  
فهو حرام . وإذا لم يشعر بشئ من ذلك فهو حلال – أى أن الذى يحرمه  
الدين هو الشئ الضار . والذى يحلله هو الشئ النافع . وهذا رأى سلاح  
ذو حدين أيضا . ولكن الناس استراحوا إليه وتمابلوا وتصايحوا وتعانقوا .  
وكاى لا بد أن يشكروا الله على ما أولاهم من فضل وعلم ..

« ثم جئت إلى منزلنا الرحيب والمكان الخصب .. حتى أسفر الصباح  
ونادى مؤذن الفلاح » – وهى عبارة يتكرر معناها كل صباح .

ثم هذه القضية : ما هى الضرورة أن يكون للعمامة طرف يتدلى على  
القفا .. هذا الطرف اسمه « العذبة » .. وله فى ذلك رأى . ويرى هو أنه  
حسن ولطيف .

ما حكم الشرع إذا قال رجل أن أملاكى موقوفة على جميع ولدى  
ومات .. فهل ترثه بناته ؟

والجواب أن كلمة : الولد تنطبق على الذكر والأنثى . لأن الولد من  
الولادة . ومعنى ذلك أن كل أولاده ذكورا وإناثا ، لا بد أن يرثوه – معقول !

وفى بعلبك رأى الأحجار الضخمة والأعمدة الفخمة ، واستطاع أن  
يعرف عددها . وانتهى عند ذلك . ولم يعرف ما الذى فعله العلماء فى القرن  
العشرين عندما قالوا أن هذه الأحجار لا يمكن أن تكون قد قطعت من جبال  
لبنان . وإنما لا بد أن تكون قد جاءت من أسوان .. وأن هذه الحجارة قد  
حملت من أسوان إلى بعلبك بطريق الجو .. وأن ذلك قد حدث من عشرات

الألوف من السنين . فقد كانت هناك كائنات أكثر عقلا وذكاء قد أقامت على هذه الأرض بعض الوقت - ولأسباب لا نعرفها نحن الآن - عادت إلى أماكنها من كواكب أخرى مستخدمة سفن فضاء هائلة - ربما كان القمر إحدى هذه السفن(\*) ...

وهذه نظرية سوفيتية حديثة جدا .

وفي نهاية كتاب « التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية » يقول المؤلف :  
« وقد وافق الفراغ من تكملة هذه الرحلة المباركة إن شاء الله تعالى عشية النهار الأحد ثاني عشر من ذي القعدة الحرام سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف على يد ناسخه الفقير إلى رحمة مولاه اسماعيل النابلسي غفر له ولوالديه وللمسلمين آمين » .

وأعجبني من النابلسي تشجيعه للناس على السفر وعلى الانتقال من مكان إلى مكان وفي ذلك يقول :

سافر إذا حاولت قدرا      سار الهلال ، فصار بدرا  
والماء يكسب ما جرى      طيبا ويخبث ما استقرا

.. أحسنت يا أستاذ نابلسي !

---

(\*) راجع كتاب ( الدين هبطوا من السماء ) .

إلى العِمر..

سِرًّا على الأقدام!

انها مجرد غلطة . فقد كان في نيته أن يسافر إلى داخل الولايات المتحدة . ولكنه وجد نفسه يحجز تذكرتين إلى مدينة جوهانسبرج في جنوب أفريقيا . أما زوجته فترى أن هذه أجمل هدية – غير مقصودة – قدمها زوجها في عيد ميلادها وضحك الاثنان .

وبدأ يجمع معلومات عن أفريقيا التي سوف يسافر إليها . وينتظر هذه الفرصة لكي يعرف هذه القارة السوداء التي لم تعد سوداء .

وكان لابد أن يبدأ رحلته من لندن ذهابا وإيابا . وأمسكت زوجته أحد القواميس ، وتحتته كلمة أفريقيا وجدت سطورا تقول : إنها تسع خمسة أقاليم كالذي ينير لها .. وبلجيكا تملك منها مستعمرات أكبر منها ٨٨ مرة .. وبريطانيا تملك مستعمرات أكبر منها ٣٠ مرة .. والبرتغال أكبر منها ٢٣ مرة .. وفرنسا أكبر منها ٢٠ مرة .. إنها ثاني قارة على الأرض من حيث الضخامة . فآسيا هي الأولى طبعا .. والصحراء الأفريقية أكبر مساحة من الولايات المتحدة ، وإذا قورنت الدول الأوروبية بدول مثل غانا ونيجيريا والكونغو وتنزانيا ، فإنها تعتبر مجموعة من الأقزام ..

ثم أقفلت القاموس ، ومضت تقول لزوجها الرحالة ويلارد برايس : أما الباقي فقد حفظته قبل ذلك .. فالنيل أطول نهر في العالم . وشلالات فكتوريا أكبر من شلالات نياجرا على حدود أمريكا وكندا .. وقناة السويس ضعف قناة بنما .

ولكن الزوج كان مهموما .. فإن هذه الرحلة ستجدها الزوجة متعة ولا شك ، أما هو فسوف يؤلف عنها كتابا لا بد أن يكتب . أى لا بد أن ينقد ويصور كل ما يراه ويسمعه .. انه مثل الناقد الرياضى فى مباريات كرة القدم لا يستمتع باللعب وإنما يحسبه ويكتبه ، ويسجله . إنه مثل التلميذ فى السنوات الأولى فى كلية الطب بمضغ الطعام ويتابعه من الفم إلى البلعوم إلى المرئ إلى المعدة .. ويتابعه بعد ذلك فى أمعائه .. إنه بذلك لا يجد متعة فى الطعام ، وأكثر من ذلك أن يتوهم أمراضا لا وجود لها ..

ولما وجدت الزوجة أن زوجها بدأ يرتدى ملابس الرجل الرحالة المهموم قالت : أعود إلى القاموس : وأفريقيا هى الموطن الأصلي للفيل وهو أكبر حيوان فى العالم ، والموطن الأصلي للزرافة . والكركدن الأبيض ، والأسد ملك الغابة .. والجاموس البرى وهو أكثر حيوانات الغابة شراسة ، وفى أفريقيا أكبر أنواع الزواحف : التمساح الذى عبده الفراعنة ، وقد حدثنا هيرودوت عنه .

هذا المؤرخ هيرودوت -- كلامى أنا -- قد شوه سمعتنا كما لم يفعل أى زائر إغريقى إلى مصر . فقد كتب أنه لم يستطع أن ينام فى مدينة منف بسبب بكاء التماسيح طوال الليل ، ومنذ ذلك اليوم والعالم كله يتصور حتى أيامنا هذه أن التماسيح ما تزال تلعب فى النيل . بل إن الرئيس جمال عبد الناصر قد سأله أحد الزعماء السوفيت إن كان النيل ما يزال مليئا بالتماسيح ..

ولو قال أى مصرى مهاجر فى أمريكا وأستراليا أو كندا أنه عندما جاء إلى القاهرة يزور أهله : لم أتم تلك الليلة -- من الفرحة طبعاً -- لوجد من يقول له : بسبب بكاء التماسيح !

منه لله هذا المؤرخ الأغرريقى هيرودوت !

وتعود الزوجة إلى القاموس فى محاولة بائسة للتخفيف عن الزوج المهموم :

وبعض القبائل الأفريقية تعبد نوعا من الثعابين اسمه : الأصلة .. وفي أفريقيا أعظم أنواع الغوريلا والشمبانزى .. وهذه الحيوانات موجودة في أفريقيا وحدها وبكثرة .

وحتى لا يبدو الزوج ويلارد برايس أنه تعيس بسبب هذه الغلظة فقد أقنع نفسه وحاول أن يكون لطيفا مع الزوجة ، وقال لها : ان العلماء كانوا يعتقدون أن آسيا هي الموطن الأصلي للإنسان الأول ، ولكنى أعتقد أن الإنسان الأول كان هنا في أفريقيا .

وبهذه العبارة بدأ الدخول في « جو » الرحلة التي سجلها ويلارد برايس في كتاب عنوانه « أفريقيا - ذلك اللامعقول » وقد جعل ثلث الكتاب صورا، وبعده جاء الأديب الأمريكي أرثر ميللر فكتب رحلته المشهورة « في روسيا » وجعل ثلث الكتاب بقلمه والباقي كله من تصوير زوجته ، وقبلهما الكاتب الفرنسي أندريه موروا ألف كتابا في أربعين صفحة .. أما بقية الكتاب وتبلغ ٢٥٠ صفحة فهي مجموعة من الصور الرائعة، الكتاب عنوانه «باريس بالليل » وهو تحفة أدبية وفنية معا .

يبدأ الرحالة كتابه بأن يلفت عين القارئ وعقله إلى عبارات حادة جافة كتبها العالم الكبير داروين في كتابه « أصل الأنواع » ، يقول داروين وأرجو أن تقرأ بعناية جداً هذه الكلمات التي أنقلها بدقة : في كل منطقة كبيرة من العالم نجد أن الثدييات التي ما تزال باقية . كانت لها صلة وثيقة بالأنواع المنقرضة في نفس المنطقة .

ويقول داروين بعد ذلك : ولهذا السبب ربما كانت أفريقيا قد عاشت فيها قرود منقرضة كانت لها صلة وثيقة بالغوريلا والشمبانزى ، وهاتان الفصيلتان من القرود أقرب شبيها بالإنسان ، فلعل أجدادنا قد عاشوا في القارة الأفريقية لا في قارة أخرى ..

ثم هذه العبارة لداروين : ولكن يجب ألا ننزلق إلى الخطأ ونقول إن أجدادنا كانوا مطابقين أو متشابهين تماما لأي قرد من القرود الحية .

هذه العبارة الأخيرة لم يذكرها أحد في المائة سنة الماضية ، ولكن العلماء يذكرون العبارات السابقة فقط ، ويحاولون أن يربطوا بين الإنسان والقرود . ويحاولون أيضا أن يبحثوا عن المرحلة التي تحول فيها القرود إلى إنسان - هذه المرحلة المفقودة . ولذلك فالعلماء ينشئون الأرض بحثا عن هذه المرحلة المفقودة بين الإنسان والقرود ، ومن الغريب أنهم عثروا على شيء من ذلك في أفريقيا في السنوات ١٩٢٥ و ١٩٣٦ وأخيرا في ١٩٥٩ وجدوا ما يمكن أن يوصف بأنه « الحلقة المفقودة » بين الإنسان والقرود وفي تنزانيا . ولذلك فعدد كبير من العلماء يرى أن آدم عليه السلام نزل من السماء وهبط إلى تنزانيا وليس فوق جبل آدم في جزيرة سيلان(\*) .

وأفريقيا كانت مهدا لأكبر وأول حضارة عرفها الإنسان : في مصر . وفي مصر أيضا الأهرام واحدة من عجائب الدنيا السبع ، وإذا كان في أفريقيا الآن ثلاثة آلاف لغة . فالعلماء يتوقعون في المستقبل أن تتحد هذه اللغات وتصبح ثلاثا فقط ، ولم يحدث في تاريخ البشرية أن هبت الشعوب إلى الاستقلال والحرية بهذه الكثرة والقوة . كما حدث في أفريقيا ..

أما الصورة التي تخيلها الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو أن سكان أفريقيا هم « هؤلاء البدائيون النبلاء السعداء » - فهي صورة جميلة ، فليسوا سعداء إلى هذه الدرجة ، ففي أفريقيا فقر وجهل ومرض وخرافات ، وما تزال فيها قبائل ترى العفاريات تحت كل شجرة .

ولابد أن العالم كله قد شعر بالعار يوم ٥ يناير سنة ١٩٥٩ عندما نقلت صحيفة « نيويورك تيمس » الأمريكية أن ثورة نشبت في الكونغو . بصراحة : لم يكن في وزارة الخارجية الأمريكية شخص واحد يعرف شيئا عن هذه المستعمرة البلجيكية ، ولم يستطع أكثر الناس علما أن يتصور أن الكونغو سوف تكون جمهورية مستقلة بعد ١٨ شهرا ..

---

(\*) راجع كتاب « حول العالم في ٢٠٠ يوم » .

وبدأت الرحلة من لندن ..

وحلقت الطائرة فوق جبل طارق بن زياد ، وهذا الجبل قد نسب إلى القائد العربي الذي حمل الحضارة إلى أوروبا التي خمدت أنفاسها تحت الجهل ، وكان الأغر يق يرون أن عند هذا الجبل ينتهى العالم .. وفى الطائرة استمع إلى حوار بين رجل وابنه الصغير . قال الابن : وسرى عددا من أكلة لحوم البشر فى بلاد المغرب .

فقال الأب : انهم ليسوا متوحشين ، لقد كانوا مصدر الحضارة الأوروبية . وهنا تدخلت الأم بغضب قائلة : لا تحاول بلبله أفكار الطفل يا عزيزى .

وكان الأب على صواب ..

وهبطت الطائرة فى مراكش .. ثم ارتفعت وهبطت على الساحل الغربى وفى مدينة داكار ركب سيارة إلى أطراف المدينة .. النساء عاريات .. نصف عاريات . ومن الغريب أن الصدور ليست بارزة رغم أن الفتيات صغيرات . وتساءل : قيل له إن الفتاة تعمل باستمرار على أن يبدو صدرها مترهلا لتوهم الآخرين أنها حملت وأرضعت كثيرا . أى أنها امرأة خصبة .. فالرجل لا يجب أن يتزوج امرأة لا تنجب له الأطفال ..

ومن هذه المنطقة فى بلاد السنغال كان يجرى شحن الزنوج إلى أمريكا أيام تجارة الرقيق ..

غلطة أخرى ارتكبها الرحالة ويلارد برايس .. فقد شكوا من صداع شديد وتناول قرصين من الإسبرين ولكن الصداع لم يذهب فعاد يتناول قرصين من الحبوب المنومة وكانت زوجته تعرف أن الصداع إذا ما أصاب زوجها فسوف يشكو من الأرق أياما وبذلك تفسد الرحلة كلها .. وانتهزت الزوجة فرصة أن زوجها قد نام قليلا وأخرجت حقنة مخدرة وأنفذتها

في ذراعه .. ونام الزوج .. وهبطت الطائرة ولا يزال الزوج نائما وحملوه على نقالة إلى أحد المستشفيات . وظل الزوج نائما ، وتساءلوا : إن كان الزوج قد جاء إلى أفريقيا قبل ذلك . فقالت الزوجة : هذه أول مرة ..

ولما سألت عن السبب قيل ربما لدغته ذبابة تسمى تسي التي يظهر مفعولها المرضى بعد ست سنوات .

ولما فتشت الزوجة في جيوب زوجها اكتشفت أنه - على سبيل الخطأ - ابتلع أكثر من عشرة أقراص منومة .. وحملوه وهو نصف نائم بعد أيام من الصعود والهبوط إلى شلالات فكتوريا لعله يصحو . وبدأ يفيق عندما قالوا له أن أمريكا مجنوننا طلب من حكومته شراء هذه الشلالات ، ولما ضحك ، أدركت الزوجة أن زوجها قد أخذ يفيق ، وأفاق ..

نحن هنا في قلب القارة الأفريقية .. أعظم غابة على سطح الأرض ، والفرق بين الغابة وبين حديقة الحيوانات أن الإنسان في الحديقة حر طليق ولكنه في الغابة لا بد أن يعيش في أقفاص أو في سيارات أو في حراسة مشددة ولذلك فالأفضل أن يشاهد هذه الغابة العظيمة من الجو ، وركب طائرة ذات محركين وراحت تعلق وتهبط وتصل في هبوطها إلى مستوى الفيلة والزرافات أما الفيلة فلا تهتز كأن شيئا لا يتحرك فوقها أما الزرافات فكانت أسرع الجميع ..

وتزاحم الركاب على أصوات الحيوانات يلتقطون الصور في سعادة وجنون ولكن شخصا واحدا كان يبعث على القرف - ومعه حق - لأنه الطيار نفسه فهو يدخن دون أن ينظر إلى شيء حوله أو تحته فقد رأى ذلك ألوف المرات ، إنه محروم من نعمة الدهشة أو لعله قد ذاق طعامها مرة أو أصبحت ذكرى !

والتعليقات في كل مكان تطلب إلى الزائر ألا يخرج وحده في الليل .. أو بعد الغروب بصفة خاصة ، والسبب معروف طبعاً .

أما صحراء كلهارى ففيها أعجب أنواع البشر وفيها هؤلاء الأقزام - البوشمان -  
إنهم يمشون كأنهم مكسحون ولكن إذا جروا فهم كالرياح .. ويرون بالعين  
المجردة ما لا يراه التلسكوب . وهم فى حالة هياج جنسى دائم .. حتى الثمانين  
من العمر ، وهذا من دواعى فخرهم ، ولذلك فصفتهم وأسماؤهم مأخوذة  
من هذه الحالة الجنسية الغريبة .

أما طريقتهم فى صيد الأسود فمجموعة منهم يأتون إلى الأسد بغزاة صغيرة  
ويطلقونها أمامه ، فإذا هجم عليها أطلقوا عليه سهاماً شديدة السم وبعد ذلك  
يستخدمون نفس الأسود فى صيد حيوانات أخرى .

أما أساليبهم فى الغزل والزواج فهى قريبة من ذلك أيضاً ، فهم يصنعون  
سهاماً صغيرة جداً ويغمرونها بالعطر فإذا رأوا الفتاة أطلقوا السهم على ثوبها ،  
وطبعاً سوف تنظر الفتاة بكل خجل مفتعل إلى مصدر السهم ، فإن أعجبها  
صاحب السهم ، أبتت السهم فى مكانه ومعنى ذلك أنها وافقت على الزواج  
منه وإذا أخرجت السهم وكسرتة فعنى ذلك أنها رفضته زوجاً ولا تنطلق  
السهم عادة إلا إذا كان الرجال أو الشبان عراة تماماً .

وفى الليل جاءت ذبابة ووقعت على ذراع الرحالة برايس . ونفخها  
أحد الزنوج ، الذبابة اسمها : تسمى تسمى . وهى تقتل الكثير من الحيوانات  
ومن المواطنين وذلك بأن تجعلهم ينامون حتى الموت ، أو يموتون أثناء  
النوم .. وهى لا تصيب الرجل الأبيض .

ومن حين إلى حين يكتب الرحالة برايس مذكراته . وفى إحدى الليالى  
اكتشفت الزوجة أن زوجها يصل إلى جوار السرير ويقول : يارب خلصنى  
من الرحلة السوداء فى القارة الأكثر سواداً .

إذن لقد تعب الرجل ..

وهو معذور ، فالليل مخيف ، والنهار مرهق ، وهو حريص على أن يدخل

الغابة ، وأن يرى عن قرب وأن يسمع ، وأن يسجل بالصورة وبالقلم ،  
وفى أحد الفنادق الصغيرة أشاروا عليه بأن يختار حارسا يجلس تحت نافذته  
طوال الليل ، وفى الليل جاء الحارس : رشيق ظريف ، ومعه بندقية وكثير  
من الطلقات ، ولم يكد ينام الزوجان حتى ففزا من السرير ، لقد سمعا صوت  
أسد جريح .. ثم صوت نمر .. وإذا صحت درايتهما بالأصوات التى استمعا  
إليها مسجلة على اسطوانات ، فإن هذا الصوت الأخير صوت ثعبان وهو  
ينهش طائرا كبيرا .. وفجأة ساد الصمت .. واقترب الاثنان من النافذة  
ووجدا الحارس فى مكانه هادئا ، وفتحا النافذة وسألاه عن هذه الأصوات  
ولم يفهما منه أى شئ وفى الصباح عرفا أن الحارس هو مصدر هذه الأصوات ،  
إنه يخيف الحيوانات المفترسة حتى لا تقترب ..

يقول الرحالة برايس : انه ليس أحسن من الصدفة السعيدة بالنسبة  
لأى مسافر ..

أما الصدفة السعيدة فإنه قد وجد طائرة يملكها أحد الأمريكان ..  
هذه الطائرة أقسمت زوجة هذا الأمريكى ألا تكون مع زوجها وحدها فى  
مكان واحد .. أبدا .. لاغرفة النوم .. طبعا ولا السرير .. ولا الطائرة ..  
بعض علماء النفس يشخصون مرضها بأنه « جنون صاحبات الملايين » أى  
أن المطلوب هو أن يكون هناك آخرون وقام الرحالة وزوجته بدور حاجز  
الصوت ، أو مانع الصواعق بين المليونير صاحب الطائرة والمليونيرة زوجته .

وهى صدفة سعيدة لأن الزوجة أقسمت برحمة أمها فى ذلك اليوم  
بالذات ألا تنفرد بزوجها وألا يفعل هو ذلك ، وفى نفس اليوم أقسم الرحالة  
ألا يسافر فى سيارة وحده هو وزوجته وسط الغابة حتى لو مات فى تنجانيقا ..

والغلطة الثالثة التى ارتكبها الرحالة هو أنه لم يسأل صاحب الطائرة  
أين يذهبان . وإنما فرح بوجود طائرة . وفرح بالاستمتاع المفاجئ بما

يستمتع به أصحاب الملايين الذين يفضلون الزوجة المتعبة على الطلاق السعيد  
لأن الطلاق معناه أن تنال الزوجة المليونيرة نصف ملايين الزوج !

وانجهت الطائرة إلى جزيرة زنبار على الشاطئ الشرقى لأفريقيا وانفتح  
باب الطائرة وكأنه انفتح على أحد معامل العطور في باريس . فهذه الجزيرة  
الصغيرة معناها مدينة « القرنفل » وهذا واضح من الرائحة . ومن النسيم  
الذى يلف الفتيات الجميلات اللأى ارتدين السارى الهندى . وعلى الرغم  
من أن الجزيرة ملاصقة لقارة أفريقيا ، فإن أكثر أهلها من الهنود . أما العرب  
فيمكن تمييزهم . فهم الذين يضعون صورة جمال عبد الناصر في داخل  
المحلات أو على أبوابها . وهذه الجزيرة تصدر ٨٠٪ من قرنفل العالم كله  
الذى يستخدم في العطور وفي منع تسوس الأسنان وتسكين الألم .. وقبل  
اختراع الإنسان للثلاجة كانت أوروبا تحفظ اللحوم في القرنفل والقرفة .  
وهذه البخنة الصغيرة ، ككل جنة لا تخلو من الحيات .. فالخلاف شديد بين  
الأفارقة والهنود والعرب .. وهذا هو التسوس الوحيد الذى لا يستطيع القرنفل  
أن يقضى عليه .

وعندما عاد الرحالة برايس إلى تنجانيقا أعجبه أنواع غريبة من الحيات .  
بعضها يصل إلى ثلاثين قدما . مثل ثعبان الأصله . وهو غير سام .  
ويمكن تربيته في البيت . وهو نادر - لا يلدغ .. والخدمة الوحيدة  
التي يؤديها لأهل البيت هو أن يأكل الديدان والفئران والطيور . وفي حالة  
الغضب - وهى نادرة - لا يلدغ أحدا وإنما فقط يلتف حوله ويعتصره -  
وإذا كان من الصعب عليك أن تفهم هذه الصورة فإذهب إلى أى محل عصير  
قصب وتحيل نفسك عودا من القصب !

وهناك نوع آخر من الثعابين النفاثة .. هذه الثعابين تستند إلى مؤخرتها  
وترفع جسمها ورأسها إلى ما يقرب من رأس الإنسان . وهى قادرة على أن  
تطلق من فمها قذيفة إلى العين . وهى لا تخطئ أبدا . هذه القذيفة الدقيقة

عبارة عن سم مركز يصيب العين بالعمى .. والباقي معروف - في الليل أو النهار وكل الثعابين تهتدى بالأشعة الحمراء - وكل الثعابين لا ترى . وإنما هناك حول العين توجد خلايا ضوئية . تتأثر بالأشعة تحت الحمراء وتوجه الثعبان إلى حيث يريد - هذه معلوماتي أنا ..

وفي بحيرة فكتوريا وجد عدداً كبيراً من حيوان السيد قشطة .. عيونها جاحظة تحت الماء .. وهذا الحيوان قادر على أن يخفى تحت الماء أربع دقائق ثم يطفو .. هذا الحيوان لا يصيب أحداً بضرر إلا إذا - وعشرات من كلمة « إلا » - أى إلا إذا عاكسته .. إلا إذا عاكست صغاره .. إلا إذا لمست قرنيه .. إلا إذا سلطت عليه الأضواء .. إلا إذا ضربته بأى شئ .. وهو حيوان يحب المداعبة فقد حدث أن طارد سيدة أمريكية شقراء .. فهربت منه فوق إحدى الأشجار فزق فستانها وقيص نومها .. إلى آخره - وعندما عاد إلى الماء وجدوا السيدة بلا جروح . انه كان يداعبها فقط وعندما ذهبت أنا إلى هذه المنطقة سمعنا هذه النادرة وكانت ترافقنا سيدة أمريكية أطبقت عينها وشفيتها وانطوت على نفسها .. لا تريد أن ترى أو تسمع أو ترانا أو تسمعنا .. وسألنا إن كان السيد قشطة بالذات موجودا وإن كان ما يزال يحب المداعبة وقيل لنا إنه مات وكان موته حرمانا لنا من رؤية فتاة أمريكية جميلة ..

لم يبق من رحلة الصديق العزيز ويلارد برايس سوى أن يذهب إلى جبال « رونزورى » التي وصفها تشرشل بأنها قطعة من الجنة : النباتات والحيوانات والصعود والهبوط . وهذه الجبال لها خمس قمم : هذه القمم مغطاة بالجليد .. وتحت الجليد ستائر كثيفة من السحب .. وقبل السحب توجد حديقة نباتات .. وألوان وأحجام ومساحات من الأشجار الغريبة العجيبة وفي هذه المنطقة تمنى أمين باشا في أواخر القرن التاسع أن يدفن هنا ولكن العرب استطاعوا أن يحرموه من هذا الحلم . قتلوه قبل أن يصل إلى السفح .. وأمين

باشا هو طيب ألماني كان مرافقا لغوردون باشا واسمه إدوارد اشتتسلر  
ثم اختار له اسما تركيا . وكان عميلا . وكان معاديا لأهل البلاد .. ولما  
عرفوا حقيقته قتلوه على باب الجنة ..

هذا الجبل رونزورى له اسم آخر هو « جبال القمر » وربما اختاروا  
له هذا الاسم لأنه غريب عجيب .. كأنه من كوكب آخر .. أو  
لأن أهل البلاد يرون أن القمر يظهر منه ويختفى فيه بسبب السحب الكثيفة .  
أو أنه ينام ويصحو فيه .. ولو عرف أهل اسكتلندا الذين يتفاءلون بنبات  
الخلنجان كم يوجد من هذا النبات بهذه المنطقة لجعلوا حياتهم هنا .. ان هذه  
الجبال طولها ستون ميلا وعرضها ثلاثون .. وعشرات الألوف من الأقدنة  
مزروعة بهذا النبات الجميل .

وكان من نصائح أهل هذه المنطقة أن الذى يصعد جبال القمر على قدميه  
يطول عمره ولكن من أدرانا أن هذه الخرافة حقيقية . وتلفت الرحالة برايس  
إلى زوجته وهزت كتفها أنها لا تستطيع طبعاً أن تصعد هذه الألوف من  
الأقدام .. ولكن أهل هذه البلاد يعرفون هذه الحقيقة ولذلك وجدوا لها  
حلا : أن يخلع الرحالة برايس حذاءه ويعطيه لأحد الشبان المشهورين بصعود  
الجبال .. ويرتدى الشاب هذا الحذاء ويصعد به ألفا وألفين .. وثلاثة  
آلاف .. ثم يعود إليه .. وبعد ذلك عليه أن يرتدى حذاءه إن كان يصلح  
وسوف يعيش عمرا أطول من حذائه .. أما الحذاء فقد تمزق تماما ولكن  
الرحاله برايس احتفظ بحذائه فى صندوق زجاجى لعله يعيش أطول من  
حذائه – ومن النادر أن يحدث ذلك لأى أحد . فأعمارنا أقصر من حياة  
أحذيتنا !

واعز...  
لا يرید أن یسی نفسه

هذا الرجل يجب أن يعرفك بنفسه . . فهذه عادة عنده كلما التقى بانسان غريب . لأنه من الضروري أن يرتبط بالناس بصلة ما . . حب . . كره لا مبالاة . . المهم ألا يكون مجهولا لدى أحد من الناس .

سافر كثيراً في أمريكا وفي الشرق الأقصى وفي إسرائيل وفي بلاده هو : المجر التي تركها وهو دون العاشرة . ثم سافر إلى لندن ليصبح صحفياً بريطانيا . وكاتباً طريفاً يجب قراءته الجميع ولا يرضون عنه . . وليس سبب ذلك كرم الضيافة عند الإنجليز . . ولكنهم يرون أن الكاتب الساخر مثل كثير من الحيوانات أو الطيور التي لها مخالب أو أنياب . فهي بطبعها لا بد أن تجرح وليس من السهل تغيير طباع الكتاب والحيوانات .

وليس نادراً أن يظهر من الإنجليز إناس مثل برنارد شو واوسكار وايلد وبيربوم . . وهذا الرجل جورج مكش . . والكلمة الأخيرة يفضل أن ينطقها الناس وعندهم زكام أى : جورج بكش . . فهو على صلة مستمرة بالبكش والضحك من الناس وعليهم . وهو حريص على احترام الناس له . ولكن ليس من السهل أن يحترمك كثيراً من تقوم له بدور البهلوان . أى أنه انسان محبوب فقط حاول بكل قوته أن يكون محترماً ولكنه لم يفلح . . والمحاولة التي يبذلها ليكون محترماً تعادل نفس المحاولة التي يبذلها الكاتب المحترم ليكون محبوباً . كلاهما يبذل أقصى ما في وسعه ولا يفوز إلا بالقليل جداً مما في وسع الناس . ولكنه لم ييأس رغم أن الناس قد يشسوا تماماً .

والكاتب المجرى الأصل الإنجليزي الجنسية جورج مكش له رحلة

مشهورة اسمها « الشرق شرق » وهو في هذه الرحلة يزور اليابان ولا يزور جزيرة فورموزا ويرى الهند وتايلاند وهونج كونج والفلبين والملايو وتركيا . . أما سبب الزيارة فهو أنه كان عضوا في مؤتمر القلم الدولي الذي انعقد في طوكيو .

وجورج مكش يدخل في موضوعه مباشرة فيقول لك أن قارة آسيا كبيرة واسعة . متعددة الألوان والأجناس والأديان واللغات . ولكن يظهر أن القاعدة في هذه القارة : يجب أن تحب قارتك وأن تكره جارتك !

وهذه قاعدة لا تخطئ في كل هذه القارة . فمن النادر أن تجد دولتين متجاورتين متحابتين . .

ويضحك مكش من مثل هذه الكلمات : الروح الآسيوية . . الوعي الآسيوي . . الضمير الآسيوي . . والرجل الآسيوي . .

وهي كلمات لا معنى لها . . لأنه لا يوجد أي تشابه بين راعي الأغنام في طشقند وصاحب البار في بيروت وكلاهما آسيوي . . أو بين قاطع الطريق الفلبيني وبين صاحب شركة تاتا الهندية . . كما أنه يصعب أن نفرق بين السوري والتركي والایرانی . . وليست بينهم جميعا أي شبه بالصيد الأندونيسي وهم جميعا آسيويون . .

وبعد ذلك تجيء تعبيرات : الشرق الأقصى والأوسط والأدنى . . وهي كلمات ليس لها أي معنى عند الرجل الآسيوي . . ففي أوروبا يقولون عن اليابان إنها الشرق الأقصى . . ولكن كيف يقول الرجل الياباني عن نفسه : نحن هنا نعيش في الشرق الأقصى . .

إن كلمات : الأقصى والأوسط والأدنى . . هي كلمات تعتمد على

وجهة النظر الأوروبية . . في حين أن الشرق الأقصى بالنسبة للرجل الياباني هو الولايات المتحدة .

ثم إن اليابان تعتبر من وجهة نظر سكان استراليا : الشمال الأقصى . . واستراليا من وجهة نظر الرجل الصيني تعتبر الجنوب الأقصى .

ولا أعرف من الذى قال إن الانسان يستطيع أن يؤلف عن آسيا كتابا في ثلاثة أيام أو في ثلاثة أعوام – وهو على حق . فمن السهل أن تقول كل شئ\* – وبسرعة . ومن الصعب أن تقول كل شئ\* وعلى مهل . فكل ما تستطيعه هو أن تنقل ما يفعله طفل تمدد على شاطئ البحر : أن يرى البحر بالطوب وأن يرى صورته وأن يرفع رجليه . . وأن يتلفت حوله يمينا وشمالا وينفرد بنفسه في كوخ ويقول شيئا على ورق أثناء انتظاره لاحدى عابرات المحيط .

ويحاول الكاتب المجرى جورج مكش أن يفسر لنا من أين جاءت روح السخرية هذه . يقول إنه ولد في ظروف جعلته يتشكك في كثير مما يسمع من الناس . مثلا : في الحرب العالمية الأولى انضمت القرية التي ولد فيها إلى يوغوسلافيا وبعد ذلك أعيدت إلى المجر . ففي المرة الأولى كان يكره المجر التي فرطت في شعبها . وفي المرة الثانية كان يحب يوغوسلافيا التي لم تشأ أن تعتصب أرضا لاستحقاقها وبعد ذلك سمع وهو طفل أن الشاب اليوغسلافي الذى أطلق الرصاص على الأمير النمساوى فأدى ذلك إلى اشتعال الحرب الأولى ؛ كان مجرما لأنه أدى إلى خراب العالم . وفي المرة الثانية اعتبره بطلا لأنه أدى إلى تساقط حكومات فاسدة وعروش ظالمة . وكان عليه منذ البداية أن يختار لنفسه موقفا خاصا . وجاء اختياره : أن يسخر من الجميع . فلا شئ\* بين الناس أو عندهم ألا يبعث على الضحك ولكن الناس لا يدركون ذلك .

فعندما ذهب إلى اليابان لأول مرة لقيه شاب في المطار . في يده ورقة

وقلم وسأله عن انطباعه عن هذه البلاد وقال : رائحة . وكتب الشاب ذلك . ولكن مكش سأل أحد أصدقائه : كيف يمكن أن يسألني انسان عن بلاده بهذه السرعة مع أنني لم أر إلا المطار . وقال صاحبه : ولا يهملك . . إنه لم يفهم كلمة واحدة مما قلت .

وكان رد مكش : ولكنه سألتني بالإنجليزية . . ؟

وقال صاحبه : الأسئلة بالإنجليزية فقط هي التي يعرفها . .

وكانت هذه أول نكتة صادفت مكش في اليابان . فالشاب يعرف الأسئلة ولا يفهم الأجوبة . . ولكنه سوف ينشر على لسان مكش : أن اليابان قد أعجبتته وأن شعبها عظيم . وأنه صانع المعجزات . وأن اليابان أكبر دولة صناعية في آسيا . وأكبر منافسة لأمريكا وألمانيا وأنها قادرة على التفوق على الجميع . وأنها لم تهزم في أية حرب دخلتها إلا سنة ١٩٤٥ فقط . عندما ضربها الأمريكيان بالقنابل الذرية . وعندما أقام مكش في اليابان بعض الوقت جاءه شاب ياباني يسأله عن رأيه في اليابان . كان رده : الشعب عظيم والبلاد جميلة . ولكن يتقصم شيء من المرح . .

وأخرج الشاب ورقة من جيبه وكتب عليها : إذن لا بد من زيادة الاهتمام

بالمرح . .

وبعد ذلك يمكن أن يقال عن اليابان إنهم شعب قادر على التقليد . وليس التقليد سهلاً . فالمهم أن يختار الانسان ما الذي يجب أن يقلده وكيف يضيف إليه ، وكثيراً ما جاء التقليد أروع من الأصل — هذه القاعدة تنطبق على ما يفعله اليابانيون في كل شيء . .

ولكى يصبح الرجل الياباني قادراً على الإبداع يجب أن يكون قادراً على التركيز . أن الواحد منهم يستمع إلى محاضرة أربع ساعات دون أن يتحرك له جفن لكي يخرج منها بشيء ما . وقد يكون هذا الشيء تافهاً جداً . ولكن الياباني هو الوحيد على هذه الأرض القادر على أن يجعل التافه جوهرياً وبتركيز وطول نفس .

وليس الانسان محتاجا إلى قوة ملاحظة ليدرك أن الرجل الياباني مهذب جداً . لاشك في هذا . فأنت دائماً - أو مطالب أيضاً - أمام إحناءات على اليمين وعلى الشمال . . ولا تعرف ماهو السبب الحقيقي فالمشاي ينحنى وراكب العربة ينحنى . والاحناءات درجات . من السجود إلى الاحناء . وهم قادرون على توزيع هذه الدرجات على مدى الاحترام والامتنان بين الناس . . وإذا أخطأت في مراعاة النسب فأنت مادة للضحك . .

وفي اليابان لا يفهمون كثيراً مما تقرله بالإنجليزية أو بأية لغة أخرى . ولكنك أمام أناس على استعداد لأن يخدموك فأنت تطلب اللحم المشوى فيجىء السمك . وترفض السمك فينحنى الجرسون ويأتى لك بالشاي . وترفض الشاي فيأتى لك بقائمة الطعام . وإذا ذهبت بك العصبية إلى أقصى درجة وألقيت بها من النافذة فإنه يهبط إلى الشارع ويأتى بها مرة أخرى ومعها صاحب المحل والحساب وانحناءة عميقة !

فما الذى تستطيع أن تفعله فى اليابان ؟

لا تفعل أى شىء : تفرج وابسط نفسك وليس المهم أن يفهمك الناس . وإنما حاول أنت أن تفهمهم . مع ملاحظة أن الناس مهذبون جداً . وأن بلادهم غنية ونشيطة ويمكنها أن تعيش من غيرك . ولكن لو عرف وزير السياحة الياباني شخصيا أنك غير راض عن بلاده لجاء لوداعك فى المطار واعتذر لك هو وجميع أفراد أسرته . . ولدعاك إلى فنجان شاي فى أقرب مطعم على حسابك .

وإذا أنت حاولت أن تسمع نكتة من أحد اليابانيين فيجب أن تتحمل أنت النتائج وحدك . . هذه النكتة مثلا : يقول أحد اليابانيين أنه كان يقيم فى بيت وشبهت النار فى البيت . أكلت كل شىء وأحرقته والده وانتقل إلى بيت آخر واحترق البيت كله وأكلت النار والدته . وانتهت النكتة !  
والذى لا يمكن وصفه عادة هو أن الذى يروى النكتة يضحك طول

الوقت على الصدفة العجيبة كيف أن النار تختار أباه في المرة الأولى وتختار أمه في المرة الثانية . . ومن الواجب أن تجامله وتضحك على خبيته . .

نصيحة : إذا أردت أن تكون يابانيا فكن رجلا . ولا تكن امرأة .  
إن اليابان هو مجتمع الرجال . والمرأة هي المسئولة عن ذلك . فالمرأة اليابانية مخلصه جداً لزوجها وهي تعلم أنه يلعب مع فتيات الجيشا .. وهي نظرية قديمة . فقد كان ذلك فيما مضى أيام لم تكن عند المرأة فرصة لكي تلعب . ولكن بتكافؤ فرص العمل واللعب ، أصبحت المرأة اليابانية أوربية كالرجل تماما . وأصبح اللعب من نصيب الجميع . .

ونسبة الانتحار في اليابان عالية جداً . وعندما قال جورج مكش لأحد اليابانيين أن نسبة الانتحار في السويد أعلى ، حزن الياباني على ذلك . فقد كان يفضل أن تكون اليابان أعلى في كل شيء .

وعندما سافر جورج مكش إلى الملايو لم يعجبه من هذه البلاد التي أحبها الأديب الإنجليزي سومرست موم . . لا كيف يعيش الناس ولكن كيف يموتون . ففيها بيوت اسمها بيوت الانتظار . تجد فيها الناس العواجز وقد انزلوا عن الحياة ينتظرون السنوات القليلة الباقية حتى إذا جاءهم الموت كان هينا . إنهم ينتظرونه على المقاعد وفي الحداثق الصغيرة . . والناس في هذه البلاد يرون أن الموت – ولعلمهم متأثرون بالفلسفة الصينية – فرصة للمرح ، وليس مناسبة للهم والغم . فهم يرتدون الملابس البيضاء ويعزفون الموسيقى . وحكمتهم أن السماء قد ضحكت عليهم بالحياة وبالموت . فلماذا لا يشاركون في هذه المنكته !

وإذا أردت أن تعرف كيف يمكن أن يكون الانسان بعيد النظر وفي نفس الوقت منبوذا في عصره فأليك هذه القصة :

في سنة ١٨٨٨ اقترح مدير حدائق جزيرة سنغافورة أن ينقل أشجار

المطاط من أمريكا الجنوبية ويزرعها في الملايو . وبذلك يمكن الاستغناء عن أمريكا الجنوبية . وضحك الناس . ولكن في سنة ١٩١٩ عندما مات هذا الرجل كانت أشجار المطاط هي مصدر الثروة الحقيقية لهذه البلاد . . إن هذا الرجل قد غير وجه التاريخ .

ومن المناسب هنا أن نذكر عبارة للفيلسوف برتراند رسل . . يقول الفيلسوف : إن جزيرة كورسيكا التي ولد فيها نابليون إذا لم تكن قد ضمت إلى فرنسا وإذا لم يكن نابليون فرنسي الجنسية لتغير وجه التاريخ كله . .

أما مدينة بانكوك عاصمة سيام أو تايلاند كما تسمى الآن . فهي غريبة عجيبة مسحورة . لاتعرف بالضبط إذا كانت متحضرة أو متخلفة . ولكن فيها جميع عناصر الحضارة والتخلف معا . والناس هنا يضحكون على الفاضى وعلى المليان . وهي الدولة الوحيدة في كل آسيا التي لم يستعمرها الرجل الأبيض . ولقد حاول اليابانيون عندما احتلوها أن يضيفوا إليها الشيء الكثير من الأرض المجاورة ولكن بقي أهل هذه البلاد يضحكون . وحكمتهم أن المنتصر لن يأخذ من المهزوم شيئا إنه يريق دمه . ويبقى الناس كما هم - نموذجاً للاستخفاف أو البلادة . ولكن الناس يضحكون على كل حال . . وفي هذه البلاد يناديك كل إنسان باسمك الصغير . لدرجة أن أكثر الأصدقاء لا يعرفون بقية اسمك . . ومن النادر أن يقبل إنسان ذلك . أو حتى يجد مبرراً لهذا السلوك الغريب .

والبلاد غنية والشعب فقير . ولكنهم يؤكدون لك : أن الأرز في الحقول والسماك في البحر . ولا شيء من ذلك في البيت - وهي حقيقة . ولكنهم يضحكون لذلك . .

ومن الممكن أن يكون للرجل زوجة واحدة وعدد من العشيقات ومن الممكن أن توجد النساء جميعاً في بيت واحد . إلى أن يتمكن الزوج من البحث عن شقة مناسبة . وقد يكذب الزوج على زوجته فيقول لها : إنه

كان عند عشيقته في الليلة الماضية مع أنه في الحقيقة لم يكن عندها . وإنما كان يلعب القمار - وهذه كبرى الخطايا عندهم !

\* \* \*

وأهم ما في رحلات جورج مكش أنه ينتهز هذه الفرصة ليدور حول نفسه يقف أمام المرأة ويصف لك بطل هذه الرحلات : رجل . أكيد رجل . زوج وعنده أولاد . لاشك في ذلك . ووسائل التأكد من ذلك سهلة ومعروفة ورأسه مستدير كان المفروض أن يكون كرة تندرج على الأرض لولأن الله شاء أن يجعلها تخص شخصا واحدا وأن تستقر على كتفيه بدلا من أن تلوخ بين أقدام الآخرين . عيناه ضيقتان . ولو خلق الله عينيه أوسع من ذلك قليلا لكان من الضروري - إنها مسألة فنية - أن يكون رأسه أكبر إذن فليس في الإمكان أبدع مما كان . فيما عدا شفتيه فهما نحيفتان ، متاكلتان وليس السبب في ذلك أية صفة وراثية ، وإنما هو كثيرأما جلس يأكل في نفسه . وأقرب ما يأكله هو شفتاه . إذن فشفته قد أكلهما على مراحل ولا بد أن الشفتين قد استقرتا على مكان من المصران الأعور .. وهذا اللمعان في العينين معروف . تجده كثيرأما عند سمسرة البورصة . . إنه ذكاء انتهازي ولكنه لم يعط الفرصة المناسبة لكي يظهر . ولذلك فهو الذي يتيح لنفسه هذه الفرصة كلما سافر إلى بلد . إنه يساوم على سمعة هذا البلد : هل تريد بلدا حسن السمعة أو سي\* السمعة . ثم لا يجد أحدا يساومه . . وتكون النتيجة أنه هو وحده الذي يختار أن يجعله سي\* السمعة !

أما إن رأسه أصلع فقد اختلفت الآراء في ذلك . إناس يقولون : رجولة مفرطة . . ونظريات تقول : إنها وراثية . . وكل هذه النظريات صحيحة ولكنها جميعا لا تنطبق عليه . لأنه أصيب بمرض جلدي وهو صغير . . وظل يهرش رأسه حتى سقط شعره . . وليست كتابته إلا نوعا من هرش جلد أناس وشعوب لعل شعورها ومشاعرها أن تنساقط عليه . . أو ضده . .

لإنها فى جمىع الحالات ضده .. فهم يستمعون به وىجبونه ، وىمكن الاحترام  
مسألة أخرى .

بقى سؤال واحد لماذا ىشترى الناس كل كتبه ، ملايين المرات ؟  
والجواب – وهذا رأيه أيضا – أن الناس ىجبون الذى ىهرشهم وىضحكهم  
مهما كانت الآلة الحادة التى ىستخدمها !

وفي الليل ...  
هرب آدم من هواء  
إلى الجنة !

الرياح تعصف بكل شئ، خارج البيت الصغير . . وأصوات النوافذ  
والأبواب تتضارب . . والصفافير تنفذ من فتحات، في الجدران وبين أوراق  
الأشجار ونباح الكلاب وعواء القطط . . وأصوات أخرى لعلها أفكار  
الناس أو همومهم . . أو لعلها أصدااء مثل هذا الحوار الغريب بين رجل  
وزوجته . . الزوجة قد ارتدت قبص النوم . . ووضعت فوقه روبا  
ولا تستطيع أن تفتح عينها . . والرجل قد ارتدى ملابسه كاملة ، وفي يده  
زجاجة خمر لم يبق فيها شئ . . وفي استطاعته -- وكثيراً ما فعل -- أن يجعلها  
سلاحاً قاتلاً لهذه الزوجة إذا عارضته . . أو اعترضته . .

قالت له : إلى أين . .

هو : إلى الشارع . .

-- وفي هذه الساعة . .

-- إن الشارع مفتوح ليلاً ونهاراً .

-- وبعد الشارع ؟

-- إلى شارع آخر . .

-- وفي النهاية . .

-- إلى أى بيت لا أجده فيه . .

-- في استطاعتك ألا تجدى في هذا البيت . . ابق أنت . وأنا سوف

أخرج . .

- ليس هذا . .
- إذن ماذا . .
- أريد أن أهرب من الأسئلة الباردة . . أريد أن أهرب من الأسئلة الباردة . . وأرحم نفسي من الإجابات التي تحرق أحشائي . . هل فهمت الآن . .
- إلى أين . .
- قلت لك . .
- ليس عندك ما تقوله أكثر من ذلك .
- عندي . .
- ماذا . . ؟
- أريد أن أقبل الأطفال . .
- ودخل . . وكشف الغطاء عن أطفاله الثلاثة . . وقبلهم واحدا واحدا . . ثم عند الباب تردد وقبل زوجته . .
- وقالت الزوجة : إلى اللقاء . .
- وقال الزوج : وداعا إلى غير لقاء . .
- ثم عاد الزوج ليقول لها : هذا قرارى الأخير . . لا أصلح لأى عمل آخر . . هذه هى حياتى . . وقد دفنتها بيدي هنا . . لكى أعر عليها هناك . .
- وقالت الزوجة : أين . .
- قال : هناك . . فى أى مكان آخر . . كلمة هناك معناها . . أى مكان ليس هنا !

وانطلق إلى الشارع يغنى لحنا نشازا ضمن موسيقى الشتاء فى شوارع باريس

ولكنه لا يدري ما الذى صنعه ، ولا ما الذى فعلته زوجته أو أولاده . .  
كل ما يعرفه أنه قرر أن يترك فرنسا . . أن يترك العمل في أحد البنوك ،  
لأنه لا يصلح لعمليات الضرب والطرح . إنه يصلح لشيء واحد هو أن :  
يرسم فقط !

هذا هو الفنان الفرنسى بول جوجان . . أبوه صحفى وأمه من بيرو  
بأمريكا الجنوبية . . بدأ حياته بحارا وبعد ذلك اشتغل في البورصة . . ثم عمل  
في إحدى البنوك . . وفي منتصف إحدى الليالى قفز من السرير لأن صوتا  
في السقف يناديه : اهرب وتعال هناك . . ارسم . . فأنت عبقرى ولكنك  
لا تعرف !

ولم يكن بول جوجان هذا كاتبا . ولا صناعته الكتابة ، ولكن كتابه  
الذى أصدره ابنه اميل في سنة ١٩٢٣ أى بعد وفاته بعشرين عاما يؤكد لنا أن  
الأب كاتب وناقد موهوب أيضا ، والكتاب اسمه « مذكراتى الشخصية »  
وقد انتهى بول جوجان من كتابتها في السنة التى مات فيها . .

يقول جوجان : ولدت هاربا . . لأعتقد أننى من أصل إنسانى . .  
لا بد أن بين أجدادى عددا كبيرا من الطيور المهاجرة . . فأنا لا أقوى على  
البقاء كثيرا في مكان واحد . . لا أعرف ماذا يحدث . . إن المكان نفسه  
يرفضنى . . ينكرنى . . يستنكرنى !

هرب بول جوجان إلى جزيرة نائية في المحيط الهادى . . جزر تاهيتى . .  
ثم جزر المركيز . . عاش فيها . . وهرب منها . . ثم عاد إليها ومات فيها -  
أى أحبها حتى الموت !

يقول في بداية كتابه هذا : لا أعرف الكتابة ، ولكن أحب أن أكتب  
كما أرسم ، فأنا أرسم صورة القمر . . وبعد ذلك أبحث لها عن اسم . .  
ويقول أيضا : أحسن شئ في هذه الدنيا إن كان فيها أى شئ حسن

أن يمسك الإنسان لسانه ، وهذا شيء صعب ، فأحياناً نجد اللسان مثل سمكة القرش قاتلاً ساماً ، وأحياناً نجده كالسراب . وهناك أناس كثيرون إذا أمسكت لسانهم اختنقوا إنهم يتنفسون أثناء الكلام . . وأنا واحد من هؤلاء . . لولا أن الله قد خلق لسانى فى أصابعى . . فأنا من ذوى الألسنة العشرة . . إنه يعرف كيف يكتب ، وكيف يقول . .

وكانه يريد أن يؤكد لنا أنه قادر على الكتابة يقول : فى يوم من الأيام كانت الحيوانات قادرة على الصراخ بصوت هائل . . أما اليوم فلم تعد قادرة على ذلك ، وكم تمنيت أن أكون حيواناً قوياً طبيعياً . . أما اليوم فلم أعد أتمنى ذلك . . إن الحيوانات أصبحت تعرف القراءة والكتابة - كما ترى !

ويقول أيضاً : كم أنا مدين للمجتمع . . مدين بالكثير . . وكم يدين لى هذا المجتمع . . يدين بالكثير جداً ، فنى يدفع ؟ إنه لن يفعل !

ومثل هذه اللقاءات والمحات كثيرة جداً فى كتابه هذا وفى روايته الوحيدة التى اسمها « نوا . . نوا » . . وهو فى الحقيقة يكتب كما يرسم . . بقعة من هنا . . وبقعة من هناك . . موضوع من هنا . . ومسرحية من هناك . . قصة من جزر تاهيتى . . وفضيحة من الدانمرك التى لايجبها . . وهو لايعتذر عن القوضى فى كتابه . . هذه هى طبيعة الأشياء . . وهذا هو الفرق بين الحديقة والغابة . . إنه يفضل أن يكون كتابه غابة من الأشجار والحيوانات والسيحات والعمود . . فهو إنسان بدائى أو يريد أن يكون كذلك ، وكان كذلك وهرب من أجل ذلك . . وعاش ومات على النحو الذى أراد . . بل إنه عندما مات اختار لنفسه المكان الذى يموت فيه . . . . . اختار البحيرة الحمراء والأغصان الزرقاء . . وعظام الذئب . . وريش النعام . . ثم جعل دخوله إلى القبر مع ضوء القمر . . إنه هو الذى رسم هذه اللوحة . . . . . ووقع عليها بجمسه كله . .

كانت رحلته عادية إلى هذه الجزر النائية في المحيط الهادى . . فقد عرف البحر قبل ذلك كثيراً وهو طفل ، وهو يقصد الأمواج والعواصف ، وكثيراً ما فكر في أن يرمى بنفسه في أحضان الموج . . أو الموت . . مبهوراً بالألوان الزرقاء السوداء الخضراء الهوجاء ولكن زملاءه كانوا يربطونه بالحبال . . وفي إحدى الليالى تعالت أصوات البحارة : إن واحداً من الفرنسيين قد سقط في المحيط . . وفوجئ الجميع بأن شاباً في لون الليل قد ألقي بنفسه في المحيط وراءه . . ثم سحبه وأنقذه . . هذا الشاب زنجى . . هذا الشاب لم يفكر في حياته . . وإنما فكر في انقاذ حياة إنسان . . وتصادف أنه إنسان أبيض ، هنا اهتزت مبادئ جوجان . . وأحس أن هناك قيماً أخلاقية يعرفها السود ولا يعرفها البيض ، مهما كثرت كتبهم ورواياتهم عن الفضيلة وملكوت السماء .

وعندما رست السفينة في جزيرة تاهيتى ، أحس جوجان بخيبة أمل . . إن الجزيرة هادئة غنية بالألوان . . كل شئ فيها كما خلقه الله . . أى كما هو منذ خلقه الله . . ولكن لا يعيب هذه الجزر إلا الفرنسيون الذين استعمروها وإلا ثلاثة من الفرنسيين : الحاكم والقسيس والرجل الذى يبيع الدخان وطوايع البريد ، ولما قرر جوجان أن يشتري قطعة أرض قالوا له :

— تريد أن تشتري أرضاً ؟ . .

قال : نعم . .

قالوا : إذن يجب أن تذهب إلى القسيس . .

قال : وأين هو ؟

قالوا : يجب أن تنتظره حتى يعود . .

— من أين . .

— من فرنسا . .

— ومتى يعود . .

— في البمام القادم . .

لا أرض يشتريها أحد أو يبيعها إلا إذا وافق القسيس على ذلك ،  
والقسيس لا يوافق إلا إذا تأكد من رؤية راغبى الشراء عشرات المرات  
فى الكنيسة . . وجوجان لا يذهب إلى الكنيسة ، فلن يشتري أرضا ، ولن  
يجد من يبيعها له . .

وقرر أن يبنى لنفسه كوخا . .

واختار جبلا صغيراً مشرفاً على إحدى الغابات ، وأقام لنفسه كوخا  
وجعل باب الكوخ مفتوحاً ، فليس هناك ما يخاف عليه . . ولا أحد يعرف  
السرقه بعد . . وعرف بعد ذلك أن أشياء كثيرة تدخل من الباب المفتوح :  
العطور والطيور وبنات تاهيتى . .

ولم يسأل فتاة واحدة عن سبب مجيئها . . ولا هى قالت . . وهو يقارن  
دائماً بين ما فعله فتاة تاهيتى وفتاة باريس . . فالمرأة فى تاهيتى تقول :  
لا أعرف إن كنت أحب هذا الرجل فأنا لم أعانقه بعد . .

ولكن الفتاة الفرنسية تقول : لقد اعتدت أن أحبه ، ولكن بعد أن عانقته  
كثيراً لم أعد أحبه . .

إن المرأة فى تاهيتى نموذج نادر بين النساء . .

كل شىء فيها وحولها ومعها جميل . . الله خلقها كذلك . . أى أنها  
ما تزال كما خلقها الله . .

وأمام المرأة فى تاهيتى يقول ذلك الرجل الهارب من زوجته :

أن يعرف الانسان كيف يعطى ، هذا رائع . . أن يعرف الانسان  
كيف يأخذ هذا أروع . . ويقول : إذا كان أبى حماراً ، فلا ذنب لى ،  
أن أمى هى التى اختارت لنا ذلك . .

وفى إحدى الليالى طلب إلى إحدى فتيات تاهيتى أن تقف بينه وبين

الشمس عند الغروب . . ولما صرخ من نشوة الألوان لم تحف الفتاة . .  
وإنما راحت تضحك .. فإن صوت إنسان لا يخيف فتاة اعتادت على صوت  
الوحوش . .

وانحنى جوجان عند قدميها القدرتين وساقها اللامعتين وراح يصرخ  
ويقول : مولاي . . آلهي . . فقد تعلمت أن هناك ثلاثة أنواع من الحب :  
الحب المعنوي . . والحب الجسدي . . والحب اليدوي . . الأول هو :  
الأخلاق . . والثاني هو : السفالة . . والثالث هو : البخل . . وأنت صورة  
من كرم الله !

وجعل الكوخ بغير باب .. فالباب الذي يجي منه الريح من يقفله ،  
لا يستريح . ودخلت مع الريح فتاة جميلة . . أنقل لك صورتها : ذهبية  
البشرة . . صفراء ذهبية . شعرها أسود . . عيناها سوداوان .. الأسنان  
بيضاء . . الكتفان ناعمتان مستديرتان . . والعنق مصبوب من رخام . .  
ونهداها مستديران . . وهذه النظرة في عينيها لاتدعو إلى شيء . . إنها مائدة  
مدودة . . إنها دعوات بلا بطاقات . . أما مناقها فأجمل ما خلق الله في هذه  
المنطقة من العالم . . ويقارن جوجان بين ساقى الأوربيات وساقى فتيات جزر  
تاهيتي والمركيز . . وكل شيء يحذفه من حساب بنات أوروبا يضيفه إلى  
حساب بنات هذه الجزر مع الفوائد الضرورية إنه لم ينس وظيفته للأصلية  
في أحد بنوك باريس . .

أما رائحة الفتاة فصارخة بكل عطور الغابة . . وفي شعرها تعلق الورود.  
وفي أظافرها وبين أصابعها . . وفي نهديها . . وفي جسمها العاري وضعت  
عطورا وألصقت أوراق الشجر . وخلع جوجان ملابسه . . وفي الليل طلب  
إليها أن تسحبه . . قرر أن يمشی مغمض العينين . ففي أنفه وفي أذنيه  
وفي جسمه كله ألوف العيون وألوف الصور . . وبجته الفتاة . . عاريا . .  
أعمى . . ونزلت الجبل . . وتسلت بين الأشجار . . وهو يتخيل نفسه

هوميروس الشاعر الأعظم . . وكل المعاني تنصب في أذنيه . . وبعد ساعة من السير في الغابات توقفت الفتاة فجأة ، وسألها . . وقالت شيئاً لم يفهمه ، وفتح عينيه ليجد نفسه أمام بيت القسيس الذي عاد فجأة من باريس ونظر إليه القسيس . . وبسرعة خلع رداءه وغطاه وطلب إليه أن يحتشم وأن يفعل ما يليق بشرف فرنسا . . وقرر القسيس أن يهديه قطعة أرض بشرط أن يجعل لها سوراً عالياً حتى لا يراه أحد إذا قرر أن يمشي عارياً . .

وتزوج جوجان هذه الفتاة . . وأنجب منها أطفالاً . . أما اللغة التي بينهم فأشارات . . فإن الفتاة إذا أرادت أن تتكلم فصوتها خليط من نقيق الضفادع وموج المحيط . . أما هذا الذي يقوله الله في جسمها فكل الألوان والموازين والمقاييس . . هو البلاغة نفسها . يقول جوجان : إذا أردت أن تبحث عن دليل على عظمة الله وعلى أنه هو الجمال فتعال هنا . . ألف دليل . . في ألف جسم . . في كل لحظة آمنت بالله مليون مرة كل يوم . .

ولكن في هذه الجزيرة النائية يعود جوجان بخياله إلى ليالي باريس . . وإلى أصدقائه من الفنانين العظام مثل فان جوخ ثم يتذكر الأوبرا والمسرح . . يتذكر مسرحية « عدو الشعب » للكاتب النرويجي ايبسن . . يقول أن بطولة المسرحية تحولت في لحظة واحدة إلى كتلة من النار يذوب لها الجليد وبعد ذلك قررت أن تعيش في وادي الذئاب . .

ويقول جوجان : إنني أعرف عدواً آخر للشعب . . هذا العدو لم تمش وراءه زوجته . . ولكنها استطاعت أن تربي أولاده على أن ينكروه . . علمت أولادها كيف يقولون يا ماما . . بعشرين طريقة . . ولم تعلمهم أن يقولوا يا بابا ولو مرة واحدة . . جعلت حرف « الميم » واحدة من أسنانهم . . أما حرف « الباء » فقد جعلته شيئاً يسقط من بين أسنانهم . . جعلت زوجها عدواً لشعبه . . عدواً لأبنائه أو جعلت أبنائه أعداءه . . آه . . آه . . ليس أسهل من اسقاط امرأة ، ولكن . . آه . . ما أصعب أن يرفعها إنسان !

وعلى الرغم من أنه حاول أن يكون بدائيا . . يعيش بثلهم ويرسمهم كما هم ، مخالفا بذلك كل المدارس الفنية المعاصرة ، فإنه كان يحن إلى الحياة في أوروبا . . وعلى الرغم من هذه الحياة المادئة ، فإنه كان يحن إلى الفزع . . إلى الرعب . . كان يصطنعه . . يفتعله . . كان يخيف الناس . . وكان يستدرج الناس إلى أن يخيفوه أيضا . . وكان يقول : أن الخوف يبعث على الخوف . .

ويتذكر كيف أنه هو وزوجته في إحدى الليالي . . كان كل منهما يقرأ قصة للكاتب الأمريكي ادجار الن بو . . القصة على ما يذكر ، كان اسمها « القطة السوداء » . . وكان ذلك في الشتاء . . واحتاجا إلى مزيد من الفحم يضعانه في المدفأة ، ونزلت الزوجة تبحث عن الفحم عندما اصطدمت بقطة سوداء فصرخ الاثنان في وقت واحد . . وعندما مدت الجاروف لتأله بالفحم تدحرجت جمجمة إنسان . . فصرخت الزوجة . . وعندما نزل هو لينقذها ويترك قصته « الهيكل العظمى » التي كان يقلب فيها . . وأمسك الجاروف من يدها . . وسحب الفحم . . تدحرج هيكل عظمى كامل . . لقد كانا يسكنان في بيت صديق فنان كان يرسم الجماجم البشرية !

ويقول جوجان في « مذكراته الشخصية » آه . . آه ياسيدي . . أريد أن أحب ولا أستطيع . . أريد ألا أحب ولا أستطيع . . إنني أحمل في داخلي هذا العذاب المستمر . .

ويقول أيضا : أن تعرف كيف تعطى ليس معناه أن تعرف كيف تأخذ لأن الذي يعرف كيف يعطى هو الذي يعرف كيف يأخذ . . وهناك كل شيء حولك يعطيك ولكن هذه الطبيعة لم تتعلم بعد كيف تعطيك بحساب . . . إنها تفيض عليك . . إنها تغرقك . . إنها تخدرك . . إنها تفقدك وعيك . . عقلك . . ولذلك فأنا على يقين من أنني لن أخرج منها عاقلا . . لن أخرج منها . . إنها أروع وأعظم وأخلد مؤامرة على عقلى التافه . .

يقول أيضا : إذا قال لى إنسان يجب أن تفعل كذا وكذا ، فإننى أرفض .  
وإذا قالت لى طبيعتى يجب أن تفعل كذا وكذا ، فإننى أستسلم .

ورسم جوجان لوحات كثيرة . . . وبعث بها إلى باريس . . . واشترك بها  
فى المعارض الدولية . . . ولم يكسب إلا القليل . . . وأروع لوحاته هى التى  
ألقى بها من النافذة . . . وكذلك فعل صديقه الفنان المجنون فان جوخ . . .

وهرب من جزر تاهيتى إلى باريس . . . ثم عاد إلى هذه الجزر . . . وهرب  
منها إلى جزر المركيز . . . ثم هرب منها . . . واختفى شهوراً فى إحدى الغابات . . .  
حبس نفسه فى أحد الكهوف . . . ثم غطى جسمه بالوشم . . . وراح يرسم . . .  
راح يغمس فرشاته فى عين الشمس . . . فى قلب الجحيم ويرسم وهجا من  
الألوان وسعيراً من العطور . . . لقد كانت لوحاته صرخات مكتومة دامية  
من أقصى الشرق إلى الغرب تنبه إلى أن الحياة ماتزال بخيرها هنا . . . فى هذه  
الأماكن النائية من العالم . . . البعيدة عن أكاذيب الحضارة الغربية . . . لم يعبأ  
كثيراً بما يقوله الناس إنه يرسم .

يقول : الفن للفن . . . ولم لا ؟

الفن للحياة ؟ . . . ولم لا ؟

الفن للذة ؟ . . . ولم لا ؟

لا يهم أبداً مادام هناك فن . . .

وكان جوجان يعلم مقدما ما سوف يقوله عنه المؤرخون والكتاب ورجال  
الأخلاق والسياسة والدبلوماسية : إن الفنان يجحد كثيراً من يقوله له : هذا هو  
الجنون . . . ثم بعد ذلك يمزقونه — أقصد يمزقون الفنان ويحطمونه — ولهذا  
فإننى أوفر عليهم هذا العناء لقد مزقت نفسى وحطمتها . . .

ويقول جوجان وكأنه يريد أن يفسر لنا سر هذه الرحلة الغربية :  
ما الذى أحتاج إليه . . . أو يحتاج إليه أى إنسان . . . أن يعرف نفسه . . . كثيرون  
يرون وجوههم فى الماء . . . كثيرون يرونها فى بحيرات من الدم . . . وأنا أردت

أن أتمسح بوجداني على كل ورقة . . وأن أخوض في كل عطر . . وأن أرمى  
نفسى عند كل غريزة . . لقد كنت فريسة للطبيعة . . وفي نفس الوقت  
افترسها . . عرفت نفسى . . والذي عرفته دوخنى . . فهذه هى الطريقة :  
لكى تعترف بوعى يجب أن تفقد الوعى .

وفي نهاية مذكراته يقول : كثيرون يعرفون كيف يكتبون ، وقليلون  
يعرفون فن الكتابة ، ولكن من حق أى إنسان أن يحاول ، ولا أجد أى حياء  
أو خجل فى أن أكتب وأن أ رسم ، هذا حقى وليس من حق أى ناقد أن  
يمنعنى مهما كانت عباراتى عارية . .

وقال جوجان ما أراد ورسم ما شاء . . ولكن كان على أولاده من بعده  
أن يتسروا على هذه الفضيحة العائلية كيف أن والدهم هجر أمهم فى الليل  
وهرب منها إلى آخر الدنيا . .

الابن دافع عن أمه . . وقال إن والده عندما تزوج فى سنة ١٨٧٣ كان  
قد رسم لها لوحة تؤكد هيامه بها . .  
أما الأديب الكبير سومرست موم فقد أعجبته الفضيحة فصورها فى  
روايته المشهورة « القمر وست بنسات » . .

وعاد أولاده يدافعون عن أمهم . . ويتبرأون من جنون الأب . .  
وكذلك فعل ابن اوسكار وايلد وأخت الفيلسوف الألماني نيتشه وزوجة  
الأديب الانجليزى د . هـ . لورانس . وزوجة تولستوى . .

حاول أولاده وأحفاده أيضا أن يدافعوا عن سمعة رجل كان موظفا  
عاديا منسيا ، ثم أصبح فنانا يعرفه كل الناس . .

أو لعله أول آدم يهرب من حواء إلى الجنة ، لا من الجنة . . . وحده  
وليس معها ، وإنما مصحوبا بجنونه وعبقريته ! . .

تحت القنابل  
في الوسط ..  
على شواطئ، جبرافم

اعتادت أن تكون طعاما لعيون كثيرة .. وهدفا لأضواء باهرة من عدسات التصوير .. وأن يراها الناس ولا ترى أحدا .. وأن تمشى فى رشاقة على جسر خشبى تتثنى يمينا وشمالا .. ثم تدور .. وينظر الناس إلى ساقها وصدرها .. وكل خيط فى فستانها .. إنها عارضة أزياء .

وقبل يوم العرض تمشى على هذا الطريق الخشبى وحدها مرة بعد مرة .. وتتعالى الصرخات تؤكد أنها لم تحسن عرض الفستان أو المايوه .. وأن ذراعها لم تكونا فى حركة موسيقية مع ساقها .. وأنه يحسن بها أن تنقص ولو نصف كيلو .. ومعنى ذلك أنها لن تظهر فى العرض القادم لفساتين شانيل إحدى ملكات الأزياء فى فرنسا .. ومن السهل على أى إنسان أن ينقص وزنه نصف كيلو فى أى يوم .. ولكن عندما يكون الإنسان فى وزن هذه الفتاة وطولها .. لم يبق إلا أن يقطعوا لسانها ونهديها وشفتيها .. فليس فى جسمها إلا جلد وعظم !

وفى إحدى المرات – وكانت هذه نقطة التحول – كانت تعرض أحدث فساتين الشتاء .. وكان الفستان لعروس . ولسبب لا نعرفه الآن تعثرت ووقعت وهناك قاعدة عند ملكات الأناقة إذا تعثرت واحدة ، فإنها تتشامم . ولذلك يجب أن تعزل عارضة الأزياء هذا العمل فوراً وإلا كانت نحسا على الجميع ! وبعد عرض الفستان اعتزلت عارضة الأزياء « ميشيل رى » العمل فى مؤسسة شانيل ..

وقررت أن تمشى على جسر خشبى آخر .. وعلى جانبيه أنوار باهرة

وعيون إنسانية وعيون إلكترونية .. وكل شيء يبهر ويقتل .. وإذا سقطت فإن ألاف الأيدي سوف تمتد إليها .. ووجودها بين هؤلاء جميعا لن يكون مصدرا للتعاسة ، وإنما سوف تسعد الجميع ..

قررت أن تذهب إلى فيتنام مراسلة لمجلة « لونغويل أوبسير فاتور » ثم وكالة الأنباء الفرنسية ، وكان ذلك في سنة ١٩٦٤ ، وميشيل فتاة مغامرة فقد اشتركت في سباق السيارات قبل ذلك وكادت أن تموت ، ولكنها في آخر لحظة أنقذتها إحدى الأشجار . وأيقنت منذ تلك اللحظة أن هذه الشجرة ليست إلا إصبعاً من أصابع العناية الإلهية .. إذن فالسواء قد ادخرتها لمهمة أخرى ، فلا خوف عليها من شيء .. وعاشت في فيتنام ستة شهور .. وسافرت بعد ذلك إلى كوبا وقابلت كاسترو .. وقبل ذلك سافرت إلى بوليفيا وقابلت جيفارا قبل مصرعه .

وأهم من ذلك أنها وقعت أسيرة لقوات فيتنام الشمالية . أما مغامراتها الممتعة المثيرة فقد روتها في كتاب لها بعنوان « على شاطئ الجحيم » ..

والرحلة بدأت طبعاً بأن ذهبت إلى سايجون عاصمة فيتنام الجنوبية .. القوات الأمريكية في كل مكان .. والبضائع الأمريكية على الأرصفة ، هذا واضح .. وسايجون هي قلب العالم الذي ينزف بالأخبار وكل العيون تتجه إلى هنا ، وكل العيون قد أوجعها النظر إلى هنا أيضا ..

الجندي الأمريكي يقول : بعد ستة أشهر سوف ينتهي كل شيء ..

التاجر الأمريكي : يجب ألا ينتهي أي شيء ..

أهل فيتنام يقولون : نحن نعيش على كل حال ..

هنا في مطار سايجون ضوضاء لا نظير لها في الدنيا .. طائرات تعلق وتهبط ، ودخان ، ذئير ، صفير ، صراخ ، ضباب ، سحب ، رطوبة ، نار ، عرق ، وأرق ..

النعومة تجدها فقط في وجوه وحركات المضيفات الأرضيات ، قد ارتدين الأزرق التركوازي والبنطلونات البيضاء ، حركاتهم رقيقة .. ابتسامتهن ناعمة ، أما الأمريكان فهم في كل مكان قد وضعوا أيديهم على مسدساتهم يمضغون اللبان الأبدى الذي لا ينتهي . والذي كأن الأفواه تفرزه ! . وعيونهم المتشككة على كل الهابطين من الطائرات .. وهذه النظرات التي لم يختلف أثرها حتى بعد أن هبطت ميشيل رى في الشارع ..

أول ما فعلته طبعاً هو أن تبحث عن غرفة ، وجدوا لها غرفة بخمسة أسرة، ولا تعرف إذا كانت ستشغلها وحدها أو ستفاجأ بضيوف آخرين . على كل حال أمضت الليلة بصعوبة ، فلا هدوء .. الطائرات تهب كل شيء وطلقات المدافع أو القنابل هي الطعام اليومي لكل الناس هنا ..

والأمريكان يعقدون مؤتمراً صحفياً في الساعة الخامسة مساء ، الصحفيون يسمونه جنون الساعة الخامسة ، يتلقون المعلومات والإجابات عن كل سؤال وأمامهم جميعاً يجدون خريطة عليها علامات زرقاء للأهداف التي أصابها البحرية ، وعلامات سوداء لأهداف القوات الجوية .. ورجال البحرية والطيران لا يعرفون من هذه البلاد التي يضربونها بالقنابل سوى هذه العلامات ، يضغظون على الزراير ويمضغون اللبان ويضحكون ويصيحون الأهداف ويعودون .

الشيء الذي يلفت العين في سايجون من أول لحظة هو وجود عدد كبير جداً من الأطفال .. أين أمهاتهم ، لماذا تركنهم ؟ لا إجابة عن هذا السؤال فهي حالة حرب ، وقد يكون الأب قد مات ، والأم أيضاً ، وقد يكون الابن لقيطاً ، هذه الأسئلة لا قيمة لها ، ومن الأفضل أن يتلعبها الإنسان ، وقد ابتلعت ميشيل مع هذه الأسئلة الكثير من المشاهد المؤلمة .

ولم تضحك لمن قال لها : تصورى أيام الاستعمار الفرنسي لهذه البلاد

كانت النساء أصح ، وأجمل ، كانت لهن نهود وأرداف . أما الآن فإن النهود الصناعية والأرداف الصناعية معروضة في الأسواق . لعل الفتاة الفيتنامية تعجب الجندي الأمريكي .. .

أما الفتيات فجميلات ، في غاية الرشاقة ، وهن غاليات الثمن ، إن جلوس فتاة جميلة مع جندي أمريكي لشرب الشاي يكلفه الكثير ، لا يهيم الشاي ، إنه مثل الشمبانيا ، فالثمن واحد .

وفي الشارع تجد من يقول لك : عندي أختي درجة أولى ..

أو من يقول : أختي في العشرين من عمرها ممتازة في كل شيء !

الكباريهات في كل مكان ، وفتيات فيتنام من كل مقاس ولون وسعر . والبارات لا تغلق أبوابها ليلا أو نهارا والأضواء الحمراء تدعو كل أمريكي لكي يجرب حظه .. سيجد الفتاة التي تعجبه ..

والناس في فيتنام يلعبون القمار ، حتى آخر قرش - والعملة هناك بالقرش أيضا ، حتى رئيس الدولة يقضى ساعات من نهاره في مشاهدة مصارعة الديوك .. وهو يحتفظ لنفسه بحظيرة للدواجن ويتولى بنفسه أيضا صنفرة أصابع الديوك وجعلها حادة .. وكذلك مناقيرها حتى إذا اشتبكت مع ديوك أخرى قتلها في الجولة الأولى ..

اللغة السائدة هي الإنجليزية طبعا ولكن الوزراء لأن ثقافتهم فرنسية يكتبون خطبهم وأحاديثهم بالفرنسية ، ثم تترجم لهم بعد ذلك .

وصدرت لها التعليمات بأن تستعد للذهاب إلى الجبهة ، قالوا لها : لا تنسى أنك الفتاة الوحيدة بين عشرات الألوف لم يروا امرأة من ستة شهور .. ولا داعي لأن تستخدمى أدوات الزينة . فالأعصاب لا تتحمل ذلك .. وعليها أن ترتدى ملابس عسكرية خشنة وأن تضع ما هو ضروري فقط .. فرشاة

أسنان .. مرآة والكاميرا وبعض الأوراق .. ثم ترتدى حذاء عسكريا ..  
أما الخوذة فيمكن استخدامها لشرب الماء وأحيانا للاستحمام أيضا ..

وعليها ألا تفقد صبرها مهما طال انتظارها ، فليست هي الكائن الوحيد  
الذي يستحق العناية من الدرجة الأولى ، وأكدوا لها أن الاهتمام بها سوف  
يكون من الدرجة الثالثة .. لأنها حالة حرب ..

ورأت أحد الجنود وقبل أن تفتح فيها قال لها : أريد أن أموت ..  
لأن الموت انتقال من الجحيم إلى الجنة ..  
وضحكت هي ، ولم يضحك ..

وفي الليل تحدد موعد الخروج ، لا سيارات ، وإنما يجب أن تمشي  
على قدميها ، في حقول الأرز ، صحراء خضراء ، أو محيط من الوحل ، لاشئ  
إلا صوت الماء والضفادع والصراصير .. وخصاص يجي من بعيد .. ومن  
قريب ، وإلى جوارها سقط أحد الجنود .. وعندما حاولت أن تقترب منه  
فقد يكون قد اصطدم بشئ فتعثر ، سحبها الجاويش قائلا : لا شئ .. أنه قد  
مات .

لا شئ إنه قد مات ؟ .. إنها نسيت أن الذي تخوض فيه هو ميدان  
قتال ..

وفي ليلة أخرى طلبوا إليها أن تذهب إلى أحد الموانئ فسوف ترى  
شيئا جميلا ، وفي الساعة الواحدة اصطفت الجنود ، وتقدمت فتيات يحملن  
باقات الورد، وامتد شريط أبيض ، وجاء صف من الضباط واقتربت الفتيات  
ولففن الورد حول أعناق الشبان .. لقد عادوا منتصرين من غاراتهم  
على العدو .. أما عادة الورد هذه فقد نقلها الأمريكيان من جزر هاواي  
إلى هذه البلاد .. أما هؤلاء الشبان المنتصرون فهم لا يعرفون بالضبط ما الذي

فعلوه ، أن أمامهم خريطة ، وتحت أصابعهم زرايز .. وفي لحظات ينهى كل شيء ويعودون للورود .. عشرات المرات من كل يوم ! ..

ولكن واحداً منهم لا يدرى ما الذى فعلته القنابل ، ولا أن إنساناً مثله مات .. وقبل أن يموت شعر بشيء من الفزع .. ولعله سأل : ولماذا الموت ؟ ولكن الذى قتلوه لا يتساءلون : ولماذا القتل ؟

ودعيت إلى السفر فى إحدى حاملات الطائرات « كورال سى » لأنها مطار متحرك .. ملئ بالوحوش الحديدية الصارخة المخيفة .. وزنها ٦٣ ألف طن وطولها ٩٧٣ قدماً .. أى ثلاثة ملاعب كرة قدم .. بها ألفان من الموتورات الكهربائية وبها ٢٥٠٠ غرفة .. وتستطيع أن تبخر من ماء البحر مليون لتر فى اليوم .. وأن تقدم ١٤ ألف فنجان قهوة فى وقت واحد ، وعشرة آلاف وجبة .. وقوة محرقاتها تعادل قوة ١٤٠ قاطرة كهربائية .. وتحت سقفها زواحف من الحديد النفاث السام .. عددها ٧٥ طائرة : قاذفات قنابل ومقاتلات واستطلاع . وكل عشرين دقيقة ينطلق عدد من الطائرات .. وبعد ربع ساعة تعود الطائرات ويتجه طياروها إلى غرفة العمليات مباشرة لروية مسار الطائرة فى صعودها وهبوطها وإصابتها للأهداف على شاشة التلفزيون .. وبعد ذلك شهيق وزفير وصفير .. وزقزقة .. وجلجلة .. وسحب ورعد .. وبرق .. والناس يمضغون اللبان كأن شيئاً لم يحدث لا هنا ولا هناك .

وبعد ذلك كان لابد أن تتجه ميشيل رى إلى الهدف الذى جاءت من أجله ، لقد عرفت الأمريكان وانبهرت بعددهم ونظامهم . وكيف غيروا معالم فيتنام ، وروعها آلات الدمار الضخمة الفخمة ، لأنها تريد أن تذهب إلى الجهة على مسئوليتها هى وعلى حسابها ، وذهبت تبحث عن سيارة تستأجرها ، رفضت كل محلات السيارات ، لأن شركات التأمين ترفض التأمين على أية سيارة تدمرها الحرب : القنابل أو الألغام ، وأخيراً عثرت

على سيارة صغيرة ، وجعلت لهذه السيارة صفائح من الصلب لا ينفذ منها الرصاص وجعلت ذلك تحت مقعدها ، أما في مقدمة السيارة فقد وضعت خمسة جوانات من الرمل ، وهي لا تخاف لأنها فرنسية ، وليست أمريكية ، وفيتنام الشمالية ترى أن فرنسا دولة صديقة ويكفي أن تقول لأى جندي من فيتنام الشمالية : إنها صحفية فرنسية ، وجواز سفرها يؤكد ذلك بوضوح تام . وحاول زملاؤها الصحفيون أن يقولوا لها : كان غيرك أشطر .. أقعدى .. أقعدى ..

ولكنها أصرت ، وأمامها طريق طوله ١٨٠ كيلو متراً ، وبعده تجد نفسها وجها لوجه أمام قوات فيتنام الشمالية ، وعليها بعد ذلك أن تحترس من الألغام فهناك نوعان من الألغام : ألغام تنفجر باللمس المباشر ، كأن تدوسها السيارة أو تصطدم بها .. وهناك ألغام تنفجر لاسلكياً ، وهذه الألغام لا تنطلق عادة إلا على الأهداف العسكرية وليس المعقول أن يطلقوها على سيارة صغيرة بها سيدة ترتدى ملابس عسكرية بسيطة .. ثم إنها صحفية .

لقد اعتادت على القنابل ، ولكن الشيء الذى لا تستطيع أن تعتاد عليه ليلاً أو نهاراً هو : هؤلاء الأطفال .. صغار .. إن أمهاتهم قد تركتهم ، فلا وقت للرضاعة أو الحضانه ، إن الأمهات يحملن السلاح ويتركن الأطفال .. وكلما تقدمت نحو خط ١٧- أى الخط الفاصل بين فيتنام الشمالية والجنوبية- زاد عدد الأطفال ..

وأصبح عدد القوات الأمريكية قليلاً ..

إن الأمريكان يظهرون نهاراً ويختفون ليلاً .. وعند إحدى نقط الحدود قال لها الأمريكان : الآن .. أنت فرنسية .. وعليك حماية نفسك .. ومضت في الطريق ، وقابلت أحد الأمريكان ، واستوقفها . وعرف منها أنها متجهة إلى الجانب الآخر .. وأشار الأمريكى إلى براميل مصنوعة

من الخيرزان وعرفت منه أن هذه البراميل قد أعدت للأسرى الأمريكيان ،  
إذا وقع الواحد أسيراً نقلوه في هذه البراميل من قرية إلى قرية ، وفي كل قرية  
يحاكمونه ويدينونه ويحكمون عليه بالإعدام ثم يعفون عنه .. وينقلونه إلى  
قرية أخرى يعترف فيها بأنه مجرم وأنه سفاح وأنه مصاص دماء البشر ،  
ولأنه عدو للحياة ويحكمون عليه بالإعدام ، ويصدر العفو عنه ، ويدرجونه  
هو والبرميل إلى قرية أخرى .. وهكذا .

وهزت كتفها قائلة : هذا يخص الجنود الأمريكيان..أما أنا فامرأة فرنسية  
صحفية .

وقابلت فتيات في الطريق ، كثيرات يعرفن الفرنسية ، جلست إليهن ،  
قالت واحدة : أتمنى أن أكون مضيقة .

وهنا قالت لها ميشيل رى : ولكن في العاصمة فتيات يعملن مضيفات  
لأنهن فتيات الليل ويكسبن أكثر !

وردت عليها إحدى الفتيات : بدلا من أن تستنكرى هؤلاء الفتيات  
يجب أن تفهمي لماذا حدث ما حدث .. إن لى أختا من فتيات الليل وأنا  
فخورة بها .. لأنها تنفق على أسرة من تسعة من الأطفال .. وأبى مات ..  
وأبى أيضا .. فهل عندك حل آخر لإطعام الجميع ؟

وسمعت من فتاة أخرى أنه في المناطق الجبلية لا بد أن تكون الفتاة عذراء  
عند الزواج وإذا اكتشف العريس غير ذلك ، فعلى الأسرة أن تدفع له  
تعويضا من الجواميس ..

ونزلت في بيت ، أحد البيوت على الطريق ، وآداب الضيافة تقتضى  
منها أن تترك باب غرفتها مفتوحا وإلا كان معنى ذلك أنها لا تأمن أهل البيت  
على نفسها أو متاعها ، ولم تنم طبعاً ..

وما يزال الأطفال يملأون الطرقات ويطاردون السيارة الصغيرة ..

وانفجرت إحدى عجلات السيارة وتطوع اثنان من الطلبة لمساعدتها ..  
وهما يعرفان القليل من الفرنسية ، وأول شئ قالته لهما : باو .. شى .. فاب -  
أى صحفية فرنسية - وابتهج الشابان ، وهز كل منهما رأسه ودار بينهم  
حديث طويل ، وأكد لها أنه لا خوف بعد ذلك ما دامت صحفية فرنسية ..  
وركب الإثنان إلى جوارها ..

وبعد لحظات قفز من حقول الأرز جندي من قوات فيتنام الشمالية  
وصرخ : بسرعة .. انزلوا .. بسرعة ..

وحاول الشابان فتح الباب فلم يفلحا ، فساعدتهما ، وأخرجت جواز  
السفر الفرنسي ، وقدمها أحد الشابين إلى الجندي وهو يرتجف .

ولكن الجندي مد سلاحه حتى التصق السونكى بملابسها ولحمها -  
أقصد عظمها - ونزلوا جميعا ، وأخرج الجندي حبلا من جيبه ولف  
ذراعيها وراءها ، أما الجندي فشكله رهيب يرتدى بيجاما سوداء وبنطلونا  
ملفوفاً حول ساقيه ، وعلى وسطه حزام مليء بالقنابل اليدوية ، ولا بد أن  
هذين الشابين قد أصيبا برعب لأنهما يركبان السيارة مع إنسان أوروبي .  
وهذا واضح من الخوف الشديد على ملامحهما ..

وتكاثر الجنود .. من هنا وهناك ودار الكلام بينهم ، ولا بد أنهم حائرون  
ما الذى يصنعونه بفتاة فرنسية إنها مشكلة ، لو كانت أمريكية لكان أمرها ،  
ولكنها فرنسية وصحفية ، وأخيرا فكروا الحبل ، وربطوا ذراعها اليمنى بذراع  
واحد من الشبان وطلبوا إليها أن تقود سيارتها على مهل .. وساروا وراءها ..  
ولم تستطع أن ترى عيني أى جندي ، ولا واحد من الجنود حاول أن  
ينظر إلى عينيها أو إلى ابتسامتها وقد حاولت بصورة عصبية أن تؤكد لهم  
أنها هادئة وأنها لم تخف ، ولا تتوقع منهم أى أذى ، ولكن أحدا لم يلتفت  
إليها ..

ولكن أحد الطالبين تشجع وقال لها : اهدئي .. اهدئي .. اصبري !  
وأشاروا إليها أن تتجه إلى طريق جانبي ضيق .. فتركت الطريق الواسع  
المرصوف ، وبدأت سيارتها تخوض في حقول الأرز ، وفي الحقول قنوات  
صغيرة ، عليها ألواح خشبية ، إنها الآن لا شك أسيرة ، ومنذ هذه اللحظة  
لا تعرف لها مستقبلا ، كل شيء راح فجأة، إنها الآن في الجانب الآخر :  
في المعسكر الآخر ..

ومن السيارة رأت فتاة صغيرة تمص عودا من القصب ، فمدت يدها  
إليها تداعبها وظنت الفتاة أنها تريد عقلة من عود القصب فأعطتها واحدة ..  
وضحك الجنود .. أخيرا شعرت هي بشيء من الأمان وضحكت . لقد  
انفرجت الأزمة الحادة بين الجميع ..

وأشاروا إليها أن تنزل فالدنيا ليل، ووقفت السيارة أمام أحد الأكواخ ..  
الكوخ به سريران وكلاهما مصنوع من الخشب ، والمخدات خشب أيضا ،  
وطلبوا إليها أن تنقل أمتعتها إلى أحد السريرين وجلست على السرير ، والعيون  
كلها تتجه إلى حذاءها العسكري المتين .. وعلى السرير الآخر نامت ثلاث  
سيدات .. وبين السريرين عدد كبير من الأطفال ، والحركة لا تتوقف ..  
سألها أحد الجنود : كوكا .. بيرة ..

ونظرت بما يدل على إن كان هذا صحيحا ، فأكدوا لها أن الذي  
استولوا عليه من الأطعمة الأمريكية كثير جدا .

وطبعا فتشوا حقائبها كثيرا ، ولكنها تخاف من الأوراق الأخرى التي  
تدل على أنها مراسلة أمريكية ، وابتلعت هذه الورقة ، وأوراقا أخرى ،  
ولو ضبطوها لتغيرت المعاملة فورا ، وكان مصيرها أقسى وأسوأ ..

ثم جاء الطالبان وتمنيا لها حظا سعيدا وودعاها قائلين : هذه هي الحرب  
وهذا هو حال الدنيا .. وكان عليها أن تواصل السير .. إلى أين ؟ إنها لا تعرف

وأخيرا ظهر «مدرس الشيوعية» وكان يتكلم الفرنسية، وكان يرتدى الملابس السوداء ، ويضع على كتفه جوالا صغيرا وصافحها بشدة وحرارة ، وقال لها : أنا في حاجة إلى أن أتناقش معك في مكان آخر ..

ثم جاءت سيدة وجلست إلى جوارها واقتربت منها أكثر ، وهزتها بقوة ، وشددت على يديها وبجراحة هناؤها أو هكذا يبدو أنها فعل ذلك ، وتأثرت ميشيل رى من هذه الحفاوة وهذه الرقة ..

ورأت شابا في غاية الرشاقة والقوة والجمال ، إنه جندي ، لم تستطع أن ترفع عينها عنه ، وراح يداعب الأطفال ، إنهم بشر حقيقيون يضحكون ويلعبون وقبل أن يذهبوا إلى القتال .. أو وهم في ميدان القتال .

أما طعام الإفطار فمثل الغذاء والعشاء : سمك وأرز ، وليس أمامهما أن تختار .

وطلب إليها أستاذ الشيوعية أن تنزل إلى أحد المخابئ قبل أن تقع أية غارة جوية ، والمخبأ عبارة عن فتحة في الأرض ، لها سلم ، والإنسان ينزل واقفا رافعا ذراعيه إلى أعلى .. وبعد ذلك يمشى حانى الظهر ، ثم يجلس .. أما هوية هذا المخبأ فعن طريق عصي من الخيزران مفتوحة يدخل منها الهواء .. وبعد لحظات اقتربت الطائرات واندفعت الصواريخ والقنابل . نار.. جهنم لا يمكن أن توصف .. وبسرعة تسلك الناس جميعا إلى مخابئ تحت الأرض . ساعة .. ساعتين .. خمس ساعات .. عشر ساعات ..

وكان مدرس الشيوعية يلمسها برفق وهي تكاد تختنق .. وبعد ذلك خرجت من المخبأ واقفة .. إلى الهواء الطلق .. ولاحظت أن ملابسه قد اختفت . إنه الآن يرتدى الملابس البيضاء .. الآن فقط عرفت لماذا كان يتنفس بصوت مسموع .. إنه كان يغير ملابسه العسكرية ويرتدى ملابس الفلاحين ، حتى لا يقع في الأسر .

وعندما خرجت من المخبأ وجدت النساء والأطفال على سطح الأرض .  
كان شيئا لم يقع .. لا موتى ولا جرحى .. وإنما تحولت حقول الأرز إلى  
مغارات بسبب الصواريخ والقنابل .. وقدموا لها طعاما آخر من الأرز  
والسمك ..

وجاء شاب وراح يروى لمدرس الشيوعية كيف أنه نجا من ٢٠٠ غارة  
قبل ذلك . فقالت ميشيل رى لمدرس الشيوعية : كيف تصدق مثل هذا  
القدر ؟ فكان رده : يجب أن تكون عند الناس أحلام .. لعله نجا من عشرين  
غارة من خمسين غارة . لماذا لا يكون عنده أمل فى أن ينجو من مائة أو من  
مائتين ؟

ثم طلب منها مدرس الشيوعية أن تغنى .. وراحت تغنى بأعلى صوتها  
على الأقل لأنها على سطح الأرض . لم تمت . وتشم هواء صحيا ..

وقال لها مدرس الشيوعية سوف تصعدين إلى الجبل هذه الليلة . الجبل  
أكثر أمانا . ويجب أن يتأكدوا من شخصيتك ، وإذا ذهبت إلى العاصمة  
فسوف تجدين أختى هناك أنها مدرسة للغة الروسية . ولما سألته ولماذا  
تذهب إلى العاصمة ..

فأجاب : إن الناس جميعا يعلمون أنك قررت السفر إلى العاصمة مشيا  
على الأقدام .

أى ١٨٠ كيلو مترا مشيا على الأقدام ولذلك كان الجميع يهتفونها على  
شجاعتها . الرجال والنساء . مع أنها لم تقرر شيئا من ذلك . ولكن لا بد أن  
الشابين قد ترجما عباراتها خطأ !

وقرر أحد الضباط أن تغير ملابسها وأن ترتدى ملابس نساء فيتنام .  
وجاء الترسى وفصل لها الملابس . وتغيرت ملامحها . ووضعت القبعة

الفيتنامية التي تشبه القمع . ولكنها احتفظت بالحذاء الأمريكى .. وحاولت أن تدفع ثمن هذه الملابس ولكنهم قالوا : إنها هدية لك !

وكان عليها أن تصعد الجبل . الجميع يفعلون ذلك . وقبل أن يتركها مدرس الشيعية أعطاها بعض الفيتامينات : ب ١٢ و اترويين للعينين ومورفين للتخدير وكانت تحتفظ في جيبها بأربع حبوب ضد الملاريا .. واحدة كل أسبوع ..

سألت : متى يطلقون سراحي

قيل لها : لا أعرف

سألت : أنا لا أفهم لماذا أنا أسيرة ؟

قيل لها : يا سيدتى سوف نسأل بعض الراهبات الفرنسيات عنك . وسوف نقول لهن إنك فى الحفظ والصون .. لا تنظرى إلى ملابسنا وحالنا يا سيدتى .. نحن فقراء ولكن عندنا كبرياء ..

ومدت يدها إلى جيبها وأخرجت رواية أسمها « الجزيرة » من تأليف روبرير ميرل . تقول الرواية فى إحدى صفحاتها : لا تفكر فى غدك . ارض بيومك . تخلص من مخاوفك . فالخوف هو هذا المرض الذى أصيب به الرجل الأبيض . وهذا الخوف هو ذلك الذى جعل الرجل الأبيض يصاب بمرض أكثر خطورة اسمه : المستقبل .. نحن أحياء .. وهذا يكفى وحده !

وقبلت الصفحة .. وضمت الكتاب إلى صدرها وهى تقول : لا داعى للتفكير فى الغد .. فالיום كالغد . فأنا أعيش فى حاضر بلا مستقبل ! وليكن ما يكون !

مضت أيام .. عشرون يوما .. تمشى فى حقول الأرز وتختفى من الغارات

الأمريكية وتنفس من خيزرانة مثقوبة وتخرج من الطين لتجد الوجوه  
المشرقة للجميع : انهم انتصروا على الأمريكان لم يمت أحد .

وأخيرا جاءها أحد الضباط وقال لها : عندى لك خبر هام . سوف

نطلق سراحك !

لم تعرف هل تبكى . هل تشكره ؟ تشكره على ماذا ؟ على الأسر ؟  
على الخوف ؟ على الطين ؟ على الخائبى .. إنها الحرب . وطلب إليها أن  
تكتب وثيقة تقول فيها : إن الأمريكان يقتلون النساء والأطفال .

ورفضت . ولكنهم لم يعارضوا .

ثم أعدوا لها طعاما من الأرز والدجاج والموز . وأما محتويات حقائبها  
جميعا فقد أعبدت لها . وتأكلوا من أن شيئا لم يضع . واعترفت بذلك ..  
وبكت .

واعترضوا أنهم لم يستطيعوا أن يبعثوا بها إلى إحدى المدن فى طائرة ..  
ولذلك ليس أمامهم إلا أن يضعوها على إحدى العربات .. وهى منذ هذه  
اللحظة لا خوف عليها ..

وعند إحدى النقاط تركوها .. وكان عليها أن تمشى على قدميها . وفجأة  
اعترضها أحد الأمريكان .. وبكت .. وعرفت أنها انتقلت إلى الضفة  
الأخرى من الجحيم ..

وفى إحدى المعسكرات التف حولها جنود المخابرات الأمريكان يسألونها  
عن كل شئ . والذي أدهشهم أن جنود فيتنام الشمالية لم يسألوها عن أى شئ  
ولا طلبوا إليها أن تذكر اسم ضابط واحد أو موقع واحد .. أو عدد الطائرات  
لا شئ .. ولم يصدق ضابط المخابرات الأمريكان ما قالت ميشيل رى .

وبعد أن عرضوا عليها عددا من الخرائط وأسماء المدن والقرى والمواقع

والحنادق والمخابئ . أكدت لهم أنها في طين دائم وتحت الأرض بسبب الغارات الأمريكية ..

وتقدم منها أحد كبار الضباط ليسألها :

– آخر سؤال يا آنسة ..

– تفضل .

– هل اعتدى عليك واحد من هؤلاء الوحوش ؟ ..

– وضحكت وهي تقول : كانوا في غاية الرقة .. ولم أر أحدا في حياتي

في مثل وحشيتك هذه !

ثم خلعت قبعتها وقمصها وحذاءها وراحت تتثنى بين ضباط المخابرات

لقد تذكرت أنها عارضة أزياء !

الذين ينظرون السحاب  
وحيوانات أخرى... !

مهما عرفت عن أمريكا فعلمواتك قليلة عنها . لأن هناك أكثر من أمريكا .. أمريكا التي يعرفها الأمريكان . وأمريكا التي يعرفها العالم عن أمريكا .. وأمريكا البيض . وأمريكا السود .. والولايات المتحدة ضد بعضها البعض .. ثم إنك في أمريكا لا تجد إنسانا « أمريكيا » كل واحد من أصل إنجليزي أو ألماني أو إيطالي أو سويدي أو إيرلندي .. والزواج من أصل أفريقي . والهناد الحمر من أصل هندي أو مغولي .. لا أحد في الولايات المتحدة الأمريكية يجرؤ على القول بأنه أمريكي - فيما عدا الذين حصلوا على الجنسية الأمريكية أخيرا جدا منذ أيام مثلا .

وملاحظات كثيرة مثل هذه جعلت أحد الناشرين الأمريكيين يطلب إلى الكاتب الطريف جورج مكش - أنطقها جورج بكش بناء على رغبته وللدلالة على طبيعته أن يكتب هذه الملاحظات ووعدته . ولكن الناشر الأمريكي أصر على أن يستعير المؤلف بعض أساليب الأمريكان الغربية في كل شيء . فطلب إليه أن يدخل الغرفة المكيفة الهواء المجاورة ويمسك القلم ولا يدق الجرس إلا بعد أن يكون قد فرغ من الكتابة في جلسة واحدة أو يوم واحد ، أما الفلوس فقبل ذلك بساعات ، وسأله إن كان يريد شيئا قبل أن يكتب وكان رد الكاتب الإنجليزي جورج مكش . الجري الأصل : أن أموت بين أهلي وأسرتي ، وأن يعلقوا على قبري هذه العبارة ، لا أحب أن أعيش على الطريقة الأمريكية وأفضل أن أموت على الطريقة اليابانية فأضع القلم في قلبي وأصرخ مرة واحدة وينتهي كل شيء ..

وجلس جورج مكش رغم ذلك يولف كتابه الساخر بعنوان « كيف تنطح السحاب – الولايات المتحدة بعد ارتيادها وإعادة اكتشافها وتفسيرها » وهي محاولة لنطح الذين ينطحون السحاب ، والكواكب الأخرى ..  
أما من هو الأمريكي أو « الجدع » الأمريكي فهو أى إنسان يرتدى بدلة مكوية تماما ، فالبنطلون له حد مثل حد الموسيقى وكذلك الجاكتة ، وله كرافته وقيص نظيف وسيجار ضخم يتناسب تناسبا طرديا مع المكانة الاجتماعية لك ولا بد من وجود قبعة ، بشرط ألا يخلعها الإنسان عندما يدخل أى مكان عام – فقط فى الأساسيرات ، وكذلك التدخين ممنوع فى المصاعد الكهربائية ، وكن فى استطاعتك أن تحرق عين أى إنسان آخر دون أن تعتذر ، وإذا اعتذرت اعتبروك من الأمريكان الجدد ..

وإذا ارتديت ملابسك ، فعليك أن تكملها فى الطريق ، عليك أن تجرى إلى سيارتك ، وبسيارتك تزامح الناس . . وانفعل جدا عند إشارات المرور ، ويجب أن يكون دخان السيجار دليلا على حالتك العصبية ، ولا تسأل نفسك إلى أين أنت ذاهب ، فكل الذين حولك يندفعون دون أن يكون هناك سبب واضح ، اندفع ، انطلق دون سبب واضح ، فكل شئ هنا يتم بسرعة ، الغذاء يقدمونه لك فى دقيقة والعشاء فى نصف دقيقة .. ولا بد أن لإنتاج الأطفال فى أقل من ذلك – أقرأ فى المجلات النسائية باب شكوى اللاتى تزوجن حديثا !

وبعد أيام فى أمريكا يعتاد الإنسان على أشياء كثيرة غريبة فكل الشوارع واسعة ومستقيمة على عكس إنجلترا : كل الشوارع منحنية مكسورة وقصيرة .. وهناك عمارات أكثر من مائة دور ، وكل ما يقدم لك من طعام ضخم فالدجاجة يقدمونها لك ولا تصدق أنها دجاجة ، لا بد أنها أوزة أو قفص دجاج ..

وفى استطاعتك أن تندهش ، ولكن من الأفضل أن تضحك فكل الناس

يضحكون بسبب ومن غير سبب . ان التعليمات الصحيحة تقول : أن الضحك صحة ، ولذلك فهم حريصون على أن يكونوا في صحة جيدة ، وإلا كان ذلك إهانة لأمريكا ، كيف يكون الإنسان أمريكيا ومريضا ، ان المرض من أهم صفات الشعوب الأخرى .

ذهب فنان أوروبي إلى أحد رؤساء مجالس الشركات ورسم له لوحة ، وسأله رئيس مجلس الإدارة : كم تريد فيها ؟ فقال الفنان بكل حسن نية وتواضع : ٢٠٠ دولار .

وهز رئيس مجلس الإدارة رأسه : ولكن إذا أردت منها ٥٠٠ نسخة فكم تأخذ ؟

ولم يفهم الفنان معنى هذا الطلب .. لأنه لا يستطيع أن يرسم ٥٠٠ مرة .. ولكن رئيس مجلس الإدارة قال له : أريد أن أعلق لوحة في كل فروع الشركة لن أعطيك أكثر من ٢٠٠ دولار على كل نسخة !

ولابد أن الفنان الأوروبي قد ذهبل من هذا الرقم الذى لا يحلم به .. ولما رأى الرجل الأمريكى دهشته قال له : إذا كنت فنانا فابدأ فوراً في عمل ٥٠٠ صورة أخرى !

وكل شئ في أمريكا تقوم به الآلات الحديثة .. أو هم يحاولون ذلك .. فأنت تضغط على زرار وتجد نفسك في حالة حب ، وزرار آخر تجد نفسك قد تزوجت ، وثالث وتكون قد أعطيت حريتك من الزواج ، وتضغط زرار وتجد نفسك قد أخذت دشا أما الكتب القديمة كلها فيمكن استحضارها بزرار .. وهكذا ..

وأتعس الناس في أمريكا هو سائق الأتوبيس لأنه يقوم بعدة أعمال : يقطع التذاكر ويعطيك الباقي ، ويقفل ويفتح الأبواب ويراعى عدد الركاب وفى نفس الوقت ساعات عمله ثم أنه و الذى يسوق الأتوبيس ، ولا بد أن

أمريكا في حاجة إلى من يدها على اختراع قديم اهتدى إليه العالم كله ،  
ولا عيب عليها إذا اقتبسته وهو أن يكون هناك شخص آخر إلى جانب ..  
السائق .. شخص أسمه الكمسارى ..

وفي أمريكا يرفعون الكلفة بينك وبينهم بسرعة ، ولا يهم من أنت ،  
فإذا كنت مثل البرت اينشتين العالم الألماني صاحب نظرية النسبية فإن  
المذيع سوف يقدمك للجمهور هذا : معنا الليلة الجذع الشهير جدا البرت  
اينشتين : هالو البرت .. أنها فرصة سعيدة جدا أن نراك .. أريد أن أوجه  
لك بعض الأسئلة .. أولا قل لي يا ألبى ما هذه النسبية ؟ لا تنزعج يا برتى ..  
لا تنجل ..

ولا أحد يندهش لما يقوله المذيع فإنهم يفعلون ذلك مع أى إنسان آخر  
أصغر أو أكبر من هذا العالم الكبير .. وإذا علم أحد سكان العمارة أن  
زوجتك مريضة ، ورأى من واجبه أن يسألك عنها ، وقابلك في أى مكان ،  
فإنه يقول لك : هالو .. مستر .. كيف حال السيدة ؟ ..

فإذا ظهر عليك الحرج بسبب هذه الجريمة الغريبة – الوقاحة أيضا  
خصوصا أن علاقتك به لا تعطيه هذا الحق – فإنه يظن أنك حزين جدا على  
ما أصاب زوجتك. ولذلك يبادر بقوله : ولا يهمك .. كل شئ يمشى في  
طريقه الطبيعي .. فى العام الماضى ما تت زوجتى .. وأنا الآن أعيش حياتى  
العادية .. كن طبيعيا ..

والأمريكان لا يحبون الهمس .. انهم يتكلمون بصوت مرتفع ، ولذلك  
إذا سألت إنسان عن شئ فإنه يقول لك : أضرب .. شوط .. كأنه يطلب  
أن تطلق عيارا ناريا .. أو تشوط كرة في مرمى مفتوح .. ولا يحبون مثل  
هذه العبارة : أظن ذلك .. لعله ذلك .. ربما .. لا أدري يمكن .. ان هذه  
العبارات تضايقهم ويفضلون عليها عبارات أخرى أكثر وضوحا وصراحة  
عبارات قاطعة مثل : زباله .. قرف .. كلام فارغ .

والأمريكان لهم علاقة غريبة بالأشياء التي يستخدمونها ، أو بالعالم المادى فالرجل الإنجليزي يقول لك بمنتهى الفخر : سيارتى هذه عمرها عشر سنوات ، وقد قطعت مائة ألف كيلو متر ، ولكن الأمريكي يغير السيارة كل سنة ، وأحيانا مرتين فى السنة وينسى ماركة السيارة القديمة ، وإذا أمطرت السماء فإنه يدخل أى محل ويشتري لنفسه بالطو واقيا من المطر بدولار .. فإذا توقفت الأمطار ألقى بالباطو فى أى صندوق زبالة وكذلك الشمسية إذا اشتراها ، وإذا باع بيته فإنه لا يفكر فى أن يأخذ معه بعض أثاث البيت ، انه يتركه كله ، وفى الصحف تجد إعلانات تقول : من أراد أن يحصل على بيانو ماركة كذا ، فليذهب إلى بيت رقم كذا شارع كذا .. انهم لا يشغلون أنفسهم كثيرا بهذه الأشياء القديمة .. والذي يفعلونه فى أثاث البيوت ، يفعلونه أيضا فى المدن .. فهم يبنون مدينة بالقرب من أحد مناجم الذهب .. فإذا انتهى العمل من المنجم هجروا المدينة كلها .. فليست عندهم هذه التقاليد الأوروبية أو الآسيوية أو الأفريقية القديمة التي تربط الإنسان بالماضى أو بالحنين إليه فيقول : هذه الساعة تركها لنا جدى العظيم .. أو هذه الحزمة هى آخر مخلفات المرحوم والدى .. وهذه السكين هى التي اشتريتها جدتى لأول مرة .. إلى آخر هذه السخافات التي لا يقرها الأمريكيان فالتقاليد عندهم هو ترك القديم والبحث عن شئ جديد أو الهرب من أشباح الماضى أيا كان هذا الماضى .

وفى أمريكا كل إنسان يريد أن يضحك أو على الأصح أن يمرح ، وهم يجدون ذلك بسهولة ، فقد يقول الشاب مثلا : أمس جلست أنا وصديقتى نضحك معا ساعات .. دون أن يكون هناك أى سبب لذلك ..

وإذا كان لدى السائح الأوروبي رغبة فى العذاب أو التسلية فعليه أن يركب القطارات تحت الأرض .. لا ينفع معها أى علم أو أية تجربة .. وإذا شئت أن تقضى حياتها كلها تبحث عن شارع أو محطة فإن هذا يمكن أن

يتحقق لك بسهولة فسوف تجد نفسك في أى مكان إلا المكان الذى تريده .  
وقد تصل إلى بيتك عن طريق الخطأ ومن الغريب أنهم يعرفون التفرقة بين  
الأرقام والحروف التى لا نهاية لها في كل محطات المترو .

والمجتمع الأمريكى خليط من كل الأجناس ، وهم يكونون لبعضهم البعض  
أنواعا من التعالى . فالملطون يتعالون على الزنوج ، والزنوج يتعالون على المخلطين  
السمر والذين من أصل سويدي يتعالون على الألمان ، والألمان يتعالون على أبناء  
أوروبا الوسطى ، وأبناء أوروبا الوسطى يحتقرون الإيطاليين ، والإيطاليون  
يحتقرون الأسبان والأرمن والإيرانيين ، والأسبان والإيطاليون معا يحتقرون  
أبناء أوروبا الوسطى .. والجميع يحتقرون اليهود ، واليهود يتعالون على  
كل الناس ، والأمريكان يكرهون أهل نيويورك ، وأهل نيويورك يكرهون  
أهل الغرب ، وأهل الشمال يكرهون أهل الجنوب ، والمهاجرون يحتقرون  
اللاجئين إلى أمريكا من كل مكان في العالم .. واللاجئون يحتقرون الذين  
وصلوا أخيرا .. والذى وطئت قدمه أمريكا يحتقر الذى يجئ بعده بدقيقة  
واحدة .. وهكذا تجد العلاقات التى تربط بين كل سكان أمريكا : انهم  
جميعا ينظرون إلى بعضهم البعض من فوق .. وإلى العالم كله كذلك ! .

وتختار أنت أين هو الإنسان وأين هو الحيوان .. ثم من هو الأمريكى !؟

أما المحلات التجارية في أمريكا فهى من عجائب الدنيا ، فإنك تجد في  
كل محل ما تريد ، ويجب ألا تندش ، فإذا أردت سبائر فاذهب إلى البقال ،  
وإذا أردت أن تمسح حذاءك فاذهب إلى الحلاق ، وإذا أردت شراء راديو  
فاذهب إلى المكتبة وإذا أردت حقيبة فاشترها من الأجزاخانة ، وإذا أردت  
أن تبعث برقية لأحد فلا تذهب إلى مكتب البريد لأن مكاتب التلغراف  
قطاع خاص .

ومن الأشياء المضحكة حقا صفحة الوفيات في الصحف الأمريكية ..

إعلانات غريبة لشركات دفن الموتى ..

فهناك مثلا : جنازة تجعلك مستريحا مدى الحياة .. جنازة لن تضيق بها جنازة مريحة .. جنازة تسعد أسرته شهورا بعد ذلك .. جنازة لا تنسى لن تتكلف أكثر من ١٥٠ دولار .. قبر تحت أشجار جوز الهند .. تعال عندنا ونحن ندفنك أفضل !

ومن العجيب أن الأمريكيان يذهبون إلى هذه الشركات ويختارون قطعة الأرض ونوع الأشجار ، ويحیی الحانوتى ويقیس أجسامهم ، ويعرض عليهم أنواع القماش ، وكذلك الأغاني والتراتيل التي تذاع أثناء الجنازة أو أثناء الدفن .. ويخرج الناس من شركات الدفن وهم سعداء منتظرون ذلك اليوم العظيم ..

ولا شك أن الحانوتى هو الرجل الوحيد في العالم الذى له مستقبل .. والذى ينظر إلى كل إنسان على أنه زبون حتما ، اليوم أو غدا .

ولابد أن الذى يزعج في أمريكا هو محطات الإذاعة والتلفزيون ، فلا أحد يعرف ما هذا الذى يقال ، ولا كيف وإلى من يقال ، إن هذه المحطات كلها تحطم الأعصاب وتحول المستمع إلى قطع من العجينة تأخذ الأشكال التي تريدها الشركات التي تعلن عن السلع . الجبنة مثلا ، وعلى أساس هذه الإعلانات يمكن معرفة الثقافة الأمريكية كلها ، فالهدف الثقافى من وراء هذه الإعلانات هو أن يشتري المواطن مزيدا من الجبن أكثر مما يحتاج وحرية الكلام معناها حرية كل شركة في أن تعلن عن السلعة التي تريد ، وأن تنزل بمستواها إلى مستوى الجماهير ، فهذا هو النزول إلى مستوى الجماهير ، أما الأخبار فمجانا ولكن الإعلانات مقدسة .. مكذبة .. ملايين مكذبة ..

وإذا سافرت بين الولايات المختلفة في أمريكا فإنك ستجد خلافات صارخة في تطبيق القوانين .. أو في القوانين الولايات نفسها .

ففي ولاية منسوتا ممنوع نشر الملابس الداخلية للرجال والنساء على جبل واحد .

وفي أنديانا ممنوع أن يهدد الحلاق الأطفال الصغار بقطع آذانهم .. وفي ميسورى ممنوع على رجال المطافئ أن يمشوا فى الشارع بملابسهم الداخلية . مهما كانت الأسباب ، وممنوع أن يركب الإنسان الترام ورائحته ثوم .. وفى نفس الوقت من الممكن أن تجد الإعلانات تمتدح إحدى جزر المحيط الهادى لأنهم يأكلون الثوم .. ومن الغريب أنهم يأكلونه على شكل عصير .. وهذا ما تفعله إحدى الشركات الأمريكية ، وهذا الثوم هو العامل الأول فى جمال البشرة وقوة الإنسان .. وفى النجاح فى العمل . لأن الإنسان إذا أكل الثوم فلن يقترّب منه أحد ، وهى فرصة عظيمة لكى يعمل أو يفكر أو ينتحر ..

أما حكام أمريكا فهم أعجب الكائنات على الأرض .. على الأرض الأمريكية أو غيرها ..

يقول جورج مكش فى مقال إذاعى :

حضرت أكثر من مؤتمر سياسى .. أو حزبى .. وظهر المرشح .. ولم يقل أى شئ .. ولكن قدموه على أنه أحسن لاعب تنس .. أو كاد يغرق مرتين فى اليابان .. وفى المرة الثالثة تعلق بلوح خشبى .. وكان اللوح مغطى بالزيت .. ولكنه كان حريصا على ألا تتسخ ملابسه .. كأنه كان يفكر فى زوجته المريضة وفى نفس الوقت فى خادمته الزنجية .. وكأنه كان يعلم بالضبط أن يوم الغرق قد صادف يوم أجازتها الأسبوعية .. انه إلى هذه الدرجة حاضر البديهة .. انه يفكر فى كل شئ .. فكيف لا يكون مرشحكم لرياسة الجمهورية ..

ومن مؤهلات المرشح لا شئ :

زوجته وأولاده وسيجاره وسيارته وكلابه وخبوله والكنيسة التي يتردد عليها .. وجيرانه أيضا إذا كان جيرانه سعداء ، فهو قادر على إسعاد الملايين غيرهم من جيرانه الذين يبعدون عنه ألوفا وعشرات الألوف من الأميال إنها مقدره غريبة عند المرشحين الأمريكيان في فترة الحملات الإنتخابية .

وعلى الرغم من أن الأمريكيان يدعون للرحمة والسلام في كل مكان ، فإنهم لا يفعلون ذلك مع الزوج : ولا رحمة ولا إحساس بأنهم مواطنون من أى درجة ، ولكن بين الحين والحين تظهر خادمة زنجية في صور المرشح أو يظهر المرشح وهو يهدى لابنته صورة للمثل الزنجي سيدنى بونتيه .. مثلا .

ولكن الزوجة مهمة جدا .. خصوصا ملابسها وإنفاقها وابتسامها العريضة ووقوفها إلى جواره أمام الناس طول الوقت .. ولا يهم بعد ذلك رأيها في الزوج أو في البيت أو في كل هؤلاء الناس ، وقد يعرف الناس الكثير عن التعاسة الزوجية للمرشح ، ولكن يرون أن هذا شئ طبيعي ، أن يكون سعيدا في الصور ، تعيسا في الحقيقة فهو إنسان طبيعي واقعي ، ومن أجل ذلك فهو خير من يمثلهم .

\* \* \*

وبعد ساعات فرغ الكاتب الإنجليزي المجرى الأصل جورج مكش من كتابه عن « كيف تنطح السحاب » وأعطى الكتاب للناس الأمريكي وعينه على الشيك ذى الأربعة الأرقام .. وهو يقدم له خطابا يقول فيه : لى رغبة أخيرة قبل أن أموت .. أن ينشر هذا الكتاب بعد الوفاة ..

وكانت نبوءة فقد صدر الكتاب في نفس الأسبوع .. بعد وفاة الناشر الأمريكي ..

إِذَا رَغِنِي الْبِرغُوتَ مَاثِ ..  
فَأَنَا مَسعُومٌ !

إن الإنسان فقد القدرة على أن يرى أبعد ، ويسمع أرق ، ويشم أعمق ،  
ولذلك فسوف يموت دون أن يدري ذلك – عبارة قالها الطبيب الإنسان  
أشفيتسر الفائز بجائزة نوبل ..

إن الإنسان يدق الآن باب جهنم بعنف وبعد لحظات يصحو الموت  
ليحصد الجميع – قالها العالم الكبير إينشتين عندما اخترعت القنبلة الذرية .  
إن إنسانا ما قد جاء إلى هذا البيت ولم يجدني على مكتبي فأطلق رصاصة  
على كلبى ، انه إنسان فى غاية القسوة لقد أراد أن يوجعنى مرتين .. مرة  
على فقد هذا الحيوان المسكين الأمين ، ومرة على ما وصل إليه حال الإنسان ..  
انه يقتل مجرد القتل – قالتها الكاتبة الأمريكية راشيل كارسون التى فازت  
بعشر جوائز دولية عن كتابها « الربيع الصامت » الذى وصفت فيه أعجب  
رحلة للموت .. أو للسم الأبيض الشفاف الذى ينتقل من أى شئ .. من الماء  
والهواء والتراب إلى خلايا الإنسان والحيوان والنبات ومن الإنسان إلى  
الماء والهواء والتراب إلى النبات والحيوان ثم إلى الإنسان .. إن الجميع  
يحملون السموم للجميع .. انها أقسى معركة صممت عرفها الإنسان والحيوان  
والنبات فى التاريخ .. فنحن نموت أما الفاعل الحقيقى فهو الإنسان ..  
ولنبدا الرحلة ، رحلة السم ، والحزن معا .. أو رحلة السموم الحزينة ،  
أو الأحزان السامة .

كان ياما كان قرية صغيرة جميلة .. الشوارع واسعة والأشجار خضراء  
وارفة ، الأزهار كثيرة باسمة .. وكانت الفراشات حائرات .. كالأوراق

تناثرت من الشجرة ، أو كأوراق التصقت بالشجر . وكانت العصافير تلاحق شعاعات الشمس .. وعليها وفي ضوئها تلتقط الحبوب والديدان .. وكانت القنوات في لون الذهب .. وكانت الأسماك تسبح تحت الماء في رشاقة تأكل الأعشاب .. أو لا تأكل شيئاً : إنها فرحة الحياة .. أو هي الحياة .. وفي الوديان الخضر قطعان الأغنام .. ان مجرد النظر إلى وجوهها وصوفها يؤكد أنها في صحة جيدة .. أما ذلك الطفل الذى جلس على قطعة من الحجر يأكل السندوتش ، فهو صورة لكل ما أنعم الله على الإنسان : العقل والصحة والحرص عليهما . أما هذه الأجراس التى نسمعها من بعيد فهى لأبقار امتلأت باللحم واللبن .. وفجأة ..

وفجأة ، ولسبب غير واضح تماما ، تغير لون السماء .. على أثر ضوضاء من طائرة عابرة .. وشئ أبيض كأن مليون إنسان يدخنون سيجارة واحدة وينفثونها في وقت واحد .. انها سحابة بيضاء .. مرت .. عبرت .. استغرقت المكان وأغرقتة .. فنساقطت الطيور .. ودبلت الأزهار .. وتراخت الأغنام .. ورفعت الأبقار رؤوسها عن الأعشاب .. أما الأسماك فلم تقاوم فقط الماء .. وإنما طفت على وجهه .. ان الأسماك قد أغرقها الماء .. حتى الطفل الصغير أحمرت عيناه ودمعتا .. وراح يعطس ويسعل وبعد ساعات ماتت الأغنام والأبقار أيضا .. أما الزهور فذبلت وسقطت .. ولسبب غير واضح لم تقتلع الأشجار جذورها وترك وراءها فتحة في الأرض كمقبرة .. كهم فاغر على استعداد لدفن كل شئ وظهر عدد كبير من الأطباء في القرية وسيارات الإسعاف !

ان هذه القرية الجميلة لا وجود لها .. ولكن هذا الذى حدث ، يحدث كل يوم .. وسوف يحدث غدا وبعد غد ..

ماذا جرى ؟ لا شئ .. ان الإنسان قام « بتلويث » الهواء .. وتلويث الماء .. وتلويث التربة .. ويمكن أن تستخدم كلمة « تسميم » إذا لم تكن

هذه الكلمة واضحة .. ان هذا الذى حدث هو نتيجة طبيعية للصناعة .. فالمصانع تترك مخلفاتها فى الأنهار والبحار ، وتطلق فى الهواء سمومها السوداء . أما السموم البيضاء التى تبيى من بعيد فهى مخلفات الانفجارات النووية فى كل مكان .. مثلا مادة « سترونتيوم ٩٠ » التى تنطلق مع الانفجارات النووية تبقى فى الهواء وتسقط على الأرض وتبقى هناك لتصل إلى النباتات إلى الحيوانات ومن ألبان الحيوانات إلى الإنسان .. أو من النباتات إلى ثمارها إلى الإنسان .. إلى جسم الأم إلى طفلها .. إلى القمح إلى الأرز إلى الإنسان .. إلى عظام الإنسان وكل خلاياه .. إلى غدده وإلى اضطراب وظائف هذه الغدد .. حدث هذا بصورة مباشرة ولا يزال يحدث فى مدينتى نجاساكى وهيروشىما فى اليابان – رأيت ذلك بعينى أنا كاتب هذه السطور ..

وقبل القنابل النووية عرفنا رحلة السموم هذه ، فى الحرب العالمية الثانية استخدم العلماء مادة الددت ( اختصار للكلمات : ديكلورو – ديفينيل – تريكلورو – ايثن ) فى رش ملابس الجنود واللاجئين والمهاجرين وأسرى الحرب للقضاء على القمل والبراغيث وكانت نتائجها باهرة .. ولكن فائدة الددت قد اهتدى إليها عالم سويسرى اسمه باول ميلر سنة ١٩٣٩ واستحق على هذا الاختراع جائزة نوبل ، فقد استخدمت هذه المادة فى القضاء على الحشرات ناقلة الميكروبات ، وهذه المادة اكتشفها عالم كيميائى ألمانى قبل ذلك سنة ١٨٧٤ .

وبعد أن عرفنا الددت أسرفنا فى استخدامه من أجل القضاء على أعداء الإنسان .. وأعداء الإنسانية بملايين الملايين : هذه الحشرات لا يمكن حصرها ويبدو أنه لا يمكن القضاء عليها ، ولو كان داروين على قيد الحياة لشعر بشئ من السعادة والعار فى نفس الوقت ، فعبارته التى تقول : ان البقاء للأصلح صحيحة ، وكان يقصد بها الإنسان الذى استطاع رغم كل ظروف البيئة القاسية أن يرفع ظهره ورأسه وأن يجعله عقله فى أسنى مكان

من جسمه وحياته . ولكن صراع الإنسان مع البيئة ومحاولته السيطرة المستمرة عليها يبدو أن الإنسان ليس هو السيد .. فالحشرات أقوى منه وأبقي منه ، والبقاء لها ، فكما أن الحشرات كانت أسبق على ظهر الأرض .. فسوف تبقى بعد انقراض الإنسان ، أن حربا عنيفة يشنها الإنسان على الحشرات ، ولكنها تنتصر دائما ، ان هذه الحشرات تحاول أن تجعل الإنسان نوعا من الديناصور : قويا هائلا وفي نفس الوقت عاجزا لينقرض بعد ذلك !

وهذه الحشرات تصارع الإنسان في مجالين : تأكل طعامه .. أو تحمل تحمل إليه الميكروبات ، وهو يجارب في المجالين ، فعندما يقتلها الإنسان يقتل نفسه أيضا ، فهو يضع لها السم لكي تموت .. ولكنه يضع السم في الطعام الذى تعيش عليه الحشرات ويعيش هو عليه .. يضع السم في القمح والأرز والفاكهة والماء والهواء .. هذا هو طعام الحشرات وطعامه أيضا وكل المبيدات الحشرية التى يستخدمها لقتل الحشرات فى الدرجة الأولى ، وتقتله وهو فى الدرجة الثانية .. ثم أن هذه الحشرات بعد ذلك تتكيف وتصبح قادرة على أن تعيش رغم هذه السموم ..

ولم تعد هذه المبيدات الحشرية التى يستخدمها مجرد سموم لأنها تعتمد فى الدرجة الأولى على الزرنيخ والزنك والنحاس والرصاص وغيرها من المعادن ولكنها تتدخل فى وظائف الجسم الإنسانى .. فتجعله ضعيف المقاومة أو تخنق أنفاسه أو تغير جنسه ، أو تبلد عقله .. انها تقتل الإنسان بأشكال جديدة . ولكنها لم تقتل الحشرات ، فالحشرات تقاوم وتتكيف وتعاود الاستعداد لقتل الإنسان .. وعليه هو أن يفكر فى سم جديد وهو الزرنيخ كان المادة المفضلة فى قتل الملوك والأمراء من قديم العصور ، لأنه بلا طعم ، فإذا وضع فى طعام أو شراب لم يدرك الضحية أن شيئا غريبا قد سقط فى طعامه .. وقد شاهدنا ذلك كثيرا فى الأفلام .. عندما كان السم يخرج من الخواتم ومن الأقراط ومن علب صغيرة تحفظها الزوجة أو العشيقة فى

صدرها .. وبعد لحظات ترى أثر السم الذى لا علاج له .. ان أسرة بورجيا الإيطالية قد استهلكت نصف سموم إيطاليا ليقضى بعضهم على بعض - وربما كانت الرائحة الكريهة التى تشمها لأناييب البوتاجاز مقصودة لكي يتنبه الناس أن هناك تسربا للغاز فلا يشعل أحد عود كبريت وإلا اشتعل البيت !

وفى سنة ١٩٤٣ استخدمت قوات الحلفاء مادة الددت فى إيطاليا للوقاية من التيفوس والملاريا - أى ضد الذباب والبعوض ، ومات الذباب والبعوض وأنقذ مئآت الألوف من الناس ، ولكن بعد سنة واحدة بالضبط عاد ذباب البيت أقوى ما يكون ونشط البعوض بصورة مذهلة ، كأن هذا المبيدات فيتامينات لتقوية الحشرات ، ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟ أين ذهبت هذه السموم ؟

الجواب : أن عالم الحشرات هو عالم المستحيل ، فمن الممكن أن يحدث أى شئ ، من الممكن أن تؤدى السموم إلى تقوية الحشرات ، ومن الممكن أن تعطيا أسلحة جديدة غير متوقعة لمهاجمة الإنسان من جديد . فكأن الإنسان يساعدها على نفسه ! وكأن أحسن وسيلة للهجوم على الحشرات هو يستسلم لها ، وأن يترك لها نفسه وجسده وما يملكه بلا حراسة .. وعليها أن تأخذ ما تريد وتترك ما تشاء - وهذا كرم منها ، لأن الحياة لا تريد الإنسان ، لأنه الأضعف ، وتريد الحشرات لأنها الأقوى والأبقى ؟ !

وفى سنة ١٩٥٠ رشت إحدى قرى مصر بالددت ، فنقص عدد الوفيات إلى النصف ، وبعد سنة تماما عاد الذباب والبعوض وارتفعت الوفيات ، ماذا حدث ؟ انها نفس القصة الحزينة .. ونفس الرحلة القصيرة على جناحي ذبابة أو بعوضة من عالم الأحياء إلى عالم الأموات !

وفى سنة ١٧٨٧ ذهب الكابتن آرثر فيليب إلى استراليا ومعه بعض أشجار الصبار ليجعل منها سياجا لمدينته حتى لا تدخل الحيوانات وحتى لا تهرب الأغنام ، وفى سنة ١٩٢٥ لوحظ أن شجيرات الصبار التى أتى بها الكابتن

فيليب قد أصبحت تغطي ٢٥ مليون فدان في استراليا الآن .. وليس نوعا واحدا من الصبار ولكن أكثر من ٢٨ نوعا ، كيف ؟ أسأل شجيرات الصبار !

ان في العالم كله الآن ما يقرب من ٢٠٠ ألف نوع من النبات .. والصبار واحد منها ؟

وفي سنة ١٩٥٩ استخدم الأمريكان المبيد الحشرى المعروف باسم الألدرين أخطر المبيدات جميعا - في القضاء على الخنافس اليابانية ، وقضى المبيد على كثير منها ، وتوارى أكثر الخنافس في البيوت وفي بطن الأرض وفي الأشجار .. وماتت كل الطيور الصديقة والمعادية للإنسان وكذلك الكلاب والقطط . وبعد سنة عادت الخنافس بعد أن تغير لونها ، وزاد عددها ، انها توارت لتستعد في صمت وتعاود الهجوم على الإنسان دون أن تعطيه وقتا كافيا للتفكير في سلاح جديد ..

وفي سنة ١٩٤٤ استوردت أمريكا من فرنسا عددا من الخنافس للقضاء على بعض الأعشاب المتطفلة في الحقل هذه الخنافس تأكل هذه الأعشاب أو تقضى عليها وقضت على هذه الأعشاب وراحت أمريكا تصدر ملايين الخنافس إلى بلاد أخرى .. ولكن الخنافس نفسها ضارة ، أصبحت ضارة ، ولذلك كان من الضروري البحث عن حشرات أخرى تفرز مادة سامة على هذه الأعشاب لتقتل الخنافس .. وماتت الخنافس وبقيت الأعشاب ..

انها القصة القديمة .. انها قصة الدب الذى يقتل ذبابة على وجه سيده .. انه بحجر واحد يصيب الإثنين ويمتئى حسن النية !

ان العالم يجب أن يشعر بالضالة أمام هذا الذى يراه .. اننا لا نعرف بالضبط ما هذه الحياة .. ما حياة الذبابة والبوضة .. اننا أمام معجزات وألغاز حرنا فيها ، ان العالم يجب أن يكون متواضعا ، هذه ضرورة لأن الذى

يعرفه قليل ، لأن يده أقصر من ذراعه .. وأن عقله أقصر من أصابعه ..  
والكون واسع ملي\* بالمجهول ..

اننا ننظر إلى العالم من خلال نافذة ضيقة .. ولكن إذا بعدنا عن النافذة  
فالذى نراه من خلالها قليل صغير ضئيل .. وكلما اقتربنا من النافذة كان  
مجال الرؤية أوسع وأكبر فنحن نرى الدنيا من خلال نافذة صغيرة أسمها  
« الخلية الحية .. خلية الإنسان والحشرات والنباتات .. من هذه الفتحة  
الضيقة جدا نرى قدرة الله ، تبارك الله ، وجل جلاله ، ولا نعرف ما هذا  
الذى نستخدمه ، وضد من .. ضد الحشرات أو ضدنا .. اننا نشبه الفيل  
الذى يمشى على ملايين من الفناجين ونطلب إليه ألا يكسرها .. كيف !؟  
هذا ما نتصور اننا نفعله : أن نقتل الحشرات ولا نقتل الطيور .. أن نقتل  
الطيور ولا نقتل الزهور ..

اننا الآن نعيش في عالم غريب .. كل من يأكل ورقة أو يشم زهرة أو  
يقضم ثمرة ، يموت ..

نحن في عصر إذا لدغ برغوث كلبا ، فإن البرغوث يموت لأن الكلب  
مسموم .

نحن في عصر تجد النحلة تحمل رحيق السم وأكسیر الموت وتضعها  
بمنتهى الصبر والمثابرة في خليتها ..

اننا في عصر إذا حامت فيه الفراشة فوق الزهور فإنها تموت ، لأن  
أنفاس الزهرة تقتلها ..

ان كل الرعب والفرع الذى صورته الأساطير اليونانية هو ما نراه  
حقيقة الآن .. فى أساطير اليونان كائنات إذا نظرت إلى أى شئ صار حجرا  
أى مات .. أو صار مسحوقا من الملح .. أو صار مهلكا .. كل ذلك  
قد حصل ، ونحن القاتل والقتيل .. والمجرم والضحية ..

ولن نتوقف عن ابتكار أسلحة جديدة لمعاودة الحرب على ملايين الملايين من أعدائنا الصغار .. ولا هذه الملايين ستوقف عن تنظيم أطرافها الضئيلة وأجنتها الهزيلة في القضاء علينا من جديد .. إلى الأبد ..

وفي أساطير اليونان: أن الفتاة ميديا أحبت الفتى جاسون .. وكانت ميديا هذه ساحرة ، وكانت قادرة على فعل الكثير ، واتفقت مع الفتى على أن تساعد ضد أعدائه واستطاعت ، ولكنه تركها وأحب فتاة أخرى .. وهنا فقط قررت أن تقضى على الجميع .. وصنعت للعروس ثوبا من الحرير الأبيض ، وقدمته لها ، فلم يكذ الثوب يستقر على كتفي العروس حتى سقط .. لقد تحولت العروس إلى كتلة من الرماد .

ان هذا الثوب الأبيض الحريري الرقيق ننشره في كل مكان – باليد .. وبالطائرات .. إننا نلقيه على الحشرات فتموت الطيور ، وننصبه للطيور فتموت الحشرات .. ونضعه للأشجار فتموت الأبقار .. ويموت الإنسان ..

ان فستان ميديا الحريري الشفاف هو الذى نسجته من السحب البيضاء سحب الدود وغيرها من المبيدات الإنسانية – أى التى صنعها الإنسان على أعداء الإنسان – والإنسان هو أعدى أعداء الإنسان ..

٧ رجال وبطة وقر  
يحتون عنه مصر في أفريقيا!

الناس في غاية الرقة ، ولكن الأرض ليست كذلك .. الرمال ناعمة ولكنها في نفس الوقت لا مبالية ، والصحراء بحر لا موج له ولا أعماق .. والأهرامات أنياب ثلاثة تلهم السحب أو تنتظر ظهور القمر لتخيفه فيتوارى بعيدا . والزورق الصغير المصنوع من القش أو من ورق البردي ملقى على الرمال .. كأنه سفينة نوح التي بناها على الأرض قبل الطوفان .

فإلى هذا المكان جاء النبي موسى وخرج . وفي هذا المكان وضعت أمه في إحدى السلال ثم ألقت بها إلى النهر . وكانت السللة مصنوعة من ورق البردي وإلى جوار الزورق يوجد جمل يأكل بعض أوراق البردي ويرفع رأسه في نفس اللحظة التي هز أحد أبناء بورسعيد كتفيه ليقول : « أنه لا يمكن بناء زورق من هذا الورق » ثم ركب الأتوبيس عائدا إلى بلده ..

ويمضى الرحالة الترويحي تورهايردال يروي قصة مغامرته بالزورقين رع الأول ورع الثاني في كتابه « رحلات رع » وقد نشرت صحف العالم ووكالات الأنباء والشاشة والميكرفون الكثير « عن » هذه الرحلة .. ولكن الجوانب الإنسانية الشخصية الداخلية لم ينشرها أحد .. وقد أخفاها هايردال حتى نشرها في كتابه . وهو رجل ليس مغامرا .. وإنما هو صاحب نظرية ، اقتنع بها ويحاول أن يقنع الناس بها . إذن هو ليس صاحب رأى وواتق منه فقط ولكنه صاحب دعوة .. على مسافة قصيرة من الأنبياء !

أما قضيته فقد اختلف حولها العلماء .

أناس يقولون أن الحضارة الأمريكية قد نمت منعزلة تماما عن أفريقيا .  
وأناس يقولون أن هذه الحضارة إنما هي نتيجة لهجرة أهل أفريقيا إليها .  
الفراعنة بصفة خاصة .. أما كيف جاء الفراعنة إلى أمريكا ، فهناك رأى  
يقول أنهم ركبوا الزوارق المصنوعة من ورق البردى وعبروا المحيط .  
بعض علماء المصريات يقولون أن الفراعنة لم يبحوا بزوارقهم المصنوعة من  
البردى نهر النيل .. فهذا الورق يذوب في الماء .. ولذلك فهذه النظرية  
أيضا يجب أن تذوب في الماء ومن الأفضل للرحالة الرويحي أن يستريح .  
ولكنه لن يستريح حتى يثبت أنه على خطأ أو على صواب .. لا بد من التجربة .

فن أين جاءت حضارة أهل بيرو القدماء أهل المكسيك ؟ عندما جاء  
خريستوف كولمبوس إلى أمريكا اكتشف أن هناك حضارة متقدمة . وأن  
هناك فنونا متطورة أكثر تقدما من الفنون الأوروبية .. من أين جاءت ؟

يقول العلماء أن الإنسان الذي جاء إلى أمريكا قد انتقل إليها من سيديريا ..  
من آسيا .. ثم عبر المضيق بين آسيا وأمريكا . وفي ظروف غير معروفة لدينا  
ظهر في أمريكا وزحف إلى الجنوب . إنسان جاهل . إنسان العصر الحجري .  
لا يعرف الزراعة . ولا استخدام المعادن . لا يعرف الزمن ولا الكتابة .  
وعن طريق الهجرة والاختلاط جاء الهنود إلى أمريكا . وهؤلاء الهنود  
مختلفون عن بعضهم البعض . أشكالهم مختلفة . لغاتهم مختلفة . ولغاتهم غير  
مكتوبة . ولكنهم جميعا بغير ذقون طويلة ..

وعندما جاء الأوروبيون إلى أمريكا لم يندهش هؤلاء الهنود الحمر .  
فهم لا يتصوروا أن هؤلاء الأوروبيين مكتشفون ولا غزاة . وإنما هم أناس  
على سفر .. جاؤا قبل ذلك ولأسباب غير معروفة اختفوا . كان لوهم  
أبيض .. وكانت لهم ذقون طويلة .. علموهم كل فنون الحضارة : الخسوف  
وخطوط الطول والعرض . وعلموهم فن التحنيط . بل أكثر من ذلك  
علموهم لإجراء العمليات الجراحية قبل أن يعرفها الأوروبيين .

وكان لهم تقويم أدق من الذى استخدمه الأوروبيون . فسنة الصفر ، أو البداية عندهم ، هى سنة ٣١١٣ قبل الميلاد . وهى نفس السنة التى ظهرت فيها الأسرة الأولى المالكة فى مصر وفى العراق . وكانوا يصنعون بيوتا من طابقين مثل أهل مصر وأهل العراق . واستخدموا الأنوال والمغازل . بل أنهم صنعوا أنواعا من السجاجيد أذهلت الأسبان عندما رأوها . .

ثم أنهم فى بيرو والمكسيك قد أقاموا الأهرامات المدرجة والأعمدة الرخامية من قطعة واحدة . ورفضوا الطرق وشقوا القنوات وأقاموا الكبارى المعلقة . وكانت لهم زوارق من البردى من طابقين . وكانوا يصنعون تماثلا لإله الشمس فوق هذه الزوارق . تماما كالفرعنة الذين يقف ملوكهم ، وهم آلهة الشمس ، على هذه الزوارق .

ولكن إذا كانت حضارة بيرو والمكسيك مستوردة ، فلماذا لم يتعلموا صناعة الزوارق عابرة المحيطات ؟ !

سؤال وجيه لا توجد عنه إجابة واضحة عند أحد . ولكن لماذا لا يقال إن الذين يرفضون الزوارق المصنوعة من ورق البردى لم يجربوا هذا الورق ؟ من المؤكد أنهم يشكون فى قدرته على عبور البحر أو المحيط .

ومن عشرات المقابر والمعابد التقط الرحالة الترويجى صورة مناسبة لزورق من البردى فقد رأى زوارق الصيد . وزوارق المسافرين . والزوارق الملكية . والزوارق التى جلست عليها فتيات يرضعن أطفالهن . وصنع زورقا طوله ٤٥ قدما وعرضه ١٥ قدما . أما أعواد البردى فقد لفوها على شكل حبال ثم ضموها بعضها إلى بعض . والزورق قد تكون من عشرين لفة ، وعلى ظهر الزورق توجد غرفة صغيرة يأوى إليها هايردال ورجاله طولها ١٢ قدما وعرضها ٩ أقدام ..

وبدأ العمل يوم ١٨ أبريل سنة ١٩٦٩ أى فى نفس اليوم الذى بدأ

فيه هايردال رحلته المشهورة من بيرو إلى جزر البحر الهادى منذ ٢٢ عاما !  
وبعد أن تم صنع الزورق حملوه إلى الطريق الصحراوى ثم إلى الإسكندرية  
إلى ميناء صافى بمراكش على شاطئ المحيط الأطلسى . واختار له اسم رع - إله  
الشمس . ويوم ١٧ مايو سببوه إلى خارج الميناء . وهذا الميناء قديم . استخدمه  
البربر قبل مجئ البرتغاليين إليه بألف سنة . وقد جاء البرتغاليون فى القرن  
الخامس عشر . وقد تردد على هذا الميناء البحارة الفينيقيون . والميناء صغير  
ومناسب ولا توجد خارجه تلك الأمواج التى تسحب الزوارق إلى حيث  
يصبح الإنسان عاجزا عن السيطرة عليها .. ولكن هناك تيارا هادئا ثم هناك  
الرياح البخارية ، وليس على الإنسان إلا أن يركب قطعة خشبية ليجد نفسه  
بعد أسابيع فى أمريكا !

وقبل أن يهبط رع إلى البحر صرخ أحد المصورين قائلا : ما رأيك  
لوغرق هذا الزورق .. انها صورة رائعة !

ولكن هايردال لم يتشام . وإنما رأى فى ذلك نوعا من الحماس المهينى .  
انه مصور صحفى يريد صورة مثيرة ، وليغرق الزورق والنظرية وكل العالم !

وقيل له أيضا إن أعواد البردى تغوص عادة بعد أسبوعين ولكن لماذا؟؟

واستقر رع على الماء كما تستقر أوزة سمينة . ولكنها طافية رغم ذلك  
مثل عشرات الزوارق المصنوعة من ورق البردى التى ما تزال طافية  
فى بحيرات بيرو . رغم وجود الأوروبيين منذ أربعة قرون !

نظر هايردال إلى الأوزة العائمة فوجدها متوازنة تماما . والناس قد  
تراحموا على الشاطئ . وكذلك الزوارق والسفن . كل شئ يصرخ ويصفر  
ويهلل ويدعو لهؤلاء المغامرين بالنجاح . وجاء زورق ليسحب رع إلى  
خارج الميناء . لاشك أن الزورق قد امتص بعض الماء ! لقد تركوه فى  
البحر أسبوعا وزاد وزنه . ان هذا الزورق المصنوع من القش هو لإحدى

المعجزات وأحد أحلام الإنسانية : أن يعمل الإنسان من أجل معرفة الحقيقة .  
مهما كان الثمن . وأن يعامل الناس على اختلاف لغاتهم وألوانهم وأديانهم ..  
انها رحلة إلى الوراثة .. إلى فجر التاريخ .

لإنهم سبعة من الرجال .. واحد من أقصى الشمال من الزويج والآخر  
من أقصى الجنوب من أفريقيا .. وواحد من أبناء الحضارة القديمة : مصرى  
والآخر من أبناء الحضارة الحديدية مكسيكى .. ثم واحد رأسمالى أمريكى  
وواحد شيوعى روسى .. أما الروسى فهو طبيب وأسمه يورى ومن المهتمين  
بصحة رواد الفضاء ومشاكل انعدام الوزن . والإيطالى كارلو مورى هو  
مصور الرحلة . والمكسيكى أستاذ جامعى واسمه سانتياجو والإفريقى عبد الله  
جبرين من تشاد .. والمصرى جورج سوربال مهندس كيميائى وله بطولات  
فى الجودو .. وكان يسلى زملاءه بأن يكسر ستة قوالب من الطوب بضربة  
واحدة من يده .. وفى إحدى ساقه آثار أنياب سمك القرش . . وليس بحارا  
ولكنه سباح فقط . وهو يفضل أن يكون تحت سطح الماء لا فوق ظهر  
الزورق .. أما الأمريكى فهو الوحيد الذى يعرف الملاحه اسمه نورمان ..  
وهم من ديانات مختلفة . فالأمريكى يهودى والمصرى أرثوذكسى والإيطالى  
والمكسيكى كاثوليكان ، وهاريدال بروتسانتى والروسى ملحد والأفريقى  
مسلم . أنها تجربة إنسانية مثيرة . أسرة صغيرة من الممكن أن تتعايش . وأمكن  
ذلك رغم كل الصعوبات . .

وفى ميناء صافى جاء ١٦ بحارا وسحبوا الزورق إلى خارج الميناء ،  
أما زوجة الباشا حاكم الميناء ، فلم تستطع أن تنفذ من ذلك الستار المنيع  
من المتفرجين . وأخيراً أفلحت . ولم تجد سوى نسناس قدمته هدية لهم .  
وكان هذا القرود قد اصطاده الباشا منذ أيام . ونشروا شرع الزورق . ولون  
الشرع أحمر كالنبيذ . وعليه علامة إله الشمس رع . والمحيط يعلو ويهبط .

ولكنه هادى' . . والصرخات تتعالى . وانسحب الرجال وتركوا الزورق  
برجاله السبعة . . يواجهون المحيط وحدهم . . وكلمة « وحدهم » هذه  
لانفزعك . ولكن إذا وجدت نفسك تطفو على كوم قش وتحتك تيار  
يستدرجك وأمامك ألوف أميال وحدك وفي أول تجربة من نوعها ، وقف  
شعر رأسك وانقطعت أنفاسك !

وإلى جانب الرجال السبعة والنسناس توجد بطة مربوطة من إحدى  
ساقها . .

وكان تور هايردال مشغولاً جداً بالعلاقات الإنسانية بين رجاله  
السبعة . أنهم لا يعرفون بعضهم البعض . لقد التقوا في ميناء صافى لأول مرة . .  
والروسي لا يعرف إلا لغته والأفريقي لا يعرف إلا العربية . . ولكنهم رغم  
ذلك كانوا مثل التوائم السبعة . وكانت الشكوى من المهندس جورج سوريال  
أنه « دلوعة » الرحلة فهو ابن ذوات ولم يعتد أن يغسل الأطباق ولا الملابس .  
ولذلك كان يتركها لغيره . وهنا يصرخ الإيطالي ، ويتدخل هايردال ليقول  
له : لا تؤاخذة لقد اعتاد أن يخدمه الناس . .

ثم قال لجورج سوريال : ليس من المفروض أن يخدمك واحد منا . .  
أما عبد الله جبرين فلا يعرف القراءة . وقد رفض أن يعاون في أى  
شىء وقال للرجل المكسيكى : أنت أبيض وأنا أسود . . وأنا لا احترمك ..

وغضب المكسيكى ثم قال له : أننى أمضيت سنوات من عمرى في  
خدمة الزوج وقد فزت بجائزة السلام البابوية من أجل ذلك !

وتصالح الإثنان ومضى الزورق بطيئاً في موج هادى' . . ولكن بقيت  
مشكلة الوضوء عند عبد الله جبرين . أنه يتوضأ خمس مرات في اليوم .  
ويستخدم الماء العذب الموجود في الزورق وقد نهبه هايردال إلى أنه سوف  
يستهلك كل الماء . . وفي استطاعته أن يتوضأ من ماء المحيط فهو أنظف ماء

في العالم . واتجه عبد الله جبرين إلى ماء المحيط وكانت دهشته هائلة عندما  
أكتشف أنه ماء مالح !

وعلى الرغم من اختلاف الديانات على ظهر الزورق فإن الجميع قد  
احترموا صلوات عبد الله جبرين . إنهم ينظرون إليه في دهشة وهو يركع  
ويسجد مستغرقاً تماماً !

ويوم ١٠ يونيو فوجئ الجميع بأن المحيط في غاية القذارة . وأنه  
يصعب على واحد منهم أن يغمس فرشاة أسنانه في الماء . لقد تحول ماء  
المحيط من أزرق إلى أخضر رمادي . إنها مخلفات الإنسان . . إنها إحدى  
جرائم العصر الحديث : تلويث قنوات الملاحة . . ففي المحيط زجاجات عاتمة  
وبقايا طعام وبقايا خشب وعلب . . وبقع من الزيت وكرات سوداء . .  
إنه شيء لم ير له هايردال مثيلاً في رحلته على الزورق « كون تيكى » سنة  
١٩٤٧ والتي استغرقت مائة يوم ويوما !

وكان دور عبد الله جبرين في إعداد الطعام فذبح آخر دجاجة . أما البطة  
فقد تركوها وأطلقوا عليها اسم سندباد . .

وبعد ٢٥ يوماً من الرحلة كان الزورق قد قطع مسافة ١٢٤٠ ميلاً .  
وهذه المسافة لو قطعها الفراعنة من ميناء الاسكندرية لذهبوا إلى ما بعد جبل  
طارق . . أو لوصلوا إلى نهر الدون في روسيا . . أو إلى أبعد من ذلك فالبحر  
الأبيض أهدأ كثيراً من المحيط . .

أما قصة الأمواج فهي لا تنتهى . إن كل موجة تهز الزوارق . وكل رذاذ  
الموج يدخل في الغرفة التي أوى إليها الجميع . . وكثيراً ما دخلت الأمواج  
إلى داخل الزورق ووصل الماء إلى ركبهم . . وكثيراً ما نزل جورج سوريبال  
إلى ما تحت الزورق ليتأكد من سلامة الحبال — أنها مسألة حبال . إذا انقطعت  
انقرط الزورق كله !

وكانت هناك بعض الحبال من البلاستيك . . وكانوا يشعرون بشئ  
من الخجل لاستخدام هذه الحبال الحديثة . وكأنهم يستمعون لى صوت  
نبتون إله البحر وهو يقول : هذا غش فى اللعب . . إن الفراغنة لم يستخدموا  
البلاستيك !

وفى ٢٦ يونيو تجاوزوا خط طول ٤٠ غربا . . أى أنهم أصبحوا فى  
النصف الأمريكى من المحيط . وانتهزوا هذه الفرصة وأقاموا حفلا . فتح  
جورج سوريال زجاجة شمبانيا وقدم المشهيات من الزيتون والجبنة والملوحة  
المصرية . . وكانت موسيقى وضحك حتى غابت الشمس فى المحيط . .

وفى أوقات الفراغ كان جورج سوريال يعلم عبد الله جبرين القراءة  
والكتابة . .

وفى الليل تعالت صرخات . . وكان الموج عاليا والرياح شديدة . .  
وفجأة قفز الجميع : أن الأمريكى قد سقط فى الماء . وارتطم بشئ وتسلىخ  
تماماً . وراح الدم ينزف من ساقيه . . وسحبوه . . ووقف الدكتور يورى  
يقول : أن الموقف خطير . . هل توجد عندنا أملاح الأمونيا .

وقال الزملاء : لا . . طبعا . . فأنت الطيب !

وكان رده صحيح : نسيت هذه الأمونيا .

ثم عاد يقول : أن الأمونيا هى وحدها التى تعالج هذه الحموضة التى  
دخلت جسمه . . الموقف خطير جداً . . أن الأمونيا لا توجد إلا فى البول . .  
ولذلك يجب أن تتبولوا فوراً . .

وتبولوا جميعا فى نصف جوزة هند . .

ثم راح هو يدلك جسم زميله الأمريكى بالبول ساعتين . . والأمريكى  
يتألم . . وبعد ذلك استغرق فى نوم عميق . . صحا من نومه فى حالة هذيان .  
فأعاد له يورى التدليك مرة أخرى . .

وكانت الأسماك تتطاير من المحيط إلى ظهر الزورق . . وكانت بعض  
الأسماك تسبح إلى جوار الزورق فتأكل الأسماك الجافة المعلقة على الجانبين . .  
والآن مضت ستة أسابيع على هؤلاء الرجال في طريقهم إلى أمريكا . .  
في نفس الطريق الذي سلكه الفراعنة ناقلين حضارتهم إلى هذا العالم الجديد  
الذي ليس جديداً . . واتصل تور هايردال بزوجته يطلب إليها أن تدبر لهم  
زورقا ينشلهم فالأمواج عنيفة والرياح أعنف . . والزورق تتطاير محتوياته  
من كل ناحية . . والرجال يشد بعضهم بعضاً . وبعضهم سقط في الماء  
ثم سحبه . .

ومع أول يوليو أصبحت الأمطار غزيرة . . وواضح أن الزورق سوف  
ينشط إلى نصفين . ولسبب غير مفهوم لم يحدث له ذلك . . ولم يبق في  
الزورق كثير بعد أن سحبت الأمواج الصناديق والعقاقير والملابس الداخلية  
والخارجية . . حتى شرع الزورق اندفع إلى الأمام كأن حيوانا من حيوانات  
السيرك قد هرب منه من كراييج المدربين . . إنهم الآن وحدهم بلا أية مساعدة  
وبلا أمل في ذلك . . ولكن الأمل الوحيد عندهم هو ذلك الزورق الذي  
طلبه تور هايردال من زوجته في إيطاليا أن تدبره له بقرب الشاطئ الأمريكي  
وجاء الزورق البخارى . . واتصلوا به لاسلكيا عدة مرات . ولكنهم لا يرونه  
ولا يراهم . طلب إليهم الزورق البخارى أن يطلقوا بعض الصواريخ ليحدد  
مكانهم . . أعلنوا أن كل الصواريخ وفتائلها مبللة وأنهم عاجزون عن إشعالها .  
وطلبوا إلى الزورق البخارى أن يفعل ذلك فاعتذر القبطان لنفس السبب . .  
ثم طلب إليهم القبطان أن يوالوا الاتصال له ليعرف مكانهم . . أما كيف  
عثر عليهم هذا الزورق بعد ذلك فتلك معجزة !

واستعاروا من الزورق عوامة صغيرة وركبوها وأنقذوا كل ما بقى  
لهم في الزورق رع . . وتركوه وحده للموج . . يفعل به ما يشاء . . يصل  
إلى أمريكا أو لا يصل . . وانتهت مغامرة الزورق رع الأول . .

انتهت رحلة طولها ٢٧٠٠ ميل على زورق من القش . لأنها نفس المسافة بين أفريقيا وكندا . .

أما ما تبقى من رع الأول فكان على مدى ٦٠٠ ميل بحرى من جزر باربادوس

ولم ييأس تور هايزدال وإنما أنشأ زورقا آخر واسمه « الثانى » وبدأ من نفس الطريق .

وكان أكثر ثقة من ذى قبل . وكان بناء الزورق هذه المرة مختلفا . كان من ثلاث كتل من ورق البردى : واحدة إلى اليمين والثانية إلى اليسار أما الثالثة فهى التى بين الاثنتين والثلاث كتل مشدودة بعضها إلى بعض تماماً .

أما عبد الله جبرين فقد قرر العودة إلى زوجاته الثلاث . . وجاء رجل يابانى بدلا منه واسمه كاما اوهارا . . أما أوراق البردى هذه المرة فقد جاءت من بيرو . والذى صنع الزورق رجل من البربر اسمه مدنى . . وفى يوم ١٨ يونيو بدأت الرحلة الثانية وبعد ثمانية أسابيع كان الزورق على مدى ٢٠٠ ميل من جزر باربادوس وأرسلت الحكومة سفينة لتحتيهم . وعلى ظهر السفينة السيدة ايفون زوجة تور هايزدال .

وفى اليوم السابع والخمسين لهذه الرحلة وصلوا إلى الشاطئ الأمريكى . . لقد نجحت المغامرة أو الرحلة . . من أجل إثبات نظرية أن الفراغ قد وصلوا إلى هذه البلاد . . أو أن جماعة من البيض لهم ذقون طويلة جاءوا يحملون إليها الحضارة قبل أن تعرفها أوروبا !

أَقْرَأَمُ..  
يَشْرَبُونَ الْمَاءَ  
فِي بَيْتِ النَّعَامِ

كان ذلك فى إحدى لىالى الشتاء . . . الطفل يجلس على ساقى والدته . .  
وأمامه النار تشتعل . . النار تأكل الخشب . ويتحول الخشب إلى قطع سوداء  
قصيرة ومن هذه الأخشاب يتصاعد دخان أبيض طويل عملاق . . ويجئ  
رجل زنجى ويضع المزيد من الأخشاب ويختفى كأنه دخان .

ولسبب غير واضح يهرب الطفل من حضن أمه إلى غرفة ويصرخ  
ويبكى . . وأمه لا تفهم ماذا حدث ؟ وتحاول أن تفهم . ولكنه لا يقول  
شيئاً . . وتقف الأم باب الغرفة على الطفل الصغير ، وتضع الغطاء على وجهه  
وتتركه ينام . . ولا تكاد الأم تدفع وراءها الباب حتى ينهض الطفل من فراشه  
ويقف فى ركن من أركان الحجرة ويقسم : لا بد أن أعثر عليهم . لا بد أن  
أنقذهم أقسم بالله أننى سوف أفعل ذلك عندما أكبر ثم يسحب كراسة صغيرة  
ويكتب فيها هذه العبارة : أنا فان دربوست عمرى ثمانى سنوات أقسمت  
أننى سوف أنقذ هؤلاء الأقرام عندما أكبر . والله على ما أقول شهيد !

ولا بد أن الطفل الصغير عندما رأى النار ، ورأى فيها الأخشاب  
السوداء القصيرة أدرك بإحساسه المرهف أن هذه الأخشاب القصيرة هى  
هؤلاء الأقرام السود - البوشمان الذين حرص الزنوج والبيض فى جنوب  
أفريقيا على القضاء عليهم باستمرار . . أنهم يضعونهم على النار أو يطلقون  
عليهم النار حتى لم يعد أحد يسمع عنهم شيئاً . .

وكل ما سمعه الطفل الصغير عن هؤلاء البوشمان - أو الأقرام - هو أن

أحجامهم صغيرة جداً . وأن ملامحهم جميلة . ولكنهم وحوش . ومعقدون بسبب قصر القامة أما لون بشرتهم فهو في لون الذهب الأسود . . أو لون المشمش . . وهم صيادون فقط . لا يملكون أية قطعان ولا يزرعون الأرض . وإنما يحملون السهام والنبال والسنانير ثم ينصبون المصايد والفخاخ للحيوانات المفترسة . . ثم إن هؤلاء الأقزام ينظرون إلى السماء من حين إلى حين . . مرة إلى السحب لعل السماء تمطر ، ومرة بحثاً عن ذلك العصفور الذى ينقض على أعشاش النحل . . فهم يأكلون عسل النحل . ومن الغريب أن هؤلاء الأقزام رائحة خاصة إذا شمها النحل هرب ؟

وسمع الطفل أن هؤلاء الأقزام بارعون في الرسم بالألوان . وفي النقش على الحجر ولا أحد يعرف من أين يأتون بهذه الألوان الحية . . الصارخة . . فالأحمر في لون الدم ، والأصفر في لون الذهب ، والأخضر في لون الغابات والأبيض في لون أسنانهم . . من أين ؟ لا أحد يعرف بالضبط . ولكنهم إذا ما ذهبوا إلى أى مكان فإنهم يتركون آثارهم التى تدل عليهم . . على أنهم كانوا هنا . . وقالوا شيئاً على جدران الكهوف ومضوا . إلى أين ؟ لا أحد يعرف ! هل رأهم أحد ؟ كل الناس يدعون ذلك . ولكن أحد لم يقرب من هؤلاء الأقزام . ولذلك فالتقصص والنوادر والخرافات عنهم تملأ الكتب !

وهذا الطفل فان دربوست قد أحس أن أجداده من البيض الذين جاؤوا إلى جنوب أفريقيا حوالى ١٦٥٢ قد أبادوا الألوف من هؤلاء الأقزام . . وهو يريد أن يكفر عن خطيئته ورثتها ولا دخل له فيها !

وعندما بلغ العشرين من عمره قرر أن يذهب للبحث عن هؤلاء الأقزام . وفشلت محاولته الأولى . وحاول مرة أخرى وكاد يموت وهو يعبر صحراء كلهارى بحثاً عن هؤلاء البوشمان . . فالطريق ليس صحراوياً فقط . . ولكن هناك مئات الأميال من المستنقعات والغابات . . والحرارة قاسية والرطوبة خانقة . . والوحوش ضارية والذباب مميت . . وقبل ذلك ليست لديه

معلومات كافية ولا وسائل للدفاع عن النفس ضد الوحوش والميكروبات .  
والتهبت الحرب العالمية الثانية . . وانتقل إلى العمل في الجيش البريطاني  
في الحبشة . . ثم في الشرق الأقصى . وسقط أسيراً في أيدي اليابان . . وانضم  
إلى هيئة أركان حرب اللورد مونتباين . وعاد إلى بلاده . وعاوده الحلم  
القديم . وأحس أنه من الواجب أن يبرر بوعده وأن يني بقسمه . . والآن  
هناك قوة عنيفة غريبة في داخله تدفعه إلى البحث عن ضحايا أجداده من  
مئات السنين . .

ولكنه هذه المرة قرر أن يمشی خطوة خطوة وبحساب . الخطوة الأولى  
أنه سوف يعبر الصحراء كلها في النصف الجنوبي لأفريقيا . . ولن يستخدم  
السيارات وإنما سوف يستعين بالجرارات فهي أقدر على خوض الرمال .  
وسوف يستعين بكل الأسلحة للدفاع عن النفس وكل العقاقير الطبية .  
وقد عاونته الإذاعة البريطانية بعدد من أجهزة التسجيل . . فقد يصادف  
هذه القبائل المنقرضة ويسجل لها من بعيد . فقد يتعذر عليه أن  
يقرب منها .

ولهتدى إلى عدد من الأصدقاء الذين تخصصوا في عبور الصحارى  
والصيد في الغابات والذين يعرفون لغة البروشمان . .

أما الوقت المناسب للبحث عن هؤلاء الأقزام فهو موسم الهجرة . .  
موسم الأمطار . . ففي موسم الأمطار يهربون من المناطق الحارة الحارقة  
ويتجهون إلى حيث تزهو الأشجار وتنمو . . هذا الوقت من كل عام تهاجر  
الحيوانات أيضا . . وأمامها ووراءها يهاجر الأقزام . . ويكنى أن يقتنى  
آثار وحوش الغابة ليعرف اتجاهها . وفي هذا الاتجاه لابد أن يتوازي الأقزام .

قال له بعض الناس « الواقعيين » والذين يحسبون الأمور بدقة : لاداعى  
فالمسافة مهلكة والأخطار لاحدود لها .

والذين هم أكثر واقعية نصحوه بأن يعدل عن السير في الصحراء  
ويتجه إلى الأنهار أو إلى الغابات .

والذين يتوقعون كل الاحتمالات نصحوه بأن يقطع الصحراء ويتجه  
إلى الغابات . . وفي داخل الغابات يركب الزوارق ويتابع الأنهار . . وأن  
يكون عبورها نهارا فقط . . فهؤلاء البوشمان لا يرون في الليل بوضوح . .  
وإنما يعيشون على ضوء الشمس وإن كانت أشعة الشمس تقضى عليهم  
أولا بأول . .

وبدأت الرحلة بعد ظهر أول سبتمبر سنة ١٩٥٢ . . الجرات الأربعة  
ترحف على الرمال . لا تحمل الكثير . . ولكنها الوسيلة الوحيدة لاجتياز  
الرمال . ومضى يوم ويوم . وفي اليوم الثالث وصل إلى شلالات فكتوريا . .  
لا جديد . . لا شئ\* قد لفت نظره . فهو ابن هذه البلاد . وهو يعرف أرضها  
وشجرها وحيواناتها . . ولكن ربما استوقفه قليلا أنه رأى قطيعا ضخما  
من الأفيال يجتاز نهرا « مجاورا » إذن لقد بدأت الهجرة فهو لم يخطئ\*  
في اختيار الوقت الأفضل من العام . الحرارة تسحق اللحم و الشحم . والرطوبة  
ستأثر كثيفة على الأنوف . والملابس كأنها تسبح من النار . والضوء يفتأ  
العيون . . ولكن منظر الفيلة والجواميس الوحشية والزراف والطيور الجارحة  
وقد احتشدت جميعا في اتجاه واحد . . هو الشئ\* الوحيد الذي أراحه . .  
وأراح رجال قافلته . . لقد بدأ الموسم الذي تهرب فيه الحيوانات إلى حيث  
تكون خضرة الأرض وكثرة المياه . . ومعها وفي أرجلها يتوازي الأقرام . .

ونصحه خبراء الطرق يمشى مع نهر زمبيري . ومن هناك ركبوا عشرات  
الزوارق الصغيرة وقد وضعوا عليها كل أمتعتهم وأسلحتهم . وأدار فان  
دربوست أجهزة التسجيل . . ففي النهر والماء والهواء الذي شتقته الرطوبة  
وعلقته على غصون الشجر ، تتردد أصوات صاخبة عارية باكية . . وهمس  
وهسيس وفحيح ونعيق . . كل ذلك في وقت واحد . . مئات اللغات . .

ألوف الأصوات متداخلة . . وكلها تصنع سيمفونية الفزع من المجهول . .  
أما هؤلاء الذين جاءوا في زوارقهم فهم يخوضون في ملايين العازفين . .  
وعند إحدى الجزر ربطوا زوارقهم . وجاء الليل وتأثروا وناموا . . وكان  
النوم متقطعاً فلا أمان لشيء هنا . . وفي سكون الليل . . الكون النسبي . .  
سمع هو ما يشبه الطلق الناري ففزع . . ونهض من فراشه ، أو من الأرض  
التي هي فراشة . . وراح يعوى لينبه الذين حوله . . فقد رأى ظلالاً سوداء  
تقترب . . كانت قطيعاً من الفيلة . . أما الطلق الناري الذي سمعه فلم يكن  
سوى فرع شجرة قد وطئته أقدام فيل فكان لهذا الوطء هذا الدوى . .  
وبسرعة قفز الرجال إلى النار فألقوا عليها بمزيد من الخشب والبنزين . .  
فزاد لهيبها وتأثرت شظاياها . . فخافت الفيلة وفرت إلى أطراف الجزيرة . .  
ولو اقتربت هذه الفيلة دون أن يدري بها أحد لحطمت كل ما معه من أدوات  
وحاجيات وقضت عليهم تماظاً . .

وفي الصباح عادوا إلى الزوارق . ثم تركوها على شاطئ النهر . واتجهوا  
إلى أحد المستنقعات . . بعد أن سحبوا الزوارق على الأرض . . وحملوها  
على أكتافهم . . ووسط دقائق الطبول العنيفة التي تمزق قاشاً من نوع  
عجيب . . هذا القماش هو أحياناً اسمه : الصمت . . وأحياناً اسمه :  
الرطوبة . . وأحياناً تمزق : الشعور بالأمان . يقول فان دربوست في مذكراته  
هذه الطبول هي قلوب جبارة تخفق بجنون . ووجوه الذين يدقون الطبول  
لاتدل على شيء . . كأنهم اعتادوا على تشييع أو توديع الناس إلى مقرهم  
الأخير كل يوم .

ويقول فان دربوست : لم أشعر قط أنني سوف أفضل . . إنني مشدود  
إلى هؤلاء الأقزام بنحيط سحري . . قوة سحرية تدفعني إليهم . . وأني لا بد أن  
أجدهم . . أنهم هم الذين نادوني منذ طفولتي . . صدق أو لا تصدق .

الآن قد انفردوا بكل شيء . . أو على الأصح قد انفرد بهم كل شيء . .

البعوض جيوش لا عدد لها . . أزيزه . . طنينه مخيف . . إنه يتقضم على كل شئ . . على أفراد القافلة . . على طعامهم وشرابهم . . إنه أعلى من صوت الأبقار الوحشية والسيد قشطة . وفي المستنقعات وجد قنوات من الطين . . هذه القنوات الغائرة تدل على أن قطعاً من السيد قشطة قد مر من هنا واختفى هناك . . والقنوات لها شكل جامد . . ومعنى ذلك أن هذا القطيع قد اعتاد أن يمر في هذه القنوات منذ وقت طويل . . فلماذا لا يمر فيها الأقرام أيضا .

ويبدو أن هذا الاستنتاج خاطئ؛ فقد نبه واحد من رجاله إلى أن الأقرام لا يمشون في الوحل . أنهم قصار القامة ويخافون أن يتلعمهم الطين . . أنهم يفضلون الأرض الأكثر جفافاً . . وهذا كلام معقول ولذلك تحول برجاله إلى ناحية أخرى . . وفي الناحية الأخرى من المستنقعات عشرات من التماسيح الجبارة تمطت في الشمس . . تفاجئ أفواهاها من بقايا لحوم وديدان . . ولم تهتز هذه التماسيح لصوت الزوارق . . وكأن التماسيح مرسومة على الطين . . وكان هذه الطيور تعبت بهذه اللوحات :

يقول فان دربوست في مذكراته .

أني أعتمد على إحساسي . . على شئ في داخلي . . هذا الشئ ليس له معنى واضح . . ولكنه شئ قريب . . حاسة سادسة . . صوت الماضي . . عذاب الضمير وعلى هذا الاحساس الغريب أعتمد كثيراً . . وفجأة أحسست برغبة في أن أنظر إلى الوراء ونظرت ولمحت بين الأوراق قرماً صغيراً ينظر ناحيتنا . . أنه واحد منهم . . وجهه . . رأسه . . لونه المشمشي . . لاشك في ذلك !

وروى ما شاهده لزملائه من البيض والسود في القافلة . . وضحكوا . . وامتدت بعض الأيدي إلى رأسه لعله محموم . . أو لعله يهذى . . ولكنه

كان على يقين مما أحس ومما رأى . . وقال له أحد خبراء اقتفاء الأثر :  
لا يمكن أن يعيش الأقزام في هذه المنطقة ففيها الكثير من ذباب تسي تسي ..  
ذلك الذباب الذى يلسع ضحاياه فيظل الضحية نائمًا حتى الموت !

وكانت في طريقهم جزيرة .. الجزيرة صخرية . عالية . صعدوا إلى أعلى  
الجزيرة فيها كهوف كثيرة . . وعندما انعكست أشعة الشمس على مدخل  
أحد الكهوف برقت ولمعت بعض الألوان . . إنها إحدى اللوحات البدائية ..  
رسوم لحيوانات وطيور . . الألوان في غاية الحيوية . . أما هذه الأكف  
الصغيرة على جوانب هذه الرسومات فلا بد أنها إمضاء الفنان البدائي .  
وهذه الأكف الصغيرة لا بد أنها توقيعات الفنانين . حتى البدائي لا يستطيع  
أن يفعل شيئاً دون أن يقول : أنا فعلت . . وهذا الإمضاء ليس إلا هذا  
المعنى . مع أنه لا يدري ذلك . ربما قصد أن الأرواح هى التى سوف تراقب  
أعماله وهجرته من مكان إلى مكان . . الأرواح ؟ نعم هذه أرواح ؟ !

ودارت مناقشة حول إمكان أن تكون هناك أرواح طيبة أو شريرة . .  
وتعالت الأصوات وقال أحد خبراء اقتفاء الأثر : نعم هنا . . وسوف  
ترون !

ولم يكذب يكمل هذه الجملة حتى سمعوا صراخا من الرجل الأبيض الذى  
جاء يصور الرحلة بالأفلام . إن الكاميرا لا تعمل مطلقا . يحاول فتح العدسة  
أو توسيعها أو تضيقها . . إنها لا تتحرك إطلاقا . وتعالت صرخات الزوج  
في نفس واحد وقالوا : إنها الأرواح !

ولم يجد فان دربوست إلا وسيلة واحدة لاسترضاء الأرواح . فقد أنذر  
أعضاء القافلة بالألا يرفعوا أصواتهم وألا يتشاجروا . . ولكن واحداً من  
الزوج أنذره مرة أخرى : أن هذا لا يكتفى !

وامتدت يد فان دربوست إلى قلم وورقة وكتب اعتذارا للأرواح

عن هذه الضوضاء التي أفسدت جمال وجمال الكهوف . ثم وضع الورقة  
تحت شجرة حدودها له . .

وتعالت صرخة مصور القافلة : إن الكاميرا تتحرك . . وتحركوا جميعا  
وهم لا يفهمون ماذا حدث . ولا كيف حدث . .

ومن النظر إلى بقايا الطعام على الأرض . . وآثار الأقدام والأعشاب  
أعلن واحد من الزنوج أن الأقدام كانوا في هذه المنطقة ثم رحلوا منذ أسبوع  
على الأقل . . ولكنهم بعيدون من هذا المكان . . ثم رأوا آثار أقدامهم  
على الأرض . . الأقدام صغيرة جداً . وهم إذا ساروا فإنهم يمشون على  
أطراف أصابعهم . . ولذلك فأصابع القدمين غائرة في الأرض . .  
أما الكعب فلا أثر له !

وفجأة . . رأوا قزماً صغيراً جداً وقد لف جلد أسد حول خصره .  
إنه قزم في لون المشمش . تمام . وعيناه واسعتان . مضبوط . وفي يده سهم .  
يصيد أرنباً برياً في براعة . ثم يمسكه من أذنيه . ويتوارى به بين الأشجار .  
ثم يعود بسرعة إلى مكان الأرنب ويضع الطين على دمائه التي سالت حتى  
لا تهتدى الحيوانات إلى الأرنب . . واقتربوا من القزم . ولم يخف . ولم يهرب  
وإنما ظل واقفاً كأنه على موعد . والتفوا حوله . . ووقف الرجل القزم  
وتحدثوا إليه لأنه في غاية الرقة . ليست في نظراته أية رغبات عدوانية . لاشئ  
مما تقول الكتب وأحس فان در بوست أنه من الضروري أن يعترف بشئ .  
يقول في مذكراته : مجرمون جميعاً أجدادنا . مجرمون سفاحون . إن هذا  
الإنسان الذي يقف أمامي في غاية الرقة . إنه أرق بكثير جداً من الأوروبيين  
الذين التقوا على الحدود . . الألمان والفرنسيون مثلاً . . الإيطاليون والنمسيون  
مثلاً . . إنهم في منتهى الوحشية . . أنتم وحوش أيها البيض ؟ !

وعندما سألوه عن بقية الأقدام قال إنه سوف يعود غداً . . وانصرف !

وكاد بعض الزنوج والبيض أن يطلقوا النار على إحدى ساقيه ليعطلوه ،  
أو يأخذوه رهينة لأنهم لا يضمنون صدق ما يقول . .

ولما انصرف القزم كانت العدسات تلاحقه . . وكذلك آلات التسجيل ..  
وقرروا المبيت في نفس المكان . وفي الصباح جاء الرجل القزم ومعه زميل  
له . . ولا يزال الهدوء والبساطة والسماحة هي طابع كل منهما . . واقرب  
الاثنان . . وسئل القزمان أين توجد بقية القبيلة . .

فأشار الاثنان إلى مكان وراء هذه الغابة . وتحرك الجميع معا . .  
واخترقوا الغابة . . ومن فوق أحد التلال رأوا قبيلة بأكملها . . يبلغ عددها  
ثلاثين من الرجال والنساء والأطفال . والرجال قد صادوا بعض الحيوانات  
والنساء يعملن على تسوية هذا اللحم الطازج والأطفال الصغار يلعبون . .  
ونزل المطر من السماء . . وبسرعة اختفت اللحوم . . واختفى الجميع .  
وفي لحظات عادوا يرقصون للمطر ، رقصة الشكر . وبعد ذلك . تعالت  
الطبول . إنهم يصلون للشمس عند الغروب . . وقبل غروب الشمس بقليل  
عادوا يقفون متجاورين . ثم يرفعون أيديهم . . ويختفون بين الأشجار  
في بيوت مصنوعة من أغصان الشجر ومن الأعشاب . إن هذه البيوت  
أشبه بيوت النحل . وكان كل شيء قد تم في هدوء وسلام .

لم يكن فان در بوست يريد شيئاً . فقط أن يرى هؤلاء الناس وأن ينقل  
للرجل الأبيض تصحيحاً لهذه الصورة القاتمة الكاذبة عن أناس مثلنا لهم  
حياة خاصة . . يعيشون في سلام . لاهم وحوش . ولاهم قساة ولاهم كاذبون .  
يأكلون من ثمار الشجر وأعشاب الغابة وحيوانات البر والبحر وهم ضحايا  
الشمس والمطر والمرض والبعوض والذباب وهم ليسوا في حاجة إلى أسلحة  
الرجل الأبيض لكي يموتوا . . إنهم ينقضون من تلقاء أنفسهم !

وتلفت فان در بوست إلى الجميع وقال : الآن يجب أن نعود ، انتهت  
رسالتى . وتحققت أمنيته . ووفيت بما وعدت . وأرحت ضميرى !

وقبل أن يعود فان در بوست قرر أن يودع هؤلاء الأقرام . . فدعاهم . .  
ووزع السكاكين على الرجال والمناديل على النساء . . والطعام على الجميع . .  
وتعالت دقات الطبول لوداعه . .

وقرر هو أن يودعهم على طريقته . . فنزع ملابسه ووقف عاريا  
وارتدى جلد الأسد حول خصره . ورفع يديه إلى السماء ليصلي . . وقبل أن  
يعتدل في وقفته كانت سهام الزنوج ونبالهم قد اتجهت إليه . . وبسرعة ألقى  
بنفسه على الأرض رمزا للاستسلام وارتدت السهام والنبال . وسأل عن الذي  
أغضبهم وآثارهم عليه فقالوا : إنهم يخافون أن يجلب النحاس عليهم فقد لبس  
جلد الأسد بالقلوب !

من حينها ..  
خرج آخري باب  
رول للقمح!

هل تؤمن بالصدفة ! من المؤكد أنك تؤمن بها . وهل الحياة من أولها  
لآخرها إلا مجموعة من الصدف ؟ اختلفت الآراء حول الإجابة عن مثل هذا  
السؤال ولكن الذى يقول إن كل شىء صدفة ، يجعل وجودنا تافها ، ويجعل  
الوجود كله بلا حكمة أرادها الله . ولكننا فى مثل هذه المرحلة الصغيرة  
الضئيلة من حياتنا ، لانعرف حكمة حياتنا ولا حكمة الوجود كله ولا حكمة الله  
فإننا أصغر وأتفه من ذلك . . ولكى يكون هذا واضحا عليك أن تسأل  
أقرب نحلة أو نملة – إن استطعت – عن سر اختراع الانسان للصورايخ  
عابرة القارات .

احتفظ بهذه المعانى فى رأسك بعض الوقت وأنت تقرأ قصة هذا الشاب  
الصغير أريك نيوى ( ١٨ سنة ) عندما كان فى العشرين من عمره كتب فى  
مذكراته يقول : فى هذا اليوم غضبت مع واحد من إخوتى ، وقررت  
أن أترك ايرلندا وأذهب إلى فرنسا . . لا أعرف فى فرنسا ولا منها ولا عنها  
أى شىء غير أن نابليون أعظم قائد فى التاريخ . . من أجل ذلك قررت  
أن أهرب . .

ويقول أيضا : وفى هذا اليوم رأيت مرجريت . . صدفة . . تمنيت  
أن أكلمها فى أى شىء .. أن أقول لها إننى أحبك .. واقتربت منها ...  
وتصادف أن جاء أخى . . ويبدو أنه كان يعرفها . . فسلمت عليه ، ورحبت  
به . . وكان فى عينها نوع من الترحيب العام به . . وبى . . وبكل الدنيا . .  
وهنا قررت أن ألقى بنفسى فى الماء . . وصدفة . . وجدت أبى ومعه والدتى

في الطريق إلى الكنيسة . . ومن عيني أمي الرقيقتين الجميلتين تدفق تيار من  
الرحمة والحنان . . ومدت يدها . . ومددت يدي ونفسي . . وأعطيتها  
كل شيء . . وأعطتني ، واحتميت فيها . . وعدت . .

ويقول أيضا : وفي الصباح صارحت أمي بأنني لا بد أن أكون بحارا ،  
وقال أبي : إذن تريد أن تكون رجلا ، لقد أسعدتني يا ولدي ، أنا أحب  
الرجولة المبكرة ! وقالت أمي : ولكنك لم تكمل تعليمك بعد . . بل لم تتعلم  
أي شيء . . وقال أبي : الحياة أكبر مدرسة . . وأين تعلمت أنا . . وأين تعلمت  
أنت . . إنني أفضله على أخيه الذي يريد أن يكون زوجا وأبا . . إنه إنسان  
بلا طموح والفتاة التي اختارها لا تختلف كثيراً عن أمها . سوف يكون  
لها عشرة من الأولاد ! .

وبعد عشرين سنة أخرى كتب أريك نيوبى يقول في مذكراته التي  
عنوانها « آخر سباق للقمح في العالم وفي التاريخ » : لو كنت ذهبت إلى  
الميناء وأنا في الثامنة عشرة من عمري ولم أجد هذه الفتاة مرجريت لتغير  
شيء كثير في حياتي وحياة غيري . . ولكن عندما ذهبت إلى الميناء وجدتها  
هناك . . كانت قلقة . . أو كان قلقها نوعا من السخرية . . كأنها تريد أن  
تراني . . أو لا تريد أن أراها في هذه اللحظة بالذات . . وصدفة . . جاء  
قبطان طويل عريض أعرفه . . وأعرف أن له سفينة ضخمة ، قلت له :  
سيدي . . أريد أن أعمل معك . . وفي هذه اللحظة نظر القبطان ناحيتي  
وكأنني فأر قفز في جيبه فقال : مات من رجالى كلب صغير . . يمكنك أن  
تحل محله . . هل لك أب ، فقلت : طبعا . فكان رده وكأنه ينفض هذا الفأر  
بجذائه الغليظ : ولماذا طبعا . . أنا شخصا لا أعرف لى أبا . . وسوف  
تعرف أن المحيط ليس له أب ولا أم . . ولا العواصف ولا الشمس ولا القمر .

إنها صدفة أخرى . . فقد كانت مرجريت واقفة . وتأكدت تماما أن قلقها  
لم يكن إلا نوعا من الرغبة الشديدة في أن أذهب من طريقها . . أو أن أحتني

في ستين داهية . . لأن الذي يقارن دائما بيني وبين أخي . . يراني أفضل  
ويراها مصدر تعاسة له . . وكان هناك اتفاق بين كل الظروف . . فقد ظهر  
أبي فجأة . . لا أعرف كيف . . ويبدو أنه كان يعرف القبطان . . نحن الآن  
ثلاثة : القبطان وأبي وقد بدا قصيرا أكثر مما كنت أتصور . . ومرجريت  
وفجأة طالت قامتها أكثر مما اعتدت أن أراها . . أما أنا فأقصر وأصغر  
الجميع . . أي أننا أكثر من ثلاثة . . ومن الغريب أنني أقول دائما . . كنا  
ثلاثة مع أننا كنا أربعة . . ووافق أبي على سفرى معه . . وبسرعة انتقلت  
عيناى إلى مرجريت والآن عرفت كل شىء . . إنها استراحت إلى هذا القرار  
وفى نفس الوقت لاتصدقه . . فأنا أصغر من ذلك بكثير . . وهكذا تصورت  
أن هذا ما يدور فى رأسها . .

وبسرعة حدث كل شىء . .

فى ذلك الوقت من التاريخ كانت السفن الشراعية فى العالم كله قليلة . .  
ربما كانت عشر سفن قادرة على عبور المحيطات . . وكان يملك هذه السفن  
رجل من فنلندا ومهمة هذه السفن هى نقل القمح من استراليا إلى أوروبا .  
ولا يمكن أن يكون صاحب هذه السفن من الهواة ، إنه تاجر يكسب ،  
وواضح أنه يكسب كثيرا ، والغلال لاتفسد ولا تتكسر بالسفر الطويل  
بين القارات . . ثم إن الغلال ليست كالفاكهة موسمية ، يجب أن تصل  
فى موعد محدد حتى تكون « فاكهة الموسم » وفى نفس الوقت دون أن  
يصيبها العطب . . وكانت هذه السفن تدور حول رأس الرجاء الصالح –  
أى حول أفريقيا – أو حول رأس هورن – أى حول أمريكا الجنوبية . .

وفى القرن الماضى كانت رحلة السفينة الشراعية من استراليا إلى إنجلترا  
تستغرق مائة يوم . . وبعد ذلك استطاعت سفن شراعية أكبر أن تقطع هذه  
المسافة فى أيام أقل ففى سنة ١٨٦٨ استغرقت رحلة السفينة الشراعية (ثرومليه)  
٦٣ يوما . . أما المسافة فهى ١٥ ألف ميل . .

وبعدها جاءت سفن أخرى تنقل الشاي من الصين إلى إنجلترا عبر قناة السويس التي انفتحت سنة ١٨٦٩ ، ثم جاءت سفن أخرى وقامت بنقل الصوف من استراليا . وفيما بين سنتي ١٨٨٥ و ١٨٩٥ كانت الرحلة تستغرق ثمانين يوما ونصف اليوم من استراليا إلى بريطانيا حول أفريقيا وتستغرق أيضا اثنين وثمانين يوما ونصف اليوم إذا مرت حول أمريكا الجنوبية .

أما رحلة هذا الشاب أريك نيوبى فقد كانت فى سنة ١٩٣٨ ، فى ذلك الوقت كانت هناك سفينة ضخمة رشيقة ممدودة تشبه كلاب الصيد . واسمها موشولو . . وكان قبطان هذه السفينة اسمه جوستاف الرهيب . . وعندما توقفت السفينة تفرغ ما بها من شحنات القمح تقدم شاب صغير إلى القبطان وألقى أمامه ورقة وهرب . . ويقول الذين رأوا القبطان أنه مد يده وفتح الورقة وتركها تسقط على الأرض ثم داسها وأفرغ كوب البيرة فى فمه واستدار يطلب المزيد ، وفى اليوم التالى جاء هذا الشاب وقال للقبطان إنه يريد أن يكون ضمن رجاله وسمع الناس القبطان يقول : تريد أن تكون كلبا بين الخنازير التى معى . لا مانع . .

وهذا يختلف تماماً عما رواه الشاب أريك فى مذكراته . ولكنه على كل حال وافق على أن ينضم هذا الكلب الصغير إلى حظيره المسماة موشولو . . ووافق الأب أيضا وأعلن القبطان للأب أمام الابن أنه غير مسئول عما يحدث للابن كأن يهرب فى أحد الموانئ . . أما إذا أخطأ فسوف يطبق عليه القانون الفنلندى ، فصاحب السفينة فنلندى والقبطان أيضا ، وإذا مات أثناء العمل فسوف يدفعون له تعويضا .

وبعد أن أفرغت السفينة حمولتها من القمح ، وبعد أن وضعوا فيها أثقالا من الحديد وبراميل بها ستون طنا من الماء العذب ، نشرت السفينة أشرعتها الأربعة يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٩٣٨ فى طريقها من ميناء بلفاست بايرلندا إلى ميناء لينكولن باستراليا . . أما الرحلة بالنسبة لهذا الشاب فقد

بدأت قبل ذلك بيوم واحد . . أو على الأصح بساعات ، فلم يكذب الشاب الصغير ينتقل إلى ظهر السفينة حتى سمع القبطان الرهيب يقول صارخا : اصعد السارية بسرعة . . إلى آخرها ! وكانت صرخة القبطان . . مثل طلقة نارية موجهة إلى الشاب أريك . . إليه هو وحده . عينا القبطان ويده كلها تؤكد هذا المعنى ، وقال الشاب : يجب أن أخلع حذائي.. وقال القبطان اخلع حذاءك واصعد . .

أما ارتفاع الشراع فهو ١٩٨ قدما . . وهو أعلى سارية في العالم . . وكان مغطى بالزيت ومبلا بالماء . . وبدأ البحار الصغير يتسلق السارية . . وجاء صارخ من القبطان يقول له : إذا أصدرت إليك أمرا فيجب أن تردده ورائي . . اخلع الحذاء واصعد إلى آخره . وردد البحار الصغير : اخلع الحذاء واصعد إلى الآخر وصرخ القبطان : لم أقل ذلك . وتنبه الشاب وقال : اخلع الحذاء واصعد إلى آخره . . وتسلق حتى آخر الشراع . .

ثم نزل ، لم يكن الغرض من هذا الصعود سوى أن يدخل في طاقم السفينة بسرعة وأن يطيع الأوامر ، وأن يتحول إلى قطعة من قطع السفينة لا رأى له ولا إرادة . إنه فقط ينفذ أوامر العقل الكبير : القبطان الرهيب . وأكد له القبطان : أن الذي تفعله هنا بالقرب من الميناء سوف تفعله مرات أثناء العواصف التي تزيد سرعتها عن السبعين ميلا في الساعة .

وكانت الرحلة بعد ذلك شاقة ، ولكن أحدا من طاقم السفينة لا يندعش لما يفعله المحيط بالسفينة ولا لما تفعله الرياح بالشراع . وأعمال النظافة تتم في الساعة السادسة من كل يوم ، وكل واحد يؤدي عمله ساعات محددة بشرط أن تكون الأحوال الجوية حسنة أما إذا ساءت ، فالكل يجب أن يعملوا . . وبسرعة يستمد البحارة من البحر غضبهم ومن العواصف قسوتهم ، ومن الزمهرير جمودهم ومن الموت تحديدهم له . .

ووصلت السفينة إلى استراليا . أما المغامرة الحقيقية التاريخية فهي في طريق عودتها إلى إيرلندا . . فالسفينة قد حملوها بستين ألف جوال من القمح ولا بد أن تعود إلى إيرلندا عن طريق رأس هورن - أي مارة بالطرف الأقصى لأمريكا الجنوبية رحلة عادية وقد استغرق شحن السفينة حوالى الشهرين . وفي الميناء صعد الشاب سارية السفينة ، وعندما نزل فوجىء بأن القبطان يسأله : من الذى أمرك ؟ وردد الشاب وراءه : من الذى أمرك ، وقال القبطان : ليس هذا أمراً لأنه سؤال ! وقال الشاب ليس هذا أمراً إنه سؤال . .

وضحك القبطان . . وهنا طاقم السفينة هذا الشاب لأنه استطاع أن يجعل القبطان يضحك في هذا اليوم ، واحتفلوا بهذا اليوم السعيد فذبخوا واحدا من الخنازير الثلاثة الموجودة في السفينة ، وكان عليهم أن يأكلوا الخنزير كله ، فليس في السفينة ثلاجة يضعون فيها ما يتبقى من اللحم ، وشربوا حتى سكرروا تماماً ، وأقلعت السفينة واتجهت إلى الشرق . . الجو بارد جداً ، الموج مرتفع الهواء يستجمع قوته ليكون عاصفة ، كل شئ يدل على ذلك ، أشرعة السفينة تهتز ولكن واحدا منها لا يمتلي . . القبطان دائم النظر إلى السحب ، ولكنه رجل مدرب فقد هز رأسه دليلاً على أن شيئاً خطراً لن يقع ، وهبط لينام ، ونام ، وكل شئ حول السفينة قد نام وعندما صحا ، كان كل شئ ينتظره ، السحب ازدادت سوادا والموج ازداد ارتفاعا والعاصفة تعتمر السفينة والخنازير والبحارة في حالة هياج فوق السفينة .

وفي الليل ، أى بعد يوم ١٥ مارس سنة ١٩٣٩ بعد إبحارها من ميناء لنكولن باستراليا بأسبوعين قرر البحار الصغير أن يصعد السارية ويلقى بنفسه في البحر لماذا ؟ لم يعرف سبباً لذلك ، ويقول إنه رأى والدته في النوم . ويقول إنه رأى مرجريت . . وعندما فكر في تنفيذ هذا القرار كان البحر هائجا والسفينة تتساقط في كل الاتجاهات ولا يوجد أحد على ظهر السفينة . .

لا أحد ، والليل مخيف وهو ما يزال شابا صغيراً وما يزال الطريق طويلا رهيبا إلى ميناء كوينزتون بايرلندا .

وفي نفس الوقت كان يسمع من القبطان أن سفينة شراعية أخرى سبقها منذ شهرين.. قد أفلتت قبلها يوم ١٦ فبراير ، السفينة اسمها فايكنج .. وهى المنافسة الوحيدة لها .

وأبحرت سفينة أخرى اسمها بامير يوم ٨ مارس أى بعدها بأسبوع .

وسفينة ثالثة اسمها باسيت أبحرت يوم ٩ مارس .

وبعد أيام هدأت الرياح ، ولكن الجو بارد ، والموج جبال ، والقبطان عيناه فى بريق النجوم ، ووجهه مكفر كالسحب ، وصوته كالرعد ، وليس من المتوقع ، لأى سبب أن يضحك ، الكل يؤكدون ذلك . . ثم إن واحدا من البحارة قد أخبر أريك الصغير أن هذا القبطان كانت له زوجة هربت مع بحار صغير وتركته ، وهذا هو سر قسوته عليك . ثم إنك تشبه هذا البحار الذى هرب مع زوجة القبطان .

\* \* \*

ومنذ ذلك اليوم راح أريك الصغير يغطى وجهه ، حتى لا يراه القبطان أو حتى إذا رآه لا يستعيد ذكرياته الأليمة ، إنه شاب صغير وأفكاره صغيرة أيضا ، ولم يناقش ما قاله هذا البحار المخمور ، فلا وقت للتفكير فى أى شىء ، فالموت على رقاب وتحت أقدام وفى جوانب وعلى شفاه الجميع !

لاشئ يراه أى إنسان غير الماء والسحاب .. والاثنان من لون واحد . وكل شئ على مدى ألوف الأميال . . إنهم على مسافة خمسة آلاف ميل من رأس هورن ، أقصى أمريكا الجنوبية . .

وفى أحد الأيام قرروا أنهم سعداء جداً . . لماذا . . إنهم مروا بنحط

الطول ١٨٠ وعليهم بعد ذلك أن يعيشوا يوماً آخر . . فعند هذا الخط يعيش الإنسان اليوم الواحد يومين . . ( أنا شخصياً مررت بهذه التجربة . . فعندما سافرت من طوكيو يوم ٧ نوفمبر وصلت إلى جزر هاواي يوم ٦ نوفمبر . . فكأنني عشت يوم ٦ مرتين ، ويوم ٧ مرتين أيضاً ! ) ولكنهم تشاءموا ، فقد كان يوم عبور هذا الخط يوم جمعة . . ولو كان يوم الأحد لعاشوه مرتين !

وقال أحد البحارة المخمورين : ان هذا اليوم لن يمر في سلام ، ولما سألوه قال انه يعرف ذلك ، ولما استوضحوه قال . إذا رفع الخنزير رجله اليمنى عند الذبح فهذا نذير شوئم علينا جميعاً !

وقد صدقت هذه النبوءة ، فلم يكن أسوأ من ذلك اليوم في الرحلة كلها ، وكان على البحار الصغير أن يظل يجرى من أول السفينة لآخرها يربط الحبال ويعقدها ويأتي بالخرائط للقبطان من تحت ومن فوق وطلب إليه القبطان أن يضاعف كمية الشاي الساخن الذي يشربه حتى لا ينام .. وأن يظل طوال الوقت عند قدميه .. نعم عند قدميه ، ألم يقل إنه كلب من الكلاب ؟ فعلاً إنه واحد منهم ، بل إنه أقرب الكلاب إلى القبطان .. أو أبغضهم إليه .. أو الذي لا ينساه أبداً .. بل إنه يناديه باسمه عشرات المرات في اليوم الواحد .. ونام أريك الصغير من شدة التعب وتراجع برأسه إلى الوراء ، فاصطدم بالقبطان .. ونهض خائفاً وهو يقول : نعم يا سيدى . سوف أصعد فوراً !

وانطلق أريك يصعد السارية من جديد .. وتشاء الصدفة العجيبة أن يكون صعوده في الوقت المناسب ، فقد كان الشراع قد بدأ يتمزق، ولكن أريك الذي لا يتدرى مصدرها استطاع أن يعيد رباط الشراع وكانت العواصف شديدة .. وظل يواجه الشراع والموت والعواصف وحده ساعتين . وهبط إلى ظهر السفينة ليجد القبطان في انتظاره ، وقد أخذه إلى غرفته وملاً جوفه بالكونياك ووضع عليه أغطية كثيفة ، والشاب الصغير في ذهول

ولكن عيون البحارة تؤكد له أنه حقق معجزة ، فلولا أنه صعد في الوقت المناسب ودون أن يطلب إليه أحد ذلك ، لتحطمت السفينة تماما . واندھش أريك كيف أن القبطان لم يقل له : اصعد إلى السارية فوراً . . انه يقسم بالله أنه سسمع ذلك ، ولكن القبطان ضحك .. وقال له : لقد أنقذت السفينة ، ولكن لا تفعل شيئا دون أمر .. ولا تردد هذه العبارة ورأى !  
وذبحوا واحدا من الخنزيرين الباقيين وكانت ليلة سعيدة ..

وطلعت الشمس .. وغابت .. وظهر القمر .. والجو يزداد دفئا. انهم الآن متجهون إلى الشمال .. إلى قرب خط الاستواء .. ولون البحر يتغير من الرمادي إلى الأخضر ثم إلى الأزرق والدفء المنعش .. ثم الحرارة الشديدة .. ولكن الجو محتمل الآن .. وفي الصباح الباكر صعد واحد من البحارة إلى قمة السفينة ورأى سفينة شراعية من بعيد وسأله القبطان أن يصف أعلامها .. ولكنه لم يستطع أن يرى الأعلام ، وصعد بحار آخر وفي يده التلسكوب ووصف أعلامها .. من الغريب أنها سفينة فايكنج التي أبحرت قبلهم من استراليا .. وكان ذلك يوم ٩ أبريل عيد الفصح .. وأحسوا جميعا أنه يوم عيد حقا .. لقد خرجت هذه السفينة قبلهم بشهر .. إذن لقد أدركوها ، وسوف يسبقونها ، انهم يمشون أسرع .

وأعلن القبطان الرهيب أن أيام العيد قد انتهت ، وأنه يعدهم بإجازة طويلة على الشاطئ . ومن الضروري أن يصلوا إلى إيرلندا قبلها ، لا نوم بعد اليوم ، الكل على ظهر السفينة ، ولا بد أن يسبقوا هذه السفينة ولو بشبر واحد وليبتلعهم المحيط بعد ذلك ! ..

الأمطار غزيرة ، المياه قد ملأت جوف السفينة ، ولكن جوات القمح قد تغطت بالشمع السميك .. والمهم عندهم ألا يروا هذه السفينة .. لأنهم جميعا يتجهون إلى المناطق الدافئة ، فالأحوال أحسن ، والقبطان كأنه مضبوط على أشعة الشمس ، كلما تسللت من وراء السحب ، تسلل الابتسام إلى وجهه ..

وفي أول مايو بلغت حالة اليأس أقصى مداها على ظهر السفينة حتى لقد ألقى البحارة بأنفسهم إلى الماء يسبحون بالقرب من السفينة وقد ربطوا أنفسهم بالحبال .. ان الموج أرحم من السفينة . أما أريك الصغير فقد ربط نفسه في أحد الأعمدة ، وقد جمعوا الأشرعة تماما ، حتى تظل السفينة أقل اندفاعا .. وتوالت الساعات كأنها السنوات .. واقتربت السماء من المحيط ، وكأن السحب والموج تريد أن تسحق السفينة تماما وهذا واضح ، ولا أمل في النجاة ، ولكن القبطان كان كأنه يتفرج على تمثيلية قد رآها قبل ذلك عشرات المرات. فظهر على وجهه الكثير من الملل .. وكأنه يعلم أن الموج لا يعنى ما يفعل والرعدا لا يعنى ما يقول ..

وبعد ذلك بأيام تحسنت حالة البحر ، وقرر أريك أن يبعث برسالة .. ولكن إلى من؟ إلى أى أحد، وأن يضع الرسالة في زجاجة وأن يلقي بالزجاجة في المحيط ، ولكن ما الذى يقوله ؟ كتب أريك في الرسالة يقول : لا أريد أن أعيش بعد اليوم ، تعبت ، مع أنى ما أزال صغيرا ، ولكن الطريق الذى اخترته صعب ، ولا أعرف ما الذى دفعنى إليه ، . هل حقد أخى على .. هل هى غيرتى منه .. هل هى نظرة الاستخفاف فى عيني مرجريت .. هل هو الهرب من المدرسة .. هل أمى أسرفت فى حسن ظنها .. فهى تتصور أنى سوف أعوضها عن أخى .. وعن أخى الذى مات قبله .. لأننى أشعر بأننى سفينة بلا شراع ولا دفة ولا بحارة ولا قبطان .. لذلك يجب أن أنهى حياتى بيدي .. ولكن لن يعرف ذلك أحد ..

ثم وضع الرسالة فى زجاجة وأقفل الزجاجة بإحكام وبدلا من أن يلقي بها فى المحيط ذهب إلى القبطان وطلب إليه أن يعطى هذه الزجاجة لوالده .. وأمره القبطان أن يفتحها وأن يقرأ ما كتب .. وضحك القبطان وصفعه بشدة على وجهه ، وهو يقول . لأننى أرى شبابى فيك .. أعجبتنى رجولتك .. اننى طردت زوجتى من البيت لأنها قررت أن يكون ابنها إلى جوارها وليس

إلى جوارى .. أردته رجلا وأرادته امرأة .. ثم ظل يضربه بيديه ورجليه ..  
وأغلق الباب عليه ..

وبعد ساعة عاد إليه ، وطلب إليه أن يستحم في المحيط وأن يغير ملبسه  
وأن يتناول عشاءه معه ..

وعلى مائدة العشاء جلس القبطان والبحار الصغير ، والبحارة من حولهما  
يشربون ويغنون .. لقد سبقوا السفينة « فايكنج » لأنهم قطعوا ١٥ ألف  
ميل في ٩١ يوما . أما السفينة التي رأوها فقد تخلفت عنهم عشرين يوما ،  
ولم يدركوا جميعا أنهم كسبوا سباق القمح الدولي .. إنه أول وآخر سباق  
بين السفن الشراعية عابرة المحيطات .. أما البحارة فيقولون الفضل للقبطان  
الرهيب .. أما القبطان الرهيب فيقول - الفضل للبحار الصغير .. أما البحار  
الصغير فيقول - بل بسبب نظرة استخفاف من فتاة كنت أتمنى أن تحبني ! ..

١٥ ألف ميل قطريا  
على ظهر مهسان !

شاهدت القاهرة منذ سنوات « الأوبرا الزنجية » المشهورة باسم « بورجي وبس » .. وفي هذه الأوبرا نجد رجلا مكسحا يتحرك على قاعدة خشبية لها عجلات وتجره ماعز سوداء وهو يحب بطة الأوبرا .. وهو صادق في حبه . وهذا الصدق هو الذى يجعل لأحداث الأوبرا طعم العسل والمر معا .. فهو حب مضحك ولكن يبعث على الحزن أيضا .. وعندما عرف هذا المسكين أن حبيبته قد سافرت سأل الناس - وأين مدينة نيويورك ؟ فأشار الناس إلى الناحية اليمنى من المسرح .. أو بعضهم أشاروا على الناحية اليمنى ، التى هى ناحية المقابر أيضا ، وسألهم : فى هذا الاتجاه توجد مدينة نيويورك ؟ قالوا : نعم ..

واتجه المحب الولهان العاجز إلى ناحية نيويورك على هذه القاعدة الخشبية ذات العجلات الأربع ليلحق بمحبوبته التى هربت مع شاب عملاق .. ولكن أحد من الناس لم يقل له إن نيويورك تبعد عن هذا المكان خمسة آلاف ميل ! وعندما اتجهت به الماعز إلى نيويورك اتجه الناس إلى الباب الخارجى من المسرح فقد نزل الستار !

شاب آخر سويسرى نهض من النوم ليقول إنه لا بد أن يسافر إلى نيويورك ولم يخجل الناس أن يضحكوا منه . أو يضحكوا عليه . هذا الشاب ولد فى سويسرا سنة ١٨٩٥ واسمه ايمى تشيفلى . كانت طفولته عادية . بلا أحداث ، ككل طفولة السويسريين .. وسافر إلى إنجلترا .. وتعلم هناك . وبعد ذلك سافر إلى الأرجنتين وأقام فى مدينة بونس ايرس وكان رياضيا

في غاية القوة . ولم تكن عنده أية رغبة في المغامرة . إنه جاد في حياته ومنظم  
وهادئ ونظيف – سويسرى مائة في المائة !

وفي أحد الأيام كان يقلب في أحد الكتب بعد أن تناول طعام الإفطار .  
وقف مرة واحدة وقال لخمسة كانوا يجلسون معه : اليوم ياسادة اتخذت  
قرارى الكبير سوف أذهب إلى نيويورك على ظهر حصان .. وليست هذه  
قضية أعرضها عليكم !

وصدق الناس هذا القرار لأنه رجل جاد .

وانتقل إلى تنفيذ القرار بسرعة . ذهب إلى السوق واشترى حصانين  
وساعدته صحيفة « لاسيون » في تكاليف هذه الرحلة ، في نشر أخباره وتشجيعه  
ولكن هذا القرار لم يكن عملا جنونيا أو نزعة طائشة . فهناك تصرفات  
واهتمامات كثيرة تدل عليه . فهو مهتم جدا بالخيل .. وخصوصا بالخيل  
الكريول وهى أجود أنواع الخيل فى الأرجنتين أو فى العالم . وهى قادرة  
على تحمل السفر والمشى مسافات طويلة . وهذه الخيل قد أتى بها الأسبان  
إلى أمريكا فى القرن السادس عشر . وأهم من ذلك أن هذه الخيل لا تتأثر  
بالتغيرات الجوية .

أما المسافة التى يجب أن يقطعها فى الجبال والمستنقعات والغابات موالديان  
والوحوش والمتوحشين فهى عشرة آلاف ميل ..

اشترى حصانين .. كلاهما قصير العنق . ولكن له كتفان قويتان .  
وله أرجل رشيقة . وهو يقاوم أية محاولة لربطه أو تقييده . ولكن إذا  
وضع السرج عليه والجمام فى فمه فإنه يصبح تمثالا لحصان . وفى غاية الاتزان .  
وكانت خطة « ايمى » أن يركب حصانا ويترك الثانى يمشى ورائه .. ثم  
يركب الثانى .. وبعد ذلك يستريح الثانى ويمشى هو بعض الوقت ، إنه  
يريد أن يستريحوا هم الثلاثة قدر الإمكان ..

وبدأت الرحلة . وكانت البداية أول الأمر قاسية عليه هو . فمع موسم الأمطار في الأرجنتين توحدت الطرقات وقد سار في طريق ضيقة أول الأمر . ومضوا يخوضون بحرا من الطين . وبعد ساعة من الرحلة سقط واحد منهم ميتا . لقد رافقهم كلب صغير . واقترب من أحد الحصانين فرفسه ففقد عليه في الحال . وانزعج « ايمى » ولكن لا وقت للأحزان ولا داعى للتشاؤم ومضى في طريقه الطويل ..

وانقطع نهار طويل ثقيل أسود .. وفي الليل ذهب إلى مراكز الشرطة وربط الحصانين هناك . وأوى إلى أحد الفنادق الصغيرة . فندق ريفي طبعاً . الغرفة بها أربعة أشخاص يأكلون ويشربون ويدخنون . وإذا تعب الزليل وأغنى قليلا أيقظته الحشرات . وخيرا فعلت هذه الحشرات فقد سمع حركة غير عادية . ونهض ليجد أحد اللصوص يريد أن يسرق الحصانين . وكان الفندق ملاصقا لمركز الشرطة .

ومضى يوم آخر وتوقف عند أحد الفنادق . وكان عليه أن يلتقى بالمراتب على أرضه وينام على الحديد . فالحديد أرحم بكثير من الحشرات .. واستأنف الرحلة متجها إلى شمال الأرجنتين . الأرض واسعة . الوديان سحيقة . الطريق ملىء بالمطبات . والأشجار الشائكة . والأمطار لا نهاية لها . والطريق خائق . ولم يكن يضايقه إلا السيارات التي تتلوى كالثعابين ولو انحرفت قليلا لأطاحت به هو والحصانين إلى الموت ..

وكان عليه بعد ذلك أن يختار طرقا أخرى في بطن الوادى .. وأجأته العواصف الشديدة إلى أن يأوى إلى أحد الحقول . وفي أحد الحقول وجد جماعة من الفلاحين يجلسون حول النار . واقترب منهم ودعوه على الفور أن يجلس . وجلس . وقدموا له الطعام . فأكل وملاؤا أكواب « البربا » - نوع من الشاي - وشرب . ثم أقسموا عليه أن يأكل « الأسادو » - نوع من اللحم الساخن الجاف - فأكل وأكل . وأدركه النوم فدفعوه إلى إحدى

الغرف ليستريح ، والغرفة مليئة بالدخان . والرؤوس والسيقان متقاربة .  
ونام . واستأنف رحلته من جديد ..

الطرق واسعة .. كل شيء واسع طويل عميق كثير .. شيء ممل . ولكن  
بين الحين والحين يجد قرية صغيرة ، ويخرج من القرية بعض الأطفال  
ووراءهم بعض الكلاب .. ينبحون جميعا ثم يبحي الهدوء والاتساع يأكل  
الصوت والصدى معا . ويخيم على كل شيء ملل رطب ، أو رطوبة مملة !

أمامه الآن هدف واحد هو أن يصل إلى حدود بوليفيا . وبعد ذلك يدخل  
في أرض بوليفيا ثم يعود مرة أخرى إلى حدود الأرجنتين .

وكلما تقدم إلى الشمال كان الناس يدعونه إلى الطعام والشراب . وكل  
واحد يفتح له بيته ليقضى الليل فيه . وفي كل مكان يجد أناسا فيه .. وفي  
كل مكان يجد أناسا يرقصون ويأكلون ويشربون ويشدون إلى الحظ والطرب  
قال له واحد منهم - يبدو أنه شيخ قبيلة - إلى أين يا صاحبي ؟ فقال :  
إلى نيويورك وعاد الرجل يقول : وهل إذا أكلت ورقصت ونمت تختفي  
نيويورك ؟ فأجاب : طبعا لا .. وعاد الرجل يقول : وإذا وجدت فتاة  
جميلة مثل هذه أكثر نعومة من الحرير ، وأدفاً من الشمس ، وتفعل بالرأس  
ما يفعله بحر من النيذ ، وهي التي تتقدم إليك فهل ترفض ؟ .

وتقدمت الفتاة وتعلقت بعنق ايمى ، ونزل من فوق الحصان .. وظل  
ينزل حتى طلع النهار وقد وجد رأسه عند قدميه .. وكانت ليلة لم ير مثلها في  
هذه الرحلة . ونهض بسرعة ولم يجد الناس .. لقد تركوه نائما .. وذهب  
كل منهم إلى عمله في الغابات أو في الحقول . وجمع حصانيه واستأنف  
الرحلة ..

وفي الطريق وجد أناسا طبيين . لأنهم يشربون لبن الماعز من الماعز  
مباشرة ، ويأكلون اللحم الجاف .. ويقدمونه له طول الطريق .. وأمامه

بعد ذلك غابات وقنوات وأرض مزروعة وكان لا بد أن يحمل معه المزيد من الماء له وللحصانين . فهو يعلم أن الطريق بعد ذلك قاس ، في غاية القسوة . ولن تكون هناك أمطار .. وإذا أسقطت السماء مطرا فعليه أن يصنع قرطاسا كبيرا وينام على ظهره لينزل المطر في القرطاس ويشرب .. وبعد ذلك عليه أن يملأ فيه بالماء ويفرغه في فم كل من الحصانين .. ونام كثيرا على الأرض وملاً فيه وارتوى وكذلك الحصانان وما يزال الطريق طويلا .

وعليه بعد ذلك أن يعبر جبال الأنديز .. وقد أشار عليه بعض الناس الطيبين بأن يختار طريقا ملتويا وقد نصحه بعض الخبراء بأنه من الأفضل أن يصعد هذه الطرق على قدميه لكي يريح حصانیه . واقترح عليه بعض الخبراء البدائيين أن يمضى ليلة معهم يتفرج على ما يشبه السيرك . وفي السيرك تدور معارك . وتنتهى المعركة بأن يمثل واحد منهم دور القاتل والآخر دور القتل . ولكن المنظر الذى أمامه كان لقاتل حقيقى وقتيل حقيقى . وتساقت القتلى وغرق الناس فى الدماء .. وتعلقت المشائق وطاشت السكاكين .. وانزعج ايمى . ولم يستطع أن يمشى على رجليه .. فركب أحد الحصانين .. واتجه إلى جبال الأنديز .. وبين الحين والحين ينحنى على الحصان ويقبله قائلا : ان سيدك مجنون . فلتكن أكثر عقلا . والأرض التى أمامه عند سفوح الأنديز مليئة بحقول قصب السكر وعلى الحدود لا يوجد سوى حراسة عسكرية . ورجال فيهم غلظة وقسوة .. معذورون .. لأنهم لا يرون الناس سوى اللصوص والمهربين .. ولكن بالقرب من نقط الحدود توجد حفلات رقص .. ثم توجد حلقات عديدة لأناس يتفرجون على مصارعة الديوك .. وتوقف ليرى .. ولكن كان عليه ألا يستسلم للتعب .. فأقسى جزء فى رحلته هو منطقة جبال الأنديز . فالطرق جافة . وكل طريق يشرف على هاوية . والمجارى المائية جافة أيضا والأحجار يتوالى سقوطها باستمرار من أعلى الجبال . ويجب أن يتخفف من كثير من الأشياء التى لا ضرورة لها ..

هذه هي قاعدة كل من يريد أن يصعد ، أن يكون خفيفا .. إن الطرق قاسية حتى على حوافر الخيل . لابد أن يمشى على رجليه ..

ومضى يوم ويوم . وجاء ليل . ونام في حوضن أحد الخيول .. والجو بارد إلى درجة الصفر . وامتدت يده إلى لإحدى الزهور البرية . ونفذت أشواكها إلى يده فنزف الدم وتورمت بسرعة . وشعر بالآلام عنيفة في ذراعه . ولكنه مضى في طريقه طالعا نازلا ملتويا معتدلا متهاكيا . وعند أحد المنحنيات وجد قبيلة من الهنود الحمر . ونظروا إليه بعيون نافذة ، واقرب واحد منهم ودعاه لأن يعالجه وعندما نظر إلى يده التي تورمت قال : أنصحك أن تعود إلى بونس ايرس - أى إلى بداية الرحلة .

ولكن رجلا حكيا . قال : أنا أعالجك .

وجاء الرجل بإناء يغلي . ووضع فيه بعض الأعشاب . ثم بعض المساحيق الملونة وظل الإناء يغلي حتى تحول ما فيه إلى عجينة ذهبية اللون ووضعها على اليد المتورمة وبعد ساعات ذهب الورم . ولكن درجة حرارة اليد ما تزال مرتفعة . وعاد حكيم القبيلة يقدم له أعشابا أخرى .. وبات ليلته ثم مضى في رحلته من جديد ..

واقترح عليه الهنود الحمر أن يسلك طريقا آخر . أما هذا الطريق فقد وفر عليه مئات الأميال . وهذا الطريق يمر بجبل ارتفاعه ١١ ألف قدم . وقطعه في عدة أيام ولكن الدم كان ينزف من أنفه معظم الوقت . ولكن الحصانين كانا في صحة جيدة وفي غاية اللياقة البدنية والمعنوية أيضا . وكان هو أكثر حرصا على صحة الحصانين . وانتقل إلى بوليفيا .. وديانها جميلة .. وتوقف عند أول كوخ من الطين . كان بلا تهوية . ونام بعمق . ولكنه في الصباح صحا على دق الطبول العنيف . وعلى أصوات غريبة . إنه يوم القديس سان روكه راعي الكلاب . وفي هذا اليوم يمسك كل واحد بما

عنده من الكلاب تم يطلقها . وفي هذا اليوم تتحرر الكلاب وتلهو وتلعب كما يحلو لها . وفي هذا اليوم أيضا تدور المعارك الدموية بين الكلاب . والناس يتفرجون وقد أنشب واحد من هذه الكلاب أسنانه بسرج حصانه . فقد ظن أن الجلد الذى يغطى الحصان هو جلد كلب آخسر : ولكن « ايمى » أنقذ الحصان فى آخر لحظة . ومن الغريب أنهم فى هذه المنطقة يأخذون الكلاب إلى الكنيسة ويدخلون بها . ويحجى القسيس ويباركها ويدعو الله أن يعيد هذا اليوم على الكلاب وأصحابها بالسلام والصحة .. وبعد ذلك تخرج الكلاب إلى الشوارع فلا يكون سلام ولا صحة . وإنما موت وضوضاء ومشاكل عائلية ولا يحسمها إلا كلاب العام القادم !

والتوى الطريق ودخل الغابات وهبط إلى الوديان وتسلق الجبال .. ثم تسلل إلى الحقول .. ولا تزال القرى صغيرة قديمة كما تركها الأسبان من مئات السنين . لم يتغير شئ . الأرض صغيرة والناس ظرفاء ورغم المرح على الأجساد ، فإن الوجوه حزينة .. لعلها متعبة من كثرة المرح . تماما كما يضحك الإنسان ولا يزال يضحك حتى يسقط ميتا ، فكثيرون يموتون من الضحك !

وجاءت مناطق المناجم .. مناجم الذهب .. فى هذه المناطق أقام الأسبان طويلا . والطريق مليء بالهنود الحمر . وهى قبائل متوحشة . وقد حذره الكثيرون . ولكن لا بد أن يصل إلى نيويورك ومن ورائه حصانان .. أنها قبائل ايمارا – من هذه القبائل جاء رجال ثلاثة وبنوا السفينة رع الثانية فى ميناء صافى بمراكش .

وفى الليل طارده رجل مخمور . ولا يعرف ماذا يريد . واختبأ منه فى أحد الأفران الخامدة . وأمضى الليل كله عاجزا عن أن يفتح فيه ويسعل .. أما الحصانان فقد أخفاهما فى الحقول المجاورة . ولما طلع النهار وجد الرجل المخمور نائما بالقرب من الحصانين وقد ربطتهما فى وسطه . وعندما اقترب

« ايمى » من الحصانين ووجد الرجل انزعج . ولكن الرجل المخمور قال له :  
إنما أردت أن أحرسك .. فالتاس هنا قد اتفقوا فيما بينهم على ألا يتعرضوا  
لرجل مخمور معه سلاح .

ثم كشف عن صدره فوجد على صدر المخمور عشرات من الخناجر  
ولم يفهم ايمى ما يقوله هذا الرجل .. وعاد المخمور يقول له : إننى معجب  
بهذ النوع من الحيول ولم أرها منذ عشرين عاما .. وقررت أن أهجر عروسى  
هذه الليلة وأخونها مع أجمل مخلوقات الله !

وكانت هذه هى النكته الوحيدة التى أسعدت « ايمى » وجعلته يزداد  
تعلقا بحصانيه ..

وكان عليه أن يدخل مدينة لاباز .. وفى هذه المدينة المتعددة الألوان ،  
القديم والجديد ، اتجه إلى سفارة الأرجنتين وقدموا له طعاما وطنيا اسمه  
( البيكانتة ) و ( السطيطة ) .. وهى من لحم الديك الرومى أو الدجاج الذى  
غرق فى الشطة .. ولم يكذب قطع فى فمه حتى شعر أنها قطعة من النار !

ومر بمدينة ميواناكا .. ورأى شواطئ بحيرة تيتكاكا .. وأمضى ليلة  
فى الرقص والشرب وهو طبعا لم يعرف الأهمية التاريخية لهذا المكان .  
ولإنما بعد ذلك بعشرات السنين اكتشف العلماء أن سكان الكواكب الأخرى  
قد هبطوا إلى هذه المنطقة وإلى هذه البحيرة بالذات هبطت أول امرأة  
من الفضاء الخارجى . ولم يعرف طبعا أنه فى هذه المدينة بوابة توجد  
عليها نقوش لسفن فضاء هبطت من السماء من ثلاثين ألف سنة !

ومن جمهورية بوليفيا هذه اتجه إلى جمهورية بيرو . ولم يكن فى حاجة  
إلى وقت كبير ليعرف انه يجتاز منطقة من النار . فالعلاقات متوترة بين  
كل من بيرو وبوليفيا وشيلي .. وقد ظنوه أول الأمر من شيلي فكادوا  
يقتلونه ولكن عندما رأوا الكلمات المطبوعة على سرج الحصان

تركوه في سلام .. فعلى سرج الحصان وجدوا هذه العبارة : تعيش الأرجنتين ..

وطلبوا إليه أن يبقى معهم هذا العام ! ولما عرفوا هدفه ، التفتوا حوله وأعطوه طعاما وزجاجات من الشراب . وبعضهم قدم إليه تعويذة تمنع عنه الحسد وعين السوء وتحميه من المتوحشين في الشمال ..

واستسلم وأكل وشرب ونام واستراح حصاناه ..

وانشقت الأرض ووجد رجلا إنجليزيا من المهتمين بالآثار . وتمحس ليكمل الرحلة معه . ولكن عندما هاجمها الذباب يوما بعد يوم ، قرر الإنجليزى أن يعود ، فجهه للآثار ليس أقوى من خوفه من الذباب والبعوض .

وجاء موسم الأمطار . وكان عليه أن يتسلق الجبال .. فالأمطار أقل . ولكن حذروه مرة أخرى من القبائل المتوحشة واستعان ببعض المرشدين لأن المناطق وعرة ومن الممكن أن يقتل فيها أكثر الناس خبرة بالجبال .. ففيها الكثير جدا من الطرق المتقاطعة ولا يعرف الإنسان أى هذه الطرق يختار .

ووجد من المناسب أن يخلق لحيته وشاربه . وضحك عندما تساءل – ولكن لماذا؟ وأجاب : إنما أردت أن أتخفف من هذه الأعباء الثقيلة فأنا عاجز عن حمل لحيتي والحصان عاجز عن حمل شاربي !

وفي هذه المناطق يتعاطى الناس الأفيون بيجنون . ويظل الليل في عيونهم لا ينامون ولا يسهرون .. ولكنهم مفتوحو العيون ، ولا فرق ان كانوا قد ناموا ونهضوا من فراشهم ، أو أنهم في طريقهم إلى الفراش !

وأحسن الطرق أمامه هو أن يتجه إلى الساحل قريبا من جمهورية اكوادور . الطريق رملي صحراوي . والأنهار متدفقة سريعة خفيفة . وهو

يحمل معه زجاجتين من الكونياك وعصير الليمون . وقد أضاف إلى عصير الليمون بعض الملح .

وقد أضيف إلى الطريق الممل عمل شيء آخر وهو الطعام — كله أرز مسلوق وفول مسلوق وموز مشوى وبيض وقهوة .

وبعد ذلك يجب أن يعبر صحراء اسمها ماتا كابلو — ومعناها مقبرة الخيول . الصحراء طولها مائة ميل . واختار أن يعبرها ليلا . أى يبدأ رحلته مع الغروب . وفى النهار يجب أن يأوى إلى الأشجار يغطيها بما معه من قماش هو والحصانان فى الظل الملتب .

وبعد أن عبر الصحراء وجد طفلا صغيرا ، وسأله الطفل إن كان فى استطاعته أن يسافر معه . فوافق واشترى له بغلا صغيرا . ومضى ايمى والطفل وحصانان وبغل . قافلة . وعندما بلغوا خط الاستواء قرر أن يحتفل بهذا اليوم السعيد . فقد اتجه إلى النصف الشمالى من الكرة الأرضية ، واتجه بعد ذلك إلى كولومبيا .. انها أرض البراكين والزلازل التى تركت آثارها فى قشرة الأرض المحترقة المحطمة . الجونار . والروائح غريبة وكريهة . وكل شيء قذر . والأكوخ من طين والناس كأنهم طين محروق . والطعام قذر .. وكل شيء يغريه بأن يهرب وهو يريد ذلك ولكنه لا يستطيع بهذه السرعة .

وركب هو والحصانان والبغل والطفل بعض السفن ليعبروا هذه المستنقعات الخيفة . وظلوا كذلك ثلاثة أيام . وعندما رست السفن عند مدينة كولون كان الطفل قد أصابته الملاريا . وتركه وراءه فى أحد المستنقعات . واتجه بعد ذلك إلى بناما . وبقي فيها يومين وفى هذه المدينة أصيب أحد الحصانين ببحر فى ساقه . فتركه إلى أن يتم شفاؤه على أن ينقل بعد ذلك بحرا إلى كوستاريكا .

أما بقية الرحلة فهي أشق من الأيام الأولى . فكلما تقدم في سيره اصطدم بالحدود والمشاكل الوطنية والمعارك بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والأمراض .. ونقل حصانه في سفينة .. ثم عاد والتقى الحصانان . واتجهوا جميعا إلى مدينة نيو مكسيكو .. وكان قد شعر بالخوف لأول مرة .. سمع عن الدماء والخطف والسطو .. وعن رجل مغامر مثله قد ربطوه في حصانه وأطلقوا الكلاب على الحصان .. وبعد مائة متر أطلقوا النار على الحصان .. ولم يكن هناك سبب واضح .. ففي هذه المناطق لا يجد الغريب سببا واضحا لأى شئ .. أنهم لا يدعونه يكمل رحلته .. حتى يكون الحكم قد صدر عليه أو صدر له .. فإذا هو ضيف عليهم ، أو ضيف على الشهداء ..

ونقل حصانيه في القطار ..

وركب هو أحد الزوارق ، ثم التقوا جميعا وعبروا نهر ريو جراند ، بولاية تكساس .. والطرق كلها مرصوفة . والفنادق متوافرة والماء العذب والعشب والطعام والعلاج ..

وكان لابد أن يصل ايمى تشيفلى إلى مدينة نيويورك بحصانيه ..

ووصل إلى نيويورك وانتهت رحلة العشرة آلاف ميل .. وتمدد ايمى تشيفلى في فراشه ونظر إلى السقف وهو يقول : مجنون هذا الرجل ثم أشار بيده إلى صدره وراح يضحك .

ودق الباب . وانفتح . وإذا به يجد طفلا راكبا بغلا . انه نفس الطفل الذى تركه مريضا بالملايا . لقد شفى تماما . والتقى بالطفل رجل من أبناء نيويورك قرر أن يعلم شيئا عن رحلة ايمى تشيفلى فعرف مكانه . وجاء بالطفل والبغل . واحتفلت نيويورك برجل قرر أن من الممكن أن يكون الإنسان قادرا على أن يتخذ قرارا خاصا وينفذه وحده .. وأثبتت

هذه الرحلة أن الأطفال الذين لا يعرفون الحوادث المثيرة في حياتهم هم أشد الأطفال ميلا إلى الأطفال المثيرة . : وأن الخيول أكثر احتمالا من الإنسان وأن نجاح حصانين يؤدي إلى ارتفاع سعر الخيول .. لذلك استحق (ايجي ) عشرة دولارات عن كل كيلو متر قطعها إلى نيويورك . . أما هذه الدولارات فقد جاءته من صاحب أكبر حظيرة للخيول في الأرجنتين .. مكافأة على شجاعة الجميع !

لا تفتحى قلبك  
أيتها الشقراء..  
لأننى سأعطيه!

الناس يفضلون الأكذوبة الجميلة على الحقيقة الكئيبة .. يستريحون إلى النكتة أكثر من سعادتهم بجداول الضرب .. مثلا هو أول من وصل إلى قمة جبل « مون بلان » بسويسرا .. التاريخ الطريف يقول : انه رجل اسمه بالما . وكان ذلك يوم ٨ أغسطس سنة ١٧٨٦ . فهذا الرجل بالما . ابن نكتة . وقادر على أن يروى الحكاية الواحدة عشرين مرة بأشكال مختلفة . ويجب على الناس أن يستمعوا إليه . ولما سئل عن سر هذه الندرة العجيبة . قال : السبب بسيط . . فأنا أروىها لنفسى أربعين مرة قبل ذلك ! .

أما كيف تسلق بالما هذا، جبال الألب ليصل إلى قمة « مون بلان » ، فيرجع ذلك إلى أنه عرف طبييا اسمه الدكتور باكار ، وقد اختاره الدكتور باكار مساعدا له .. أو بعبارة أدق « شيالا » لأمتعته وهو في طريقه الصعب إلى جبال الألب .. لأول مرة في التاريخ ..

وكان يمول هذا المشروع أستاذ جامعي من الأغنياء ومن الضروري أن تعرف اسم الأستاذ الجامعي أنه : هوارسي دوسوسبر ، وهو من علماء الجغرافيا ومن أشد الناس اهتماما بالجبال والصحور وتاريخها ، وهو نفسه قد حاول تسلق جبال الألب تسع مرات ، وفي جميع المرات يعود ومعه عينات من الصحور ، وقد وعد هذا الأستاذ الجامعي بجائزة مالية لمن يصعد جبال الألب .

وكان الفتي بالما - ٢٥ سنة في ذلك الوقت - يعرف أن هناك جائزة مالية .

وفي إحدى الليالي كان بالما ينام في فراشه ، وفي الليل صرخ صرخة  
أزعجت زوجته فصاحت تقول له : كدت تقطع أذني !

وجلس في فراشه ليقول لها أنه كان يحلم بأنه اقترب من قمة جبال الألب  
وعندما أمسك بإحدى الصخور هوت إلى إحدى الثلجات الشاسعة . .  
ولكن زوجته لم تسترح إلى هذا العذر السخيف . وإنما قالت له : اعرف  
أنك كذاب .. وأنها محاولة من رجل غمور ليقضى على زوجته عضوا  
عضوا ! ..

ونفض بالما من فراشه ، وجمع ملابسه وأخرج عصاه من تحت السرير  
ثم ملأ جيوبه بالخبز وحمل معه زجاجة من البراندى . ووقف على عتبة  
الغرفة وقال لزوجته : إذا لم أعد غدا أو بعد غد فأنا هناك في قمة جبال  
الألب !

وأقفل الباب ، وقامت الزوجة .. وقد اعتاد بالما على سخرية الناس منه ..  
فكانوا إذا قابلوه في الطريق راحوا يرمونه بما في أيديهم ، وكان يقول بصوت  
مرتفع : تشجع يا ولد : اعقل يا ولد . كن رزيناً أيها الولد !  
وعندما يسأله الناس : ومن هو الولد ؟ ..

يجيب بسرعة : لا تنخدعوا في مظهرى .. ففي داخلي ولد .. طفل ..  
لو تركته على راحته لانحنى على الأرض وقبل أقدامكم جميعاً ! ..

ولابد أن هذا الشاب المضحك المسلى الغريب الأطوار قد لفت عين  
الدكتور باكار ، ومن أجل ذلك اختاره رفيقا للطريق ، وأى طريق ! .

وكان على الدكتور باكار أن يختار بالضبط الطريق الذي سوف يسلكه  
إلى قمة مون بلان ، أما الطريق فقد درسه سنوات طويلة .. وقام بعدة محاولات  
تجريبية ورسم كل الصخور البارزة ، وحدد أماكن الأشجار ، والمنحدرات

والتلجات والأنهار الجليدية ، ان منظر الجبل لا يغيب عن عينيه ليلا ونهارا ،  
وقد حسب كل شئ بدقة شديدة ، ولم يبق أمامه إلا أن يصعد وأن يستعين  
بأحد ووجد هذا البهلوان بالمأ مساعدا له .

وعندما بلغ بالمأ السبعين من عمره روى قصة صعوده جبال الألب للأديب  
الكبير الكسندر ديماس ، ورواها ديماس بعبارة الحميلة للعالم ، وكان ديماس  
هو السبب الحقيقي في انتشار هذه القصة وفي دخول بالمأ التاريخ راكبا قلما  
جميلا رشيقا ، ومما قال بالمأ للأديب ديماس أنه بلغ قمة مون بلان عندما  
كان في الخامسة والعشرين من عمره ، ولم يشأ أن يذكر أن زميله في الرحلة  
هو الطيب باكار الذى كان في الثلاثين ، ووصف نفسه لديماس فقال :  
كانت حيوتى خارقة وشجاعى نادرة .. واحتمالى للجوع مضرب الأمثال  
لقد أمضيت أياما كاملة أتنفس فقط . فإذا أحسست بالعطش الشديد مدت  
يذى إلى الجليد آكله .. أى ارتوى به وأتغذى عليه .

وقال له : وعندما صعدت وصعدت .. ونظرت إلى قمة مون بلان ..  
صرخت بأعلى صوتى .. أيتها الشقراء إننى فداؤك .. شهيدك .. أيتها الشقراء  
لا تبعدى عنى .. ومهما ابتعدت فأنا وراءك مهما طال الزمن .. لا تفتحنى  
قلبك .. أرجوك .. دعينى أحطمه .. أنا رجلك الأول وعاشقك الآخر ! ..

هكذا جاء على قلم الكسندر ديماس ثم أنه عرض الأمر على الطيب  
باكار وتردد بأكثر أول الأمر ولكنه هو وحده الذى شجعه .. وقال له  
لا تخف .. وقال باكار : وكيف أخاف وأنت معى ، ان انسانا يمشى إلى  
جوارك لا يقع ، انه يمشى إلى جوار جبل .. وان يدا تعتمد على كتفك ،  
ليد تعتمد على أكبر أشجار الصنوبر .. أنا معك حتى الموت .. ولن تموت  
إلا عند القمة ! ..

وقال باكار أيضا : معك يتحول الجليد إلى ماء ، والماء إلى بخار ،  
والبخار إلى سحب .. وأنت قبر النسور نظير معا إلى القمة ! .

وهنا قال بالما : إذن .. لقد حانت لحظة المجد لنا ! ..

وفي الساعة الثانية من مساء يوم ٧ أغسطس اتجه الاثنان إلى الجبل ، الطريق معروف في أوله ولكنه مجهول بعد ذلك ، الخريطة أمامهما ، والشجاعة سلاحهما ، وفي اليوم الأول ناما في ساعة مبكرة في حوضن أحدى الصخور .. وفي ساعة مبكرة من الصباح عادا إلى التسلق من جديد .. ولا شئ جديدا قد رآياه في ذلك اليوم .. فالوديان مدروسة .. والمنحدرات مرسومة .. والغابات معروفة ولكن الطرق ملتوية حادة إلى القمة ، ما تزال مخيفة ، وكان على بالما أن يلتفت إلى باكار كلما خاف ، وأن يعطيه نصيبه من البراندى ومن الطعام ومن النصائح ومن النكت ، وفي إحدى المرات كاد يسقط باكار من الضحك .. فأدركه بالما بعبارة مؤلمة أوقفت باكار على قدمين من الندم ! .

وكلما ارتفع الاثنان أحسا بضيق في التنفس .. فالهواء خفيف ، والبرد لا يمكن أن يوصف يمكن أن يقال أنه يقرص .. أو يلدغ .. أو ينهش .. انه ملايين الأبر في كل خلايا الجسم .. وقال للأديب الكسنتر ديماس : انه خطر له أن ينظر إلى الورا .. ليرى أين هو من الوادى .. وكاد لشدة ارتفاعه أن يسقط ، ولكنه عاد وجمع قواه واتجه إلى الأمام فما تزال الحبيبة الشقراء بعيدة عن يديه .. انها تملأ عينيه ولكن ما أبعد المسافة بين يديه وعينه ..

وجاء الليل وتعب الدكتور باكار .. وسقط إلى جوار إحدى الصخور ، وراح زميله البهلوان يذلك يديه .. ورجليه ، وإن كان هو أيضا يشعر بأن يديه قد انقطعت صلتها به .. واضطر إلى ترك زميله الطبيب بعض الوقت ومضى يسعى إلى القمة .. ثم عاد ونام إلى جواره حتى الصباح .. وفي شعاعات الفجر ، ترك صديقه المرهق المكدود .. ومضى إلى حبيته الشقراء .. ولم تطاوعه أن يقترب من القمة وحده .. فعاد إلى زميله الطبيب ودفعه بقوة ،

وصحبه سحبا إلى المعشوقة الشقراء .. ووقف الاثنان أمام قمة مون بلان التي تبعد مسافة ٣٨ كيلو مترا مربعا وعلى ارتفاع ١٥,٧٧١ قدما ، هذه إذن هي قمة أوروبا .. ووقف الاثنان ساعة .. ثم ساعة ، وقررا العودة بسرعة . فلم يبق أمامهما سوى ساعتين وبعدهما تغيب الشمس ويبدأ القبر الأبيض الجليد الذى هو كفن لكل حياة إنسانية وغير إنسانية ..

ولكن شيئا واحدا أفرغ الإثنين ، لقد أصيب الدكتور باكار بما يشبه العمى ، فقد قال لزميله : غريب إننى أسمع زقزقة العصافير ولكن لا أرى النهار ! ..

ووقف بالما .. وزال ذرات الجليد من فوق جفن الطيب وراح يدلك عينيه حتى تمكن من الرؤية .. ثم سحبه إلى السطح .. إلى بطن الوادى .. وذهب كل منهما إلى بيته دون أن يصفح أحدهما الآخر ، واكتفيا بهذه الرحلة الصاعدة الهابطة الآلية .. بعد أن شهدا جبال الألب على هذه الشجاعة النادرة ، أما بالما فمدق الباب .. وفتحت الزوجة ، واتجه إلى المرآة .. وجد العينين حمراوين والوجه أسود ، والشفتين زرقاوين ، وعندما حاول أن يضحك على نفسه تمزقت الشفتان الجامدتان ونزف منهما الدم ، ولما التفت إلى زوجته وجدها قد عادت إلى الفراش .. ولما أطال النظر إليها وجدها قد غطت أذنيها ووجهها كاملا فعرف أنها تخشى أن يتمدد إلى جوارها وأن يعاود الإمساك بأذنيها أو أنفها ولم تعرف ما الذى فعله الزوج عندما غاب عنها ليلة .. كل ما تعرفه دون أن تنظر إلى وجهه انه كان مخمورا طول الليل .. ولا بد أنه سقط فى الطريق وظل نائما حتى الصباح وغطاه الجليد ولم ينقذه أحد عقوبة له وانتقاما لزوجته ! ..

وأطلق على نفسه ملك الجبل ، وبطل القمة الشقراء ، وفاز بالجائزة ، وبعث إليه ملك جزيرة سردينيا بجائزة أخرى ، وأعطاه أحد النبلاء الألمان معاشا سنويا ! ..

انتهت قصة هذا الشاب بالما والتي رواها في أجمل وأرق عبارة أديب  
فرنسا الكسندر ديماس ! . .

ولكن « صحيفة لوزان » السويسرية أعادت نشر القصة الحقيقية ،  
وقالت أن هذا الرجل بالما عندما روى قصته هذه كان في السبعين من  
عمره أى بعد حدوثها بخمس وأربعين سنة . . ولا بد أنه أضاف من عنده  
الكثير ، ولا بد أن الأديب قد صاغ كل هذه التفاصيل في صورة روائية  
جميلة ، والأديب هو المسئول وحده عن بقاء هذه القصة المسلية المثيرة . .

ولكن الحقيقة غير ذلك ، فقد عثرت « صحيفة لوزان » على وثيقة  
تركها الدكتور باكار وعليها امضاء بالما هذا يعترف فيها بالما بأن الدكتور كان  
مساعد له . . وأن الدكتور باكار هو الذى رسم الخرائط ؛ وأنه هو الذى  
عالجه عندما سقط جثة هامدة قبل قمة مون بلان ، وأن الدكتور باكار  
وجد أنه ليس من الشهامة ولا من الرجولة أن يصل إلى قمة مون بلان  
وحده . . وتبدأ هذه الوثيقة بعبارة تقول : اقر أنا « بالما » واعترف  
بمنهى الأمانة والصدق وبكامل قواى العقلية أن . . الخ . .

أما تاريخ هذه الوثيقة فيرجع إلى يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٧٨٧ أى بعد  
صعود الجبل بثمانية وعشرين يوما ، ولسبب غير معروف ، توارى الدكتور  
باكار . . ربما كان مريضا ، ربما ذهب لزيارة بعض أقاربه فى ألمانيا . .  
ولكنه وعد بأن يؤلف كتابا عن هذه المغامرة وقال بعض أصدقائه أنه  
قرأ لهم صفحات من هذا الكتاب الذى عنوانه « التفاصيل الكاملة لتسلق  
أعلى جبال أوروبا » ، ولكن أحدا لا يعرف أين هذا الكتاب ، وقد أعلنت  
الصحيفة السويسرية عن جائزة مالية لمن يعثر عليه . .

ومات باكار هذا قبل أن ينشر الكسندر ديماس قصته عن قمة مون بلان  
والتفت الناس إلى اللوحة الفنية التى رسمها الأديب الفرنسى - وهذا طبيعى -  
ولم يلتفتوا إلى هذه الوثيقة القانونية الجافة ! . .

ولكن من المؤكد أن الاثنین قد صعدا الجبل . وبلغا قمة مون بلان ،  
وانهما سبقا عصرهما بسبعین عاما ، وبعد ذلك أصبح تسلق الجبال رياضة  
ممتعة ، وأصبح الناس يعدون لها جميع وسائل الأمن والعلاج والطعام  
والشراب والملابس .

أما الرجل نفسه دسوسبر الذى رصد لهما الجائزة فقد تسلق جبال الألب  
وبلغ قمة مون بلان فى نفس السنة . .

والذين يزورون الآن مدينة شامونيكس يجدون تماثيل لرجلين هما  
بالمسا وهذا الرجل دسوسبر . .

أما الطيب باكار فقد تواری عن الأضواء ، واختار أن يكون هو الشاهد  
الوحيد على صعوده جبال الألب ، وأن یكتفى براحته النفسية ، فقد بلغ  
القمة وهو على یقین من ذلك . . ولا یهم إذا كان العالم لا یصدق ، أو إذا  
صدق ولم یقم له تماثالا . . فهو عندما بلغ قمة الجبل ، وقف جامدا ساعتین  
بلا حركة . . كأنه اراد أن یجعل من نفسه تماثالا فى أعلى مكان ، لأن أحدا  
لن یفعل له ذلك عندما یهبط إلى السفح ، وقد صدقت هذه النبوءة وظلمه  
الأدب ، وانصفه التاريخ وانكرته حجارة التماثيل ! . .

ظفره

إلى حائط الصين

يتفلسف

أما الذى أسند ظهره فهو أديب إيطاليا الكبير البرتو مورافيا .  
وحائط الصين ليس سورا من الحجارة القديمة . ولكنه حالة عقلية قديمة .  
فهو شعور بالعزلة أو بضرورتها . هذا الشعور تحجر على مدى العصور ولكن  
الصين استطاعت أن تجبس نفسها وأنفاسها وراء هذا السور لتكون ماردا  
مخيفا لكل من حولها ، عددها هائل ٨٠٠ مليون نسمة . وأسلوبها فى  
الحياة والفكر متين . والكل يلتزمون به ويحرصون عليه . وهى « الإضافة »  
المؤكدة لكل ما طرأ على الفكر الأشرأكى فى الخمسين عاما الماضية .

والبرتو مورافيا قد زار الصين مرتين فى ثلاثين عاما . وآخر رحلاته  
كانت سنة ١٩٦٧ . وقد سجل رحلته فى كتاب له عنوان « الثورة الثقافية  
فى الصين » . والكتاب رحلة عقلية ونفسية وأدبية وفلسفية . والكتاب متعة  
مؤكدة . وكثيرا ما أقلب فى الكتاب لإعادة قراءة صفحاته وكثيرا ما تمنيت  
أن أقفل الكتاب ولا أعيد قراءة صفحاته فقد جاء الظلم فى عبارة فنية  
جميلة . . ولكنه على كل حال ظلم لأكبر تجربة عرفها التاريخ . .

والفصل الأول من الكتاب على شكل حوار . . بين مورافيا وأديب  
آخر صينى . . أو بينه وبين نفسه . . وهو يحاول أن يفهم وأن يوضح نفسه  
للقارئ . . مستخدما مشرط الطبيب أو سكين القرصان . . ولكنه فى جميع  
الأحوال فنان مجتهد . .

سؤال : كنت فى الصين ؟

جواب : نعم .

سؤال : ما الذى أثر فيك أكثر من أى شئ آخر ؟

جواب : الفقر !

سؤال : تقول الفقر . . فقط الفقر ؟ !

جواب : نعم . الفقر .

سؤال : وهل فى الصين فقراء ؟

جواب : بمقاييسنا فى الغرب . . نعم كل أهلها من الفقراء .

سؤال : وما أثر هذا الفقر فيك ؟

جواب : شعرت بالارتياح !

سؤال : غريب أن تشعر بالارتياح إذا رأيت هذا العدد الهائل من

الفقراء . فالفقر معناه الهوان والفضيل . . ومع ذلك تقول أنك شعرت

بالارتياح ؟

جواب : هذا ما أحسست به . وأنا على يقين مما أقول . والإنسان لا يمكن

أن يحظى فى مشاعره . وهذا بالضبط ما أحسست به طول الوقت فى الصين .

وتسألنى كيف أحسست بذلك فأقول لك لا أعرف . ولكن سأحاول أن

أجيب على هذا السؤال .

سؤال : فى الغرب لا يمكن أن يكون فقط الفقر يوحى بالارتياح . .

أنه يوحى بالقهر وإرادة التمرد . أنظر إلى الزوج فى أمريكا مثلاً ، أنهم

يشعلون النار فى الأزقة التى يعيشون فيها .

جواب : فى أمريكا هناك فقراء وهناك أغنياء . والفقراء فقراء ،

لأن هناك أغنياء . والأغنياء لأن هناك فقراء . ولكن فى الصين لا يوجد

الافقراء فقط . هل فهمت ؟

سؤال : فهمت ، وكان من الواجب أن أدرك ذلك . . ولكن الا توجد لهم في الصين صفات أخرى ؟

جواب : فعلا وصفهم بالفقر هذا وصف غير دقيق .

سؤال : بماذا تصفهم إذن ؟

جواب : لا توجد عندي الآن كلمة مناسبة . . فليس من السهل أن أصف الفقر وحده دون أن أصف الغنى . . أو دون أن أقارن بين الاثنين معا . .

سؤال : ولكن أريد أن أعرف منك حقيقة ما هي هذه الصفحات التي ينفرد بها الفقر الصيني دون بقية الفقراء في العالم ؟

جواب : يمكن أن تصفهم بأنهم فقراء بلا ثراء . أي أن الفقر هو الحالة العادية للإنسان .

سؤال : ليس هذا المعنى واضحا لأنني أرى فيه شيئا من التجنى . . فأرجو أن توضح لي أكثر ؟

جواب : أن المسألة سهلة جدا . كل إنسان يولد فقيرا معدما من كل شيء . أو بعبارة أخرى : أن الإنسان عندما يولد فإنه لا يختلف كثيرا عن الحيوان . لأن الإنسان غالبا يشبه كل الحيوانات الأخرى . . وكثيرا ما أندهش الإنسان عندما ينظر إلى حياته فيقول : هل هذه الحياة تساوى كل هذا العناء والعذاب هل تساوى هذا الجهد الهائل الذي نبذله ؟ ولكي يكون الإنسان انسانا فهو فقير . فالإنسان فقير . لا أكثر ولا أقل . ومن ذلك لا يوجد الا الثراء . فالفقر هو الحالة العادية لأي إنسان . أما الثراء فهو الترف . . فهو كل شيء « زيادة عن اللزوم » . . « زيادة عن الضروري » !

سؤال : هل أفهم من ذلك أن الثراء يجعل من الإنسان كائنا غير عادي . . إنسانا غير طبيعي ؟

جواب : غير عادى أن يكون الإنسان غنيا .

سؤال : ما الذى تقصده بقولك : غير عادى ؟ أو بعبارة أخرى متى يذهب الإنسان إلى ما هو غير عادى . . متى يتجاوز الإنسان ما هو ضرورى وما هو لازم . . أى كيف ينتقل الإنسان إلى ما ليس إنسانيا ؟

جواب : نعود مرة أخرى إلى الصين فالرجل الصينى كما تراه فى الشوارع يملك كل ما ليس ضروريا . على الأقل الآن . أنهم فقراء . كما قلت لا أحد يشك فى أن انسانيتهم كاملة . ولكن هذه الإنسانية ينقصها شئ ييجئ عن طريق الثراء . أى أن هذه الإنسانية فى حجة إلى ما ليست فى حاجة إليه . . أى من الضرورى لها أن يضاف إليها شئ غير ضرورى . . غير لازم . غير حيوى . فهم فقراء يعيشون على ضرورات الحياة . وقد زرت الصين منذ ثلاثين عاما . كان فيها فقراء يعيشون على الكفاف أو لا يكادون وكان فيها أغنياء . وكان الفقراء فى هوان . وكان الأغنياء بلا إنسانية ! وعندما اختفى الأغنياء ، أحس الفقراء بأنهم بشر . ذهب الأغنياء ، فعدت كرامة الفقراء .. اختفى الناس غير الطبيعيين ، وبقي الطبيعئون .

سؤال : هل أفهم من كلامك أن الرخاء أو الوفرة هى مصدر السعادة فى هذه الدنيا . . هذا إذا كنت قد فهمت تماما كلامك ؟

جواب : لا توجد وفرة فى هذا العالم يوجد إنتاج فقط . والإنتاج لا يوصف بأنه يبعث على المرح أو على السعادة . ولا يوصف حتى بأنه حيوى .

سؤال : هل أعرف منك ما هو الفرق بين الوفرة وبين الإنتاج ؟

جواب : الوفرة صفة من صفات الطبيعة والوفرة لا تكلف الإنسان عملا أو مالا أو وقتا . وليس المقصود منها هو الاستهلاك . وإنما الحياة فقط . أما الإنتاج فيحتاج إلى عقل ووقت ومال ولذلك فلا يمكن أن يكون الإنتاج

وافرا أو وفيرا . فالإنتاج متكرر . لأنه إنتاج شيء واحد للملايين المستهلكين ؟

سؤال : اذن أنت ترى أن إنتاج ما لا يحتاجه الإنسان هو شيء غير اساسى . ولكن من الذى يقرر ذلك . . من الذى يقرر ما يحتاجه الإنسان وما لا يحتاجه ؟

جواب : الإنسان نفسه أو فطنة الإنسان !

سؤال : لقد كانت فى التاريخ فترات طويلة اضطر فيها الإنسان ، لكى يؤكد انسانيته أن يملك وأن يعمل ما ليس ضروريا ، ما رأيتك فى عصر النهضة فى أوروبا ؟

جواب : هذه الفترات من التاريخ لا تهمنى . لا تهمنى مطلقا ، وإنما بهمنى العصر الحاضر .

سؤال : إذن لتتكلم عن العصر الحاضر . . من الذى يقرر ما هو ضرورى للإنسان ، وما هو إنسانى ، وما هو عادى طبيعى ، وما ليس عاديا ولاطبيعيا واين يبدأ واين ينتهى ؟

جواب : قلت لك انه الإنسان وحده الذى يقرر ذلك . بحسن إدراكه للأمر .

سؤال : الا ترى أن ايمانك بحسن الإدراك فيه اسراف . . أو الا ترى أن ايمانك بحسن إدراك الإنسان للأمر فيه حسن ظن هائل بالإنسان نفسه ؟

جواب : نعم . أننى أو من بحسن ادراك الناس العاديين لكل ما هو عادى لهم ليسوا فى حاجة إلى ذكاء خارق لكى يناقش الإنسان مسائل الجوع أو الشبع أو الضياع النفسى أو المرح أو الملل . . الخ . . وسوف يجئ يوم يشعر فيه الإنسان العادى بالملل من أنه ليس إنسانا . وسوف يجئ وقت يشعر فيه الإنسان الغنى بأن ثروته هذه قد جعلته مجردا من الإنسانية . . وسوف

يتخلص الأغنياء من ثرواتهم . حتى لو كان هناك فلاسفة وحكماء يؤكّدون لهم أنهم على خطأ .

سؤال : ولكن قل لي ما الذي يفعله حسن الإدراك في مواجهة الثراء ؟

جواب : في مواجهة الثراء سوف يتصرف العقل لا اراديا . فإذا وصل الإنسان إلى قمة الثراء أصبح لا إنسانيا ، بل أنه يحتاج بل ويريد أن يكون فقيرا – أن قمة الثراء مثل قاع الفقر !

سؤال : تقول أن الغنى سوف يتصرف من تلقاء نفسه ؟ ألا ترى أن هذا أمر صعب ؟ وأنه إذا حدث فسوف يستغرق وقتا طويلاً مضنيا ؟

جواب : نعم . لأن الإنسان بطيء بطبعه .

سؤال : وما الذي يفعله الإنسان الغنى لكي يكون إنسانا فقيرا ؟

جواب : لا يفعل أى شئ !

سؤال : كيف ؟

جواب : لن يستهلك وعلى ذلك فلن ينتج ما هو زائد عن حاجته !

سؤال : ولكن الإنسان يجب أن ينتج وأن يستهلك ما أنتجه ! ألا ترى ذلك ؟

جواب : أى إنسان هذا الذى نتحدث عنه ؟

سؤال : أى إنسان . . ألا ترى أن الإنسان عموما لا يفعل أكثر من ذلك ؟

جواب : أنا لا أعرف شيئا عن الإنسان عموما . ولكن الإنسان اليوم – نعم اليوم – هو الذى يجب أن ينتج ويجب أن يستهلك . ولكن الإنسان غدا – نعم غداً – ربما كان مختلفا تماما عن إنسان اليوم وإنسان الأمس .

سؤال : لنكن واقعيين . لتتحدث عن الثراء الحقيقي وعن الفقر . هل في استطاعتك أن تدلني بوضوح أين يوجد الفقر في هذه الدنيا ؟

جواب : فى الصين . ولكن لا يوجد أى شئ يدل على أن الصين  
- جنة الفقراء - سوف تبقى على ما هى عليه إلى الأبد . لابد أن تتغير .  
لن يكون الغد كالـيوم . ولكن جنة الفقراء هذه لكى تظل كما هى ، يجب  
أن يكون لها وجود مستمر . . وجود لا يتغير . .

سؤال : وأين يوجد هذا الثراء اللإنسانى ؟

جواب : فى الغرب طبعاً .

سؤال : اذن نتحدث عن الصين . لنفرض أن هذه اللجنة أصبحت دائماً ،  
أى تحولت إلى حقيقة مستمرة . كيف يحقق أهل الصين هذه النتيجة . .  
أى هذا الاستمرار ؟

جواب : بأن يفعلوا بالضبط ما يفعلونه الآن .

سؤال : ولكنك تعرف جيداً أن الصين تريد أن تتحول من دولة  
زراعية إلى دولة صناعية ومعنى ذلك أن فقرهم ليس إلا نتيجة لاستغلال  
رأس المال من أجل تحقيق الثورة الصناعية .

جواب : أعرف ذلك . وأعرف أنهم يفعلون الآن ما فعله الروس من  
أربعين سنة ، وما فعله الغرب من مائة سنة .

سؤال : ولنفرض أن الثورة الصناعية تحققت وتراكت الأرباح  
وأصبحت حاجتهم إلى الاستثمار أقل مما الذى تفعله الصين برأس المال  
الذى سوف يتراكم باستمرار ؟ يجب أن يرفعوا الأجور ، وأن ينشئوا  
صناعات خفيفة ، لكى تستوعب هذه الأجر - وعلى ذلك سوف تصبح  
الصين دولة كأية دولة أخرى ، دولة غنية . الا ترى ذلك ؟

جواب : هذا صحيح ولكنك نسيت أننا نتحدث عن اللجنة . فى الصين  
جنة . . دولة مثالية . . أنهم يحاولون أن يجعلوا من اللجنة تاريخاً . . والدولة  
المثالية تؤدى إلى حلول مثالية . .

سؤال : هل تدلنى على هذه الحلول المثالية . . ما هى هذه الحلول  
المثالية ، لكى أظل فقيرا ، حتى لو كنت غنيا ؟

جواب : اللجنة أو الدولة المثالية يجب أن تكون فى ضمير كل إنسان .  
أو يجب أن تكون ضميره . فإذا وجد هذا الضمير ، فإن الحل سوف يكون  
معناه : إذا أصبح الإنسان غنيا فهذه خطيئة . وجريمة . وسوف يشعر بأنه  
مخطئ إذا أصبح غنيا .

سؤال : أعرف أن الديانة المسيحية قد فعلت ذلك فى العالم ، دون أن  
تصل إلى نتائج مشجعة ! فما رأيك ؟

جواب : على الرغم من أن المسيحية لبضعة قرون ، حاولت نشر الفقر  
على أنه حالة مثالية للإنسان . ولكن لو حدث ذلك لكان معجزة . ولكن  
المهم هو أن تصور الفقر على أنه الحالة الوحيدة للإنسان . .

سؤال : لا أفهم بالضبط ما تقول ؟

جواب : فى هذا العصر شعوب غنية جدا ، وسوف تشعر بالملل من  
هذا الثراء وتتمنى أن تكون فقيرة لأنها تعبت من الثراء .

سؤال : أن ثلثى العالم لا يجدون الكفاف ! فإذا يحدث لو كره الأغنياء  
فلوسهم وتمنوا لو أصبحوا فقراء ؟

جواب : فكرت فى ذلك . هل سمعت عن الفراعنة .

سؤال : وما دخل الفراعنة فى هذا كله ؟

جواب : ألم تسأل نفسك لماذا أقاموا هذه الأهرامات الهائلة والى  
كلفتهم الكثير من العمل والمال .

سؤال : لا أعرف . قل لى أنت ؟

جواب : لأنه ، فى رأينى ، من الضرورى أن يكون لدى الإنسان ماهو ضرورى . ومما زاد عن ذلك يجب أن يحطمه . فالأهرامات فى زمن السلم مثل الجيوش فى زمن الحرب . . أنه شئٌ يفعله الإنسان لكى يقضى على الثراء ويجعل الإنسان فقيرا .

سؤال : ولكن أين هى أهرامات العصر الحديث ؟

جواب : انها تلك المشاريع العلمية لغزو المريخ والزهرة والقمر . . أنها كل الرحلات الفضائية . فهذه المشروعات العالمية ، تستهلك الكثير من المال والرجال والتعب . أنها بالضبط أهرامات الفراعنة . ثم أن الأهرامات لم تكن نزوة من نزوات الملوك الآلهة ، أنها رمز الحضارة الفرعونية . وكذلك الرحلات بين الكواكب ليست نزوة أنها من أهم معالم الحضارة وجوهر التنافس بين الدول الغنية الكبيرة .

سؤال : معنى ذلك أن الولايات المتحدة تبنى أهرامات كثيرة . . فهى تشن الحروب وتطلق سفن الفضاء وما تزال غنية !

جواب : أمريكا غنية مؤقتا . كما أن الصين فقيرة مؤقتا . ان الصين الآن جنة الفقراء ، وهذا غير طبيعى وغير إنسانى .

سؤال : تقصد أمريكا أو الغرب كله ؟

جواب : أمريكا كنموذج للغرب كله !

سؤال : الا ترى أن الغرب سوف يكون غنيا دائما ؟

جواب : لا أرى ذلك طبعا . أن الغرب يفعل بالضبط ما سوف يجعله فقيرا . لكن دعنا من المستقبل ولننظر إلى الحاضر . ولنساءل لماذا الثراء لا إنسانى وغير طبيعى .

سؤال : صحيح لماذا ؟

جواب : لننظر إلى أى إنسان يريد أن يكون غنيا . أنه عادة يبتكر شيئا جديدا لا ضرورة له . ولكن هذا الشيء حذاء موسيقيا . أى تصدر عنه موسيقى عند كل خطوة . فما الذى يفعله هذا المخترع لكى يجعل إنتاجه شعبيا ويبيعه للناس ؟

سؤال : لا أعرف . . ولكن لابد من الدعاية له ! أليس كذلك ؟

جواب : لابد من الدعاية . أى أنه سوف يخلق رغبة عند الناس لشراء أحذية موسيقية . رغبات وطلبات لا وجود لها . ولا يمكن أن يقول صانع الحذاء للزبون : أننى أبيعك شيئا لا تحتاج إليه . وإنما سيقول له دائما : اننا نبيع لك شيئا ضروريا . وذلك عن تحويل ما ليس ضروريا إلى شيء ضرورى .. هذه الدعاية هى التى تخلق الزبون الذى يستهلك . . أو الزبون المستهلك . . أو جمهور المستهلكين !

سؤال : ولكن الا ترى أنه يوجد مستهلكون فى كل مكان ؟ حتى فى الصين فالذى يشتري الحذاء هو مستهلك .

جواب : هو مستهلك . ولكنه ليس زبونا . وإنما هو إنسان يشتري ما هو ضرورى . ملابس يتغذى بها وحذاء يضعه فى قدميه . . ولكن المستهلك حيوان . .

سؤال : ما الذى تقصده عندما تصف المستهلك بأنه حيوان . .

جواب : المستهلك هو مجرد احشاء . . مجرد بطن . . مجرد معدة . . ومصارين . . أنه مثل أى كائن له فتحات للقبض والمضم والإفراز بعد ذلك . هذه الكائنات لا تفعل أكثر من أن تدخل طعاما من الفم وتمضغه ، وفى المعده تهضمه ، وبعد ذلك تتخلص منه ! . .

سؤال : ولكن ما الفرق بين الصينى وغيره من الناس ؟

جواب : عدة فروق . . فالرجل الأمريكى أو الغربى هو مجرد بطن . .  
لا هو أديب ولا هو فنان ولا فلاح ولا عامل . وإنما هو منتج ومستهلك .

سؤال : ولكن الإنتاج والاستهلاك يغطيان كل النشاط الإنسانى .

جواب : وهذا ما يفكر فيه الرجل الغربى .

سؤال : فقط ؟

جواب : فقط .

سؤال : ولا يفكر فى نفسه ؟

جواب : هذه النفس التى يتحدث عنها الرجل الغربى لا وجود لها .  
فالاستهلاك هو الذى يحدد المستهلك ولا يوجد منتج لا يستهلك . والامات  
جوعا ولكن يوجد مستهلكون لا ينتجون فى كل بلاد العالم ، ويمكن أن  
يقال أن غاية الحضارة الإنسانية هى الاستهلاك – أى الإفراز !

سؤال : ما هذه الكلمة ؟

جواب : معناها إخراج ما لا تحتاج إليه فى جسمك . فالإنسان يستهلك  
ما يريد وبكميات كبيرة . فالمثل الأعلى للمستهلك هو الاستهلاك . ولكن  
النهاية : فى الزبالة !

سؤال : أظنك ترى معنى أن هذه كلمات غير دقيقة وغير موفقة . .  
لأنه يوجد فى الدنيا أشياء كثيرة غير الطعام .

جواب : هذا التعبير الذى لم يعجبك يصلح لكل ما يستهلكه الإنسان .  
فى الصناعة مثلا ؟

سؤال : كيف ؟

جواب : فى المدن الكبرى يوجد الاستهلاك والإنتاج معا ، تماما كما

يتجاور المطبخ ودورة المياه في أى بيت أذهب إلى خارج أياه مدينة سوف  
تجد المصانع . . سوف تجد الأفران الضخمة التى تنتج السلع وقريبا منها سوف  
تجد الأرض التى يلقون فيها مخلفات المصانع والزباله والحردة . لقد استهلكت  
المدينة ما انتجته وهضمته . . ونبتت الذى هضمته !

سؤال : صورة قائمة . . ولكن ما الحل ؟

جواب : الحل هو العفة ! الفقر والعفة . . لا أولاد . . لا جماهير . .  
لا احتياج إلى شئ الرجل وزوجته ماذا يصنعان ؟ أنهما فى حالة نصف وعى  
ينجبان طفلا . . وكذلك المصانع فى شبه ظلام تنتج . . والآلات تنتج فائض  
الإنتاج لتقلل إنتاج الإنسان . . لا حل إذن غير العفة والفقر . .

سؤال : كأنه لا يوجد حب ؟

جواب : ولماذا الحب ؟ أنه عمل ميكانيكى . . أن الحب لا يؤدى  
إلى الجنس . . أن الحب يؤدى إلى العفة .

سؤال : لا أفهم . . لقد دوختنى !

جواب : الحب والجنس غريبان فى هذا العالم . . أنهما مختلفان . .  
الجنس . . إنتاج . . والحب : عفة . . والفقر هو الحالة الطبيعية للإنسان . .  
ولذلك فالصين هى المجتمع الطبيعى الوحيد فى هذا العالم . .

\* \* \*

أرجو أن تقرأ هذه السطور السابقة من جديد - ليست هذه رغبتى ،  
ولكنها رغبة الكاتب الإيطالى الكبير البرتومورافيا . أما أنا فقد فعلت ذلك  
عده مرات !

ولم تجد أهدأ  
يرصفو لرا  
في الزاوية!

عندما ولدت هذه الفتاة ونظرت إليها أمها قالت :

ياساتر . . الخالق الناطق عمها . . أعوذ بالله ! . .

مثل هذه العبارة قالتها أيضا أم الفيلسوف الانجليزي برتراند رسل . .  
ولابد أن أم سقراط قالت عبارة شبيهة بذلك عندما ولدته . . فقد كان  
سقراط دميها ! . .

ولكن هذه الفتاة لم تكن كذلك فعندما كبرت كان الوجه لمثل وجه  
شاب . . والرأس صغيرا والشفتان رفيعتين ، والأذنان صغيرتين . . ولكنها  
أنثى بعد ذلك وبصورة صارخة .

هذه الفتاة اسمها إيمي جونسون . . وهذا الاسم ليست له دلالة الآن . .  
ولكنه في ٥ مايو سنة ١٩٢٠ كان ماثرا للكلام . . وأكثر الكلام سخرية . .  
وبعد ذلك تحول الكلام عنها إلى أن ترتفع العيون إلى السماء . . وتنشرح  
النفوس ويشعر الكثير من الرجال بالحنين . .

هذه الفتاة إيمي ولدت سنة ١٩٠٢ وأبوها صاحب زوارق للصيد . .  
وهي كبرى اخواتها من البنات . . وكانت تلميذة مجتهدة . . وبرعت في  
اللغة الانجليزية . . ولكن براعتها في اللغة اللاتينية كانت حديث المدرسين .  
وكل شيء في حياتها قد بدأ في يوم واحد . فقد قررت وهي صغيرة أن تتركب  
مع اختها ، على سبيل النزهة ، إحدى الطائرات التي حلقت بهما في سماء  
لندن . . في ذلك اليوم قررت أن تكون لها طائرة خاصة . . وأمنتعت

عن الطعام لتوفر ثمن هذه الطائرة . . . ومرضت من الجوع . . . ووعدها أبوها بأن يشتري لها طائرة عندما تكبر . . . ولم يكن جادا . . . ولكن الفتاة لم تعد تفكر في شراء الطائرة ولا في الطيران واتجهت إلى الدراسة . . . وكأنها ادخرت هذا الوعد ، ووضعته في مكان أمين . . . كأنه كنز لعين . . . وأخفته عن العيون . . . وانتقلت من المدارس الابتدائية إلى الثانوية وتخرجت في جامعة شيفيلد . . . وحصلت على ليسانس في الأدب الانجليزي سنة ١٩٢٢ .

هنا فقط اتجهت أيمنى إلى الطيران . . . والكلام عن الطيران . . . ودراسة تركيب الطائرات . . . وقبلها نادي الطيران عضوا . . . ولم تكتف بهذه العضوية ، قررت أن تدرس هندسة الطيران . . . وكانت أول مهندس ميكانيكى طيران في العالم ، ثم طارت حوالى ١٥ ساعة و ٤٥ دقيقة من لندن إلى المدن المجاورة لقد طارت ولا بد أن تتفرغ نهائيا للطيران وتقدم شاب لخطبتها . . . وكرهت أن تراه . . . لأنه ظهر في الوقت الذى قررت فيه أن تعطى حياتها لشيء آخر لا بد أن تطير من لندن إلى استراليا ! وعرضت فكرتها على كثير من المسئولين في لندن . . . وكانوا جميعا ينظرون إليها ويعتذرون عن مساعدتها . . . وقد تعلق العيون من أذنيها . . . أو في اذنيها . . . فقد كان من عاداتها أن تضع اقراطا طويلة تتدلى من أذنيها . . . ولكن الذى ينظر إلى عينيها يجد هذا البريق الذى لا يمكن أن يوصف بأنه دليل على الشجاعة والاصرار والأنوثة . . . ولكن لها نظرات الأنبياء أو الصوفية الذين ينظرون إلى بعيد . . . ويرون ما لا يراه أحد . . . وعندهم نوع من اليقين الغريب . . .

سألها وزير الطيران : ولكن لماذا فكرت في هذه المغامرة الخطيرة ؟

وكان ردها : ولماذا فكر أى إنسان قبل ذلك في أن يغامر ؟ !

ولم يعجبه هذا الرد . . . وأعتذر عن المساعدة . . .

وسألها رئيس مجلس العموم : ولكن يا أبتنى أنت صغيرة ولم تتدربى

بما فيه الكفاية . . .

وكان ردها : أنا أعرف ذلك ولكننى قررت أن أطيّر يوم ٥ مايو سنة ١٩٣٠ أى بعد ثلاثة شهور بالضبط .

ولم يعجبه هذا الرد واعتذر عن المساعدة رغم أنه ضغط على يدها بجملة  
وتمنى لها التوفيق . . وقالت له : أشكرك على حرارتك التى لا تفيد !  
وخرجت . .

واشترت طائرة ماركة « دى هافيلان موت » بمبلغ ٦٠٠ جنيه . . .  
والطائرة لها محركان وقد قطع بها صاحبها أكثر من ٣٥ ألف ميل . . . والطائرة  
طول جناحها ثلاثون قدما ويمكن طى الجناحين وبذلك تدخل غرفة عرضها  
عشرة أقدام . . وهذه الطائرة سرعتها مائة ميل فى الساعة . . . وطول  
الطائرة ٢٣ قدما و ١١ بوصة وأرتفاعها ٧ أقدام و ٩ بوصات . . وتحمل  
٧٩ جالونا من البنزين وتستهلك خمسة جالونات فى الساعة . . أى أن مداها  
لا يزيد عن الف ميل . .

ولم يفتم أىمى أن تمر على شارع الصحافة . . . ولكن أحدا لم يلتفت  
إلى الفتاة الشجاعة وإنما إلى الفتاة فقط . . ولم تنشر عنها الصحف كلمة واحدة .  
لا يهم . . وكانت تقول لنفسها : سوف تنشر الصحف عندما أنجح !

ولكن تقدم لها رجل كبير فى السن وقال لها : اسمعى يا آنسة . .  
أنا مؤمن بأنك سوف تنجحين لقد راقبتك فى الشهور الماضية . . وأنا أوؤمن  
بك . . وسوف أعطيك ٣٠٠ جنيه . . لأن ما تحتاجين إليه من وقود  
فى حدود هذا المبلغ . .

ولما سألته : من أنت ؟

أجاب : رجل غنى . . ليس له معنى ويحاول بهذه الفلوس أن يدخل  
التاريخ على طرف جناح طائرتك . .

وعادت تسأله : ولكن من أنت ؟

فأجاب : اسمي يا أبتى . . لا يهم من أنا . . ولكن أنت في حاجة إلى مساعدة . . والشعب في حاجة إلى مثل عليا . . والمثل العليا يضربها الشباب ويشكك فيها الشيوخ . . . طيرى . . طيرى . .

ولما سألته : وكيف عرف أنها سوف تنجح ؟

قال : عندك جنون العباقرة . . ودقة رؤساء العصابات . . . وزهد المتصوفين . . واحتقار الرجل . . أى احتقارك للجنس . . وليس عن الصدفة أن يخلق الله « النحل الشغال » بلا جنس . . فلا هو ذكر ولا هو أنثى . . ولذلك أخرج لنا هذا النحل أجمل ما صنع الله . . فأنت جميلة وكان في امكانك أن تتزوجى أى شاب . . وتستقرى في الأرض ومن حولك عدد من الأطفال . . لهذا كله سوف تنجحين . .

وأعطاها الرجل المبلغ . . . ولكنها أصرت أن تعرف من هو قبل أن تمد يدها إليه . . وكان الرجل مديرا لأحد المصانع ولم يرزق ولدا . . وماتت زوجته وأمه وأخوته . . وبقي هو الشاهد الوحيد على أسرة أكلها البحر والحرائق والمرض !

وجاء يوم ٤ مايو قبل الموعد الذى حددته بيوم واحد . . وطلت طائرتها باللون الأخضر . . وجعلت خوذتها خضراء اللون أيضا . . واطلقت على طائرتها اسم « باسون » وهو اسم اجدادها من الدنمركيين وقال لها اصداقواها أن اللون الأخضر شئوم على كل من يختاره . . ولكنها أصرت على اللون وعلى الطائرة وعلى الرحلة . . فإذا كان الناس لا يأخذون برأيها ، فلماذا نأخذ بأوامهم !

وقامت برحلة صغيرة في سماء لندن تجرب الطائرة . .

ويوم ٥ مايو ودعت قليلا من الأصدقاء . . ودرجت الطائرة على أرض المطار . . ثم ارتفعت واتجهت إلى أول نقطة في طريقها إلى استراليا . فبعد

٨٠٠ ميل هبطت في مدينة فيينا . قطعت هذه الرحلة في عشر ساعات .. ثم قطعت المسافة من فيينا إلى القسطنطينية في ١٢ ساعة . وفي هذا المطار أحس الناس بشئ غريب .. ووجدت عددا كبيرا من المستقبلين والمضيفين وتردد أسمها في كل العواصم وأحست لندن بأنها قد ودعت ابنها ببرود . وشعر الصحفيون بأنهم قد أساءوا التقدير . ولكن لا وقت للندم .

وفي هذا المطار التركي تقدمت فتاة صغيرة بباقة من الورد .. ثم قدمت لها رسالة صغيرة . تلقت ايمى الورد والرسالة . وعادت إلى طائرتها وفي طريقها إلى مطار حلب على مدى ٥٥٠ ميلا ، فكرت في أن تفتح الرسالة لتعرف ما فيها .. وعندما فتحت الرسالة وجدت هذه العبارة بالإنجليزية : أرجو أن تلقى بهذه الورقة في البحر .. فإن عندنا اسطورة تقول الذى يلقى ورقة زرقاء في الماء لا يسقط في الماء .. أتمنى لك السلامة .

وضحكت لإيمى ووضعت الرسالة في جيبها ولم تلقها في الماء . فهى لا تؤمن بالأساطير ولا بالخرافات ولا بالحسد .

وفي مطار حلب استقبلها عدد من الناس . الذهول أهم معالمهم . وتزودت بالوقود ثم كان عليها أن تقطع هذا الطريق الشاق بين حلب وبغداد فوق الصحراء العربية . ولأول مرة تشعر بالخوف .. فالجو حار جدا . والأرض صفراء مخيفة .. وبسرعة انقلب لون السماء وهبطت عواصف رملية مفاجئة . وتحملت العاصفة ساعة بعد ساعة .. ثم اضطرت إلى الهبوط . وبسرعة وخفة هبطت من طائرتها ووضعت الحقائق وراء العجلات حتى لا تطيح بها العواصف . وأخرجت مسدسها من جيبها استعدادا لأى طارئ .. فقد قيل لها أن هذه المناطق يسكنها جماعة من البدو المتوحشين . وهؤلاء البدو يكونون كراهية للأجانب لا حدود لها .. ولو عرفوا انها امرأة لحطموا طائرتها وأخذوها رهينة أو أى شئ آخر ..

وظلت العاصفة الرهيبة تكنس الصحراء وتلقى الرمال على رأس الفتاة

وعلى هذه « الجرادة » الصغيرة التي جاءت بها من لندن .. ثم هدأت العاصفة .  
وعادت ايمى إلى طائرتها وارتفعت في الجو متجه إلى بغداد . وبشيء من  
العناد أخرجت الخطاب الذى كان فى جيبيها وألقت به فوق الصحراء ..

ومن بغداد اتجهت إلى البصرة ، وكان الجو حارا . وكانت العواصف  
الرملية تهب من كل الاتجاهات وعليها بعد ذلك أن تطير فوق الخليج العربى .  
وقد ملأوا رأسها بالخاوف وقالوا لها أن فوق الخليج جيوبا هوائية وهذه  
الجيوب إذا سقطت فيها الطائرة لم يعد أحد يرى لها أثرا .. وقالت ايمى  
أنها أحست بأنها فى أحد هذه الجيوب .. ولكن الجيب كان صغيرا ولم  
تطل مخاوفها .. وكانت الرؤية متعذرة فوق الخليج .. وعليها أن تصل إلى  
بندر عباس على مدى ٦٠٠ ميل .. ونظرت تحتها فلم تجد أى مكان للهبوط  
فعلى مدى البصر مستنقعات وأوحال . ثم هبطت فى مكان أمين .. وتزودت  
باحتياطي الوقود .

ويوم ١٠ مايو كانت فوق كراتشى . وهى بوابة الهند وأصبحت  
ايمى جونسون حديث الدنيا كلها ..

ومن كراتشى اتجهت إلى كلكتا عبر الوديان الهندية الشاسعة . .  
ولكنها دارت فاتجهت إلى مدينة الله آباد . . وفوق مدينة الله آباد ، رافقتها  
طائرات السلاح الملكى البريطانى ثم تزودت بالوقود . وبعد ٧٠٠ ميل نفذ  
منها الوقود . واضطرت إلى الهبوط . وواصلت الطيران إلى مدينة كلكتا .  
انها الآن قد قطعت نصف الرحلة إلى الهند دون أية حوادث .

وفى مطار كلكتا قابلها أحد السحرة الهنود . وأعطاهم تعويذة . وضحكت  
أكد لها أن الموقف لا يبعث على الضحك . ثم قال : اننى أعلم أن فتاة  
تركية قد أعطتك ورقة وانك ألقيت هذه الورقة فوق الصحراء ..

وانزعجت ايمى . وقالت له : كيف عرفت ؟

وكان رده : إن هذه الورقة ما تزال في جيبيك . ومدت يدها إلى جيبيها فوجدت الخطاب وبداخله الورقة الزرقاء ..

واختفى الساحر الهندي ..

وكان لا بد أن تحتفظ بهذه الورقة . ولكن هذه الورقة لم تمنحها الأمان لقد دخل الخوف قلبها . وأحست بقية الرحلة أن قلبها أعلى صوتا من الطائرة . وأنها ليست هي التي تقود الطائرة وإنما قوة غريبة .. وأن هذه القوة الغريبة قد جردتها من شرف الشعور بالبطولة .. انها سوف تكون في نهاية هذه الرحلة صورة مضحكة للشجاعة . لأن الشجاع حقيقة شخص آخر .. أو قوة أخرى . وحزنت لإيمى وقبل أن تصعد إلى طائرتها ظهر لها الساحر الهندي . وهويقول : اركبي يا إبنتى .. لا تخافى .. أن الورقة لم تعد في جيبيك . أنت سيدة الطائرة الآن !

ومدت يدها إلى جيبيها فلم تجد الورقة . وشعرت بالخوف والفرع . واختفى الساحر الهندي .

أمامها الآن ٦٥٠ ميلا لكي تصل إلى مطار رانجون عبر جبال عالية خطيرة . وكانت الرؤية فوق الجبال صعبة . وارتفعت إلى ١٣ ألف قدم .. ثم عادت فهبطت إلى ١٥٠ قدما .. وظلت سبع ساعات تحاول أن تجد لها منفذا وأخيرا وجدته فوق غابات لا نهاية لها .. ثم عثرت على أشرطة السكك الحديدية وطارت فوقها حتى وجدت نفسها فوق رانجون ..

وعندما قررت الهبوط حدث شئ عجيب .. فقد نزلت إلى أرض لعله أحد ملاعب كرة القدم .. ودرجت الطائرة على أرض الملعب .. ثم دخلت بين خشبات المرمى دون أن يصاب جناحاها بشئ .. ثم قفزت من الطائرة ونظرت لهذه الطائرة الصغيرة التي دخلت المرمى بمنتهى الدقة .. وهبطت من عينها دمعة وهي تقول : إن هذا المشهد يحتاج إلى تصفيق الملايين . ولو كانت كرة لفعل الناس . ولكنها طائرة قادمة من لندن تقودها فتاة !

وهب هواء خفيف دفع الطائرة إلى الأمام فتدحرجت إلى فجوة في الأرض فانكسر الجناح - ولحسن حظها كانت هناك ورشة قريبة وأصلحت الجناح في يوم . وتزودت بالوقود . وعادت إلى الهواء .. في اتجاه شبه جزيرة الملايو . في طريقها إلى سنغافورة .. وقبل أن تصل إلى سنغافورة صعدت إلى الجوّ طائرات من سنغافورة للترحيب بها . وهبطت في هدوء .. وكان حماس الناس جارفا ..

والعالم كله يعرف من هي . ومن أبوها . وأما وأساتذتها في المدرسة والجامعة وقصص أخرى عن غرامها الأول وخطيبها الأول . وكيف أنها قالت لخطيبها الأول : ان قلبي لا يتسع لإثنين .. إما أنت أو الطيران ..

وطار الخطيب الأول وإختفى عن العيون - لقد انتحر !

ولما سألوها إن كانت قد حزنت على خطيبها الأول قالت : من كان قلبها من الحديد لا تحزن على أحد !

وقصص أخرى روتها الصحف أو زورتها الصحف .. وشغلت الناس في كل مكان !

ولكن أصدق ما نشرته الصحف عن هذه الفتاة لم تعبر في حياتها بحر المانش ، ومع ذلك استطاعت أن تعبر المحيط وحدها ودون مساعدة أحد ، بل رغم أن الجميع رفضوا مساعدتها. وأمامها الآن أقسى جانب من الرحلة كلها . لأنها يجب أن تطير فوق مئات الجزر في أندونيسيا وأن تتجه إلى مدينة دارون في استراليا أي حوالي ٢٥٠٠ ميل . وعليها أن تطير معظم الوقت فوق غابات كثيفة ومستنقعات أو فوق براكين أو ماء المحيط . وفوق جزيرة سومطرة تعذرت الرؤية وحاولت الهبوط . واضطرت إلى أن تزحف فوق حقل من قصب السكر ونفذت عيدان القصب في جناحي الطائرة وباتت تلك الليلة ضيفة على مدير المصنع . وحاول الجميع أن يسدو الفتحات في

جناحي الطائرة . وتزودت بالوقود . وعادت إلى الهواء . وعندما ركبت  
الهواء ارتفعت روحها المعنوية .. ثم هبطت بعد ذلك في مدينة سورا بابا ..  
ورافقتها طائرات البريد الهولندية ..

وقررت ايمى ألا تتوقف عن الطيران مادام الجو لطيفا والسماء صحوا ..  
وعند الغروب انطلقت إلى السماء .. ولم يسمع أحد عنها شيئا . ولا رآها .  
وحاولت الشركة الهولندية أن تعرف أين هي .. وكلفت سفنها من ناقلات  
البتروال أن تبحث عنها في البحر .. وتناقل البرق أنباءها : انها اختفت ..  
في الليل أو في المحيط ..

ولكن إحدى ناقلات بتروال شركة شل رأتها متجهة عند الفجر إلى  
ميناء دارون . فأبلغت هذا النبأ إلى مركز الشركة . وتناقلته الصحف العالمية ..  
أن ايمى جونسون في الطريق إلى استراليا .. انها لم تفرق . وكان ذلك هو  
اليوم التاسع عشر منذ غادرت الجزر البريطانية .. لقد وصلت إلى مطار  
دارون .. قطعت ١٢ ألف ميل وليس معها جهاز لاسلكى . وكان من الممكن  
أن تخطئ الطريق . وهذا طبيعى . وإنما انطلقت كأنها سهم . أو كأنها نوع  
من حمام الزاجل . وقبل أن تصل إلى مطار دارون شمال استراليا ، استقبلتها  
الطائرات .. وعلى أرض المطار رأى الناس هذه الفتاة الضئيلة الحجم الرقيقة  
الناعمة ولم يتصور أحد أن هذه النعومة فائقة إلى هذه الدرجة . ولا بد أن هذه  
الأنوثة العنيدة تعبر ١٢ ألف ميل وحدها عبر الليالى والمحيطات والغابات  
والجبال !

ولما عادت إلى بريطانيا صدر قرار بتعيينها أول طيارة في العالم . منحها  
صحيفة « ديلي ميل » عشرة آلاف جنيه .. أما أطفال سيدنى فقد جمعوا لها  
تبرعات اشترى بها كأسا ذهبية . هذه الكأس تمنح الآن كل عام لأكثر  
الشبان شجاعة !

وفي سنة ١٩٣٢ تزوجت طيارا ..

ثم ضربت أرقاما قياسية من لندن إلى رأس الرجاء الصالح ذهابا وإيابا  
وكسبت أموالا كثيرة . وكان عليها أن تختار بين الطيران وبين الحياة الزوجية.  
واختارت البطولة .. أو الطيران .. فليس في الزواج بطولة !

وفي سنة ١٩٤٠ عندما كانت تقود إحدى الطائرات\* الحربية سقطت  
في نهر التايمز .. ولم يهدأ أحد إلى جثتها .. وظلت وزارة الحربية ممتعة عن  
إعلان خبر وفاتها حتى تجد الجثة . ولم يعثر عليها . وأعلنت نهائيا سنة ١٩٤٥  
أنها ماتت .. وإن الفتاة التي عبرت المحيطات غرقت في أحد الأنهار .  
ورواد الفضاء الذين داروا حول الأرض ماتوا في حوادث طائرات  
وحوادث سيارات .

ويقول أبوها أن الشيء الذي أدهشه بعد وفاة إبنته أنها كانت حريصة  
كل الحرص على تلك الورقة الزرقاء .. وأنها كانت تنقلها من فستان إلى  
فستان .. ومن حقيبة إلى حقيبة . ولكن عندما راحوا يقبلون في أوراقها ..  
وجدوا هذه الورقة ملقاة على الأرض . وعندما فتحوا الورقة الزرقاء وجدوا  
هذه العبارة : كان لا بد أن أفارقك فقد حان أجلك ..

لو كانت  
في هذا العمر بقية

حادثة معروفة في التاريخ أن الفيلسوف الألماني شو. بنهور أصدر كتابا .  
وبعد أيام ذهب إلى الناشر يسأل عن الكتاب فوجد الكتاب كما هو لم تنقص  
منه نسخة واحدة .. لم يشتريها أحد .. ثم ذهب مرة ثانية وثالثة وعاشرة ،  
فوجد أن نسخة واحدة قد إختفت. أى أن مشتريا قد ظهر. وراح يبحث عن  
هذا المشتري الغريب . . وأخيرا وجده . . وكان أستاذا في الجامعة . دق  
الباب . . ودخل . وتوقع أن يقول الأستاذ كلمة واحدة عندما سأله :  
ما رأيك في هذا الكتاب ؟ وكانت أذنا الفيلسوف قد أستعدتا تماما لإستقبال  
هذه الكلمة : رائع !

وبعدها يعود إلى البيت لينام . فقد ظل في أرق كل هذه الأيام الأربعين  
التي أختنى فيها هذا الكتاب . ويكفيه جدا قارئ واحد يلهمه أو يمدحه . .  
وبعد ذلك لا يهم أن ينتشر الكتاب .

فالفيلسوف غنى وليس في حاجة إلى فلوس . الكلمة الطيبة لا يمكن  
تقديرها بمال . إنه ترك البيت لأن أمه ترفض أن تقول له : صباح الخير . .  
ردا على صباح الخير التي يقولها هو لأمه . . فهو فيلسوف متشائم . ولا بد أن  
تكون أمه أهم عناصر التشاؤم والشوم في حياته . . وقرر فيما بينه وبين نفسه  
ألا تكون له أم . ففي إحدى الليالي جلس أمام المرأة وقال : أيها الرجل أنت  
نبات الأرض . . أنت نبات برى . . أنت حيوان وحشى . . أنت  
مثل آدم .. لا أم لك !

ولكن الأستاذ الجامعي لم يقل له : رائع .. وإنما قال له كلمة أخرى

لا يمكن كتابتها بآية لغة . . والكلمة ليست أهانة مباشرة له . . ولكن لأمه  
التي جعلت بيتها ندوة أدبية ولم تعلم أنها كيف يقول كلاما واضحا !

وعاد الفيلسوف ليقول عن هذا الأستاذ وعن أمه وعن كل أنسان لم  
يفهم هذا الكتاب : هل صحيح أنه في كل مرة يفتح أنسان كتابا من كتبي  
لم يسمع صوت حمار ينهق ، لماذا يكون هذا النهيق صادرا عن المؤلف  
دائما ؟ !

أى لماذا لا يكون صادرا عن القارئ ؟ !

ولم يعد الفيلسوف يبحث عن كتابه الذى أختفى من الأسواق فى سنوات  
ليظهر بعد ذلك مصباحا . باهرا يضىء الطريق إلى اليأس من الحياة ومن القراءة  
والكتابة ومن التفكير ومن الإيمان بشئٍ إلا أن الشر امرأة . وأن الشيطان  
امرأة . والحياة والموت بمعنى واحد !

قرأ قصة الفيلسوف الألماني أرتور شو بنهور اثنان من الشبان الإيطاليين  
فى وقت واحد . مجرد صدقة . وتقابل الاثنان فى أحد البارات فى مدينة  
تورينو بإيطاليا . الاثنان من أبناء الأمراء . . أو الأغنياء . الأول اسمه الفريد  
نيرو والثانى أسمة : أنطونيو بالبو . . وهما فى الثانية والعشرين من العمر سنة  
١٩١١ ، وكلاهما يهتم بالأدب ويحفظ الشعر . ولهما محاولات فى الرسم . .  
ولذلك لم يكذب يلتقى هذان الشبان حتى تصادقا . وحتى اتفقا على أعمال أدبية  
كبيرة ، لم تدخل الفلوس فى الحساب . فهما قادران على النشر وليس فى حاجة  
إلى ثمن أى عمل أدبى . . وفى يوم قال أحدهما للآخر : مارأيك ؟ ورد عليه  
الآخر : موافق .

قال الأول : إذن نبدأ من الآن ؟

قال الثانى بل من الغد فأنا فى حاجة إلى بعض الوقت لكى أفكر .

قال الأول : ولكنى فكرت ..

قال الثانى : إذن نلتقى هنا بعد أربعين يوما .

قال الأول : موافق !

وافترق الاثنان على أن يكتب كل واحد منها قصة .. وبعد هذه الفترة يجئ الاثنان . ويجلسان ويقرأ كل واحد منها للآخر ما كتب . وبعد ذلك ينشران هذه الصفحات الفنية فى كتابين أو فى كتاب واحد ..

وبعد أربعين يوما جاء نيرو ومعها قصة عنوانها : « لو كانت فى العمر بقية » . أما قصة بالبو فعنوانها : « حبيبى ليس لها قلب من حجر » .. أما القصة الأولى فموضوعها أن شابا أحب فتاة . ولكن هذه الفتاة عدبته . وحاول أن يقنعها بأنه يحبها . ولكنها تظاهرت بالإقناع . وقد حاول هذا الشاب أن يرضيها بأى شكل .. طلب إليها أن تأمره أن يعمل أى شئ .. أن يخلق شعره .. أن يقطع أصبعه .. أن ينام تحت بابها فى الشتاء .. يغمض عينيه ليلا ونهارا ولا يفتحها إلا على قدميها .. لم تصدقة فتاة . وليس عندها سبب معقول لعدم تصديقه .. ولذلك قرر أن يترك لها المدينة كلها .. وأن يعيش بعيدا .. وأن يتزوج أول فتاة تصادفه فى الطريق . وصادف فتاة وكانت جميلة جدا . وتقدم لها .. وفوجئ بأنها أخت الفتاة التى أحبها .. وعرف أن هذه الفتاة قد رضيت بالزواج منه حقدا على أختها .. وانتحر هذا الشاب .. فلن يتسع وقته بعد ذلك لكي يقنع محبوبته بأنها الصدفه هى التى ساقته أختها .. وليس فى عمره بقية لإقناعها .. ولن يكون ولذلك قرر أن يموت !

أما القصة الثانية التى كتبها بالبو فموضوعها أن الفتاة التى أحبها مغرورة . هى تحبه ما فى ذلك شك .. ولكنها تريد منه أن يحبها أكثر . وهى تعلم أنه يحبها . ولكنه لا يندرى ما الذى تريده منه .. أنه يقول لها طول الليل

والنهار : أحبك . وأموت فيك . . . وقلبك هو مقبرة لقلبي . . . وحياتك موتى .  
وموتى حياة لك . . . ولو طلبت الهواء الذى أتفنه لسددت أنفى من أجلك . . .  
ولكنها لم تصدق ما يقول لها . . . فهو رجل صناعته الكلام . وهو يعنى  
مايقول أو لا يعنى ما يقول . . . أما هى فليست صناعتها الكلام . أن  
ما تشعر به تقوله دون أن تهتم كثيرا بشكله أو مضمونه . . . ولكنه يريد أن  
يسمعها تقول له : أحبك . . . ألف مرة . . . فالحب ليس أعمى فقط . . . ولكنه أطرش  
أيضا . . . أو يتظاهر بذلك . . . فالحب - رغم أنه يرى محبوبته - يريد أن  
يلمسها أن يتأكد من وجودها . . . ولذلك كانت عيناه فى أصابعه . . . وفى  
شفتيه وفى ذراعيه . . . كلة عيون عاجزة عن الرؤية ولذلك . . . فهو يريد أن  
يرى أوضح وأن يلمس أعمق . . . وهو أيضا أطرش . . . يريد أن يسمع  
حروف الحب والغرام والهيام والعذاب والأرق حرفا حرفا . . . والحرف الواحد  
ألف مرة وتعب من اقناعها . . . وتعبت فى اقناعه . وقرر الاثنان أن يفترقا . . .  
وقرر هو أن يترك لها الدنيا لعلها تقتنع بأنه صادق فى حبه . . . وأن الحياة  
بعدها لامعنى لها . . . وأن الطريقة الوحيدة لإقناعها بأنها هى معنى الحياة هو  
أن يموت . . . وانتحر . . . أما هى فقد قررت أن تؤكد له بصورة عملية أنها لم  
تكن تريد من وراء الحب شيئا : لا مالا ولا زواجا ، فقد انتحرت أيضا .  
ومات الاثنان دون أن يعرف أحدهما أن الآخر قد مات . . . دون أن يقتنع  
أحدهما بأن الآخر يحبه !

وقرأ الصديقان كل واحد قصته للآخر . . .

وجاءت لحظة صمت . . . طويلة . . . منتهى الحزن . وغاية التشاؤم ولكن  
لحظة التفاؤل الوحيدة قد برقت عندما قالوا فى نفس واحد نشرها فى كتاب  
مستقل . . . إن هذه المعانى تدور فى رؤوس كثير من الشباب مادامت قد  
دارت برووسنا . ولسنا وحدنا من يعرف قصة الفيلسوف الألماني والنسخة  
الواحدة من الكتاب !

وبعد ستة شهور كان كل منهما قد طبع كتابه. وقرر الاثنان أن يكونا بعيدين في أقصى الشمال الإيطالي عندما يصدر الكتابان . . وأن يظلا بعيدين عن عيون القراء وعن أيديهم وأرجلهم عاما كاملا حتى لا يمرا بنفس المحنة التي مر بها الفيلسوف الألماني . .

قال أحدهما للآخر . أن الفيلسوف الألماني هو الحمار لأن أحدا لم يفهم الكتاب فالعيب فيه !

وقال الثاني : بل القارئ هو الحمار لأنه لم يفهم كلام الرجل . . ولم ينس الاثنان أن يدخلوا في مناقشة قديمة موضوعها : من هو الغلطان الكاتب أو القارئ .

ومن المؤكد أن اختفأهما دليل على أن الاثنين يخشيان أن يصفهما أحد بالغموض . . أو بأن كلا منهما حيوان لا يحسن التعبير .

وبعد عام عادا إلى مدينة تورينو . .

وكانت المفاجأة . لقد أختفى الكتابان تماما . وقال الناشر إنه اختفاء غريب . . عجيب . . فقد جاء رجل واشترى جميع نسخ الكتابين . . وقرر أن يوزع أحدهما في جنوب إيطاليا . . وأن يوزع الآخر في شمال إيطاليا . . أن يفصل بين الكتابين والمؤلفين . . ولكن من هو هذا الرجل ! لأحد يعرف . ولكن لماذا؟ لأحد يعرف وكيف عرف موعد صدور الكتابين ؟ لأحد يعرف ! وأحس الاثنان أن هذه عملية خطف . . وأن كلا منهما مثل أم انجبت طفلا وعندما استدارت لتنام إمتدت يد أخرى إلى الطفل وأختفى الطفل .

وفي لحظة واحدة قرر الاثنان أن يمشيا وراء الكتاب إلى الشمال والجنوب وأن يعرف الاثنان من هو هذا الرجل الغامض . . فأوصافه لا تحمل له أية مزايا خاصة . . فهو متوسط القامة - ملايين متوسطو القامة . . وهو كبير الرأس أصلع . . وله كرش . . وأبيض اللون . . أزرق العينين . . صوته

غليظ - إنها صفات تنطبق على نصف الشعب الإيطالي من أيام يوليوس قيصر . . إذن اختفى الرجل ومعه الكتاب . . ولكن لماذا؟ هل هو عفريت ربما كان ذلك . .

اتجه واحد منهما إلى الجنوب . . سافر إلى نابلي . . ومن نابلي إلى أقصى الجنوب عند تاراتو . . ثم إلى صقلية . . ولكنه لم يجد أثرا للكتاب . . لأحد يسمع بالكتاب ولا بالمؤلف . . ذهب إلى كل مكتبة يسأل . . بل انه كان يلتقي بالناس في الطريق . . يقف عند أبواب المدارس . . عند مدارس البنات . . وعينه لا تفارق أيديهن . . وكان يذهب إلى القسيس في الكنيسة يسأله النصيحة . . ويستوضحه إن كانت واحدة قد قرأت مثل هذا الكتاب ، إن كانت واحدة قد انتحرت بسبب هذه القصة ولكن القساوسة يضحكون ويطلبون إليه أن يصبر على بلواه . .

أما رحلة الجنوب فهي من نصيب الشاب نيرو . . وتعب من هذه الرحلة . . وقرر وهو في طريقه إلى جزيرة صقلية أن يرمى بنفسه في البحر ولكنه يريد أن يعرف ما الذي فعله بالبو في الشمال . . إنه يريد أن يعرف من هذا الكائن العجيب الذي قرر أن يمزق الصديقين . . وأن يقتلها في وقت واحد . . ولكن ماذا؟

وعاد نيرو أكثر حزنا . . وطال انتظاره لصديقه ولكن الصديق لم يعد وازداد قلقه عليه . . ثم علم بعد شهرين أن صديقه بابلو قد انتحر . مات . ولم يصدق نيرو ما سمعه . وراح يبحث عن صديقه قيل له أنه انتحر في مدينة ميلانو . وقيل أنه استأجر غرفة وأقفل على نفسه الباب ومات . واشترط على صاحبة البيت ألا تفتح غرفته قبل شهرين . وقيل أنه تعاطى كمية كبيرة من السم بعد أن اختفى في إحدى المقابر في مدينة جنوة .

الوف المقابر . . وقيل أنه كان حريصا على أن يسد باب المقبرة ورائه قبل أن يتعاطى السم ولكن لماذا؟

وذهب نيرو إلى كل هذه المدن . . وهام على وجهه في المقابر . . وطال شعر لحيته . . وتمزقت ملابسه . . وأحس أنه بطل في قصه لمؤلف مجنون . . وأن هذا المؤلف يمشى على الورق يريد أن يصل إلى نهاية الكتاب . . بأى شكل . . وأن الهدف ليس واضحا تماما . . وأنه لا يعرف كيف يضع النقطة الأخيرة في القصة . .

وذهب نيرو إلى أحد قاوسة مدينة تورينو وقال له : صديق مات . . وقبله ماتت قصته وقصتي . . لم يعد للحياة معنى . . سوف أموت بيدي . . وسوف أختار مقبرة من مقابر أسرتي . .

ولم يستطع القس أن يمنعه . . وانتحر ومات . . وفي ٢١ مايو سنة ١٩٣٦ أعلن أحد أديرة مدينة تورينو أنه بعد وفاة هذا القسيس عثروا تحت سريره على حقيبة من الجلد مقفلة ومعها خطاب يقول : آسف لما حدث . ولكني أقسمت على كتمان هذا السر . إنها غلطة والله قادر على أن يسامحني . فليسامحني الله !

أما هذه الغلطة فهي أنه أقسم للشاب بالبو أن يحفظ لنفسه واحدة من قصته . . ونسخة واحدة من قصة نيرو . . ولكن أحدا لم يفهم معنى هذا الخطاب .

وبعد وفاة قسيس آخر في نفس الدير أصبحت القصة معروفة تماما . .

فالشاب بالبو هو الذى أوصى أحد أقاربه فاشترى كل نسخ كتاب نيرو . وأحرقها . ولكنه في آخر لحظة تنبه ضميره . فاحتفظ بنسخة واحدة . ثم أحرق كل نسخ قصته هو أيضا . واحتفظ بنسخة واحدة فقد أحس أن قصة نيرو أجمل وأروع . . فهو لا يطيق أن يراها . . وأن يقرأها الناس وأن

يتحدثوا عنه . . وأن تلتف حوله الفتيات . . وأن يكون مشهورا غنيا . .  
ولذلك قرر أن يموت الكتابان والمؤلفان في وقت واحد .

وفي ٢٣ إبريل سنة ١٩٤٣ أعلن قسيس ثالث في نفس الدير أنه يستطيع  
أن يضيف شيئا إلى مأساة هذين الشابين الصديقين الأديبين . . لقد قرر بالبو  
أن يدفن نفسه في إحدى مقابر أسرة نيرو . . وأنه من العجيب حقا ، أن  
يختار نيرو نفس القبر . . فمات الاثنان في مقبرة واحدة . . ولكن لماذا كل  
هذا ؟

إنه الحقد حتى الموت . . مع أن القصتين على درجه واحدة من الابداع  
الفنى . . وأن كل واحدة منهما قادرة على أن تمتد في عمر صاحبها مئات  
السنين !